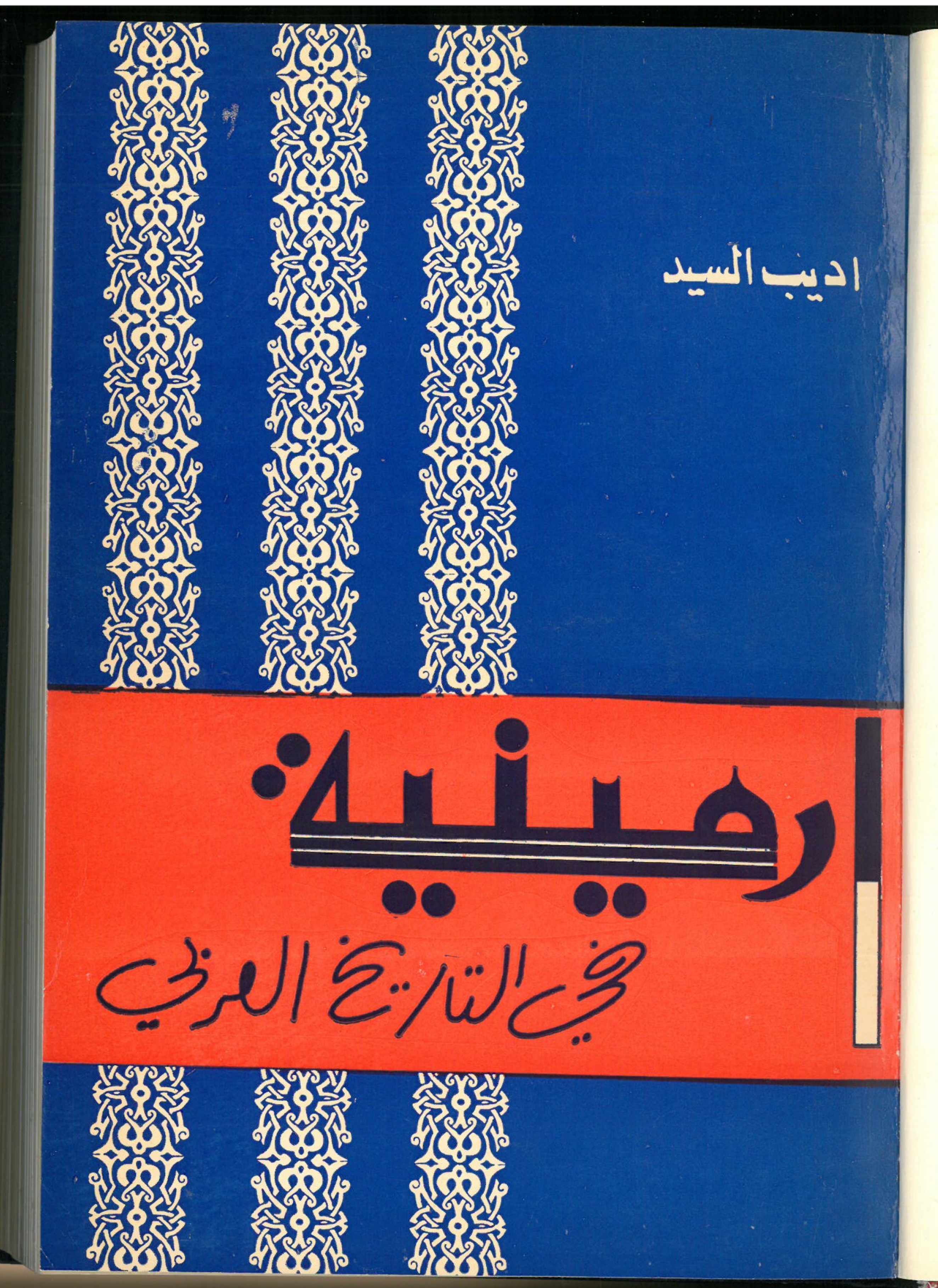

اديب السيد
ارمينية
في التاريخ العربي

اديب السيّد

ارمينية في التاريخ العربي

الطبعة الاولى ١٩٧٢

اهداء

الى الذي ادبني وعلمني

وهو الامي غير المتعلم

الى الذي غرس في نفسي حب الحياة والناس

وجعلني اتغلب على اليأس بالأمل

الى ابي

اقدم اول حصاد

ا . س .

مدخل

في قوة وزخم ، انطلقت الجيوش العربية في النصف الاول من القرن السابع الميلادي ، توسع رقعة المملكة الوليدة ، وتعمق الاسفين الذي احدثته بين امبراطوريتين عظيمتين آذنت شمسها بالمغيب ، هما فارس وبيزنطة ، حتى استطاعت ان تبلغ برأس هذا الاسفين جبال القوقاز في اقصى الشمال .

كان على الامبراطوريتين الكبيرتين ، امام هذا المد الاسطوري ان تسلما بالامر الواقع ، وتعترفا للعملاق الذي يحمل اسم الدولة العربية بالغلبة والنصر .

القت فارس سلاحها ، واعلنت استسلامها ، ثم انضوت هي ذاتها تحت راية الدولة العربية وغدت واحداً من اقاليمها الرئيسية الهامة ، ثم راحت تمارس حقها الطبيعي في تشكيل بنية الصراع السياسي الذي نشب فيما بعد ، وان تقوم بدور خطير وايجابي في تحديد مسار التاريخ العربي .

اما بيزنطة ، فقد ابت ان تلقي سلاحها وتقر بالهزيمة ، بل ذهبت

الي أبعد من ذلك ، فقد انكرت على الدولة الوليدة حق الحياة والتواجد في المناطق المحررة ، والتي كانت من ضمن نفوذها الاستعماري ، واعتبرت نفسها في حالة حرب دائمة معها ، بعد ان ادركت ان واحدة منها لابد ان تذهب ، لتنعم الاخرى بالراحة والاستقرار .

ووجد الفاتح العربي ان لاقبل له على معالجة الاحداث الا باصطناع الاحداث ، وانه لكي يرد هجمات عدوه المتكررة ، عليه ان يشن هجمات اشد عنفاً واكثر تلاحما ، ولكي يصبح الجيش العربي في وضع الاستعداد الدائم ، وسرعه التحرك ، فقد اقام على الحدود العواصم والثغور والروابط ، وأشاد المدن الحصينة والقلاع وجعل فيها قوات كبيرة مرابطة ، ليس لها عمل سوى شن الغارات المتواصلة ، وتحويل مناطق الحدود الى لهب ونار ، وجعل على هذه القوات قادة مهرة اكفاء سجلوا خلال مراحل التاريخ انصع الصفحات .

كانت هذه القوات تدخل ارض العدو في مواسم معينة من السنة ، وذلك خلال فصلي الصيف والشتاء ، فيقال للاولى الصوائف ، وللثانية الشواتي .

وكما ان لهذه الغزوات اياماً ومواسم ، كذلك كان لها طرق معينة تعبر منها . . . وكانت سلسلة جبال طوروس تشكل الحد الفاصل بين الدولة العربية والامبراطورية البيزنطية ، وكان ثمة ممرانِ ضيقان يخترقان هذه السلسلة ، اولهما يقال له درب الصفصاف ، والثاني درب الحدث ، هذا بالاضافة الى الشريط الضيق الواقع على ساحل البحر الابيض المتوسط ، فكان العرب يعبرون من ذينك الممرين ويتوغلون في اراضي الروم حتى قيصرية وكبادوكية ، اما الشريط الجنوبي فكانوا يعبرونه من طريق انطاكية وطرسوس ، تساعدهم في ذلك المراكب البحرية ، ثم يتقدمون حتى منطقة انكورية (أنقرة) .

كان بنو امية – كما يقول البلاذري – يغزون الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلي ثغور الشام والجزيرة في حين تقوم المراكب بالغزو من البحر تدعمها القوات البرية .

وكانت بيزنطة تعتمد على هذه الممرات بالذات في عبورها الى الاراضي العربية ، بعد ان جعلت خطوطها الدفاعية على قسمين احدهما يمتد من ملطية الى عين زربة وهو مخصص لهذه الغارات من شمالي العراق ، ومن ثم شن الهجمات على المناطق المذكورة ، والقسم الآخر يمتد مقابلا الشام لصد الحملات القادمة منها عبر الشريط الساحلي (١) .

وقد اقام الروم عبر آسيا الصغرى سلسلة من المنارات لارسال الانباء باشعال النار ، فاذا عبر الجيش العربي احد هذين الدربين اوقد الحراس النار على اول برج فوق اعلى قمة شاهقة على الحدود ، فيراها حراس البرج الثاني فيوقدون نارهم ، وكذلك البرج الثالث ، والرابع ، حتى يبلغ النبأ القصر الملكي في القسطنطينيه نفسها .

اما العرب فقد كانوا يعتمدون على البريد المتناوب وعلى الحمام الزاجل في ابلاغ الخليفة نبأ هجوم الروم على الاراضي العربية .

★★★

أمام هذه الاخطار الداهمة ، اخذ العربي يتطلع الى اقامة حدود آمنة ، تتوفر فيها الحماية الكافية ، وحتى يضمن وجود مثل هذه الحماية كان لابد له من السيطرة على جميع المسالك والمنافذ المؤدية الى خطوط المواجهة الدائمة الاشتعال ، واعطاء قواته حرية التحرك ، والتقدم او التراجع فوق ارض آمنة ، تخلو من وجود عناصر عدوة ، توجه حرابها في الظلام .

(١) راجع الخارطة المرفقة مع الكتاب

وهنا يجيء دور ارمينية كموقع استراتيجي هام يشغل مساحات كبيرة من خطوط المواجهة العربية – الرومية ، ذلك لأنها تشكل عبر مناطقها الغربية خطا اساسياً من هذه الخطوط ، ومما لاشك فيه ان الدولة التي تنجح في وضع ارمينية تحت نفوذها العسكري تستطيع ان تهدد مناطق عدوها المتاخمة ، مثال على ذلك لو ان بيزنطة استطاعت ان تشدد قبضتها على ارمينية وتدخلها ضمن نفوذها العسكري فان قدرة العرب الدفاعية في الخطوط الامامية ستنهار كلياً ، وسيجدون انفسهم مضطرين الى سحب قواتهم نحو العمق ، والتنازل عن مساحات كبيرة من المناطق المحررة ، ليتمكنوا بالتالي من الدفاع عن الجزيرة واذربيجان وآران والري التي ستغدو تحت رحمة الجيش البيزنطي المرابط في ارمينية .

اما اذا تمكن العرب من طرد النفوذ البيزنطي وضم ارمينية اليهم فانهم لن يدفعوا الخطر عن المناطق المذكورة فحسب ، بل ان قواتهم المرابطة هناك ستصبح قادرة على توجيه الضربات المباشرة للمناطق الرومية المتاخمة .

وبالفعل ، فقد رأينا فيما بعد ، كيف ان انضمام ارمينية الى الدولة العربية قد ساعد العرب كثيراً على إقامة خط دفاعي فاصل ، تتوفر فيه جميع امكانيات الدفاع والمقاومة بالاضافة الى منح الحاميات العربية المرابطة فرص التوغل في اراضي العدو وشل قدرة جيشه الهجومية وجعله في حالة دفاع مستمر .

كان خط المجابهة الفعلية يبدأ من مدينة طرابزون على البحر الاسود شمالاً وينتهي جنوبا عند مدينة طرسوس على ساحل البحر الابيض المتوسط .. وكانت ارمينية تشغل المساحات الشاسعة الواقعة بين طرابزون وملطية في العمق وهي مناطق جبلية كثيرة المعاقل والمعابر ، وعلى هذا فقد ولدت عند

العربي فكرة ايجاد حالة ما ، تجعل ارمينية تقف الى جانبه بدلا من وقوفها الى جانب عدوه . . .

ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ . .

★ ★ ★

الاحداث التاريخية التي تعاقبت فيما بعد برهنت على ان العربي وجد في صداقة الشعب الارمني وتوطيد العلاقات الودية المخلصة معه ، الاسلوب الوحيد الذي اتبعه في ارمينية منذ سنوات الفتح حتى نهاية العصر العباسي .

رأينا العربي قد انتهج بالنسبة الى ارمينية سياسة خاصة ، تختلف كل الاختلاف عن السياسة التي اتبعها في الاقاليم الاخرى ، فارمينية – مثلاً – هي الاقليم الوحيد الذي اعترف فيه الفاتح العربي بسيادة الشعب ، سيادة مطلقة ، وبتحرره من جميع القيود التي قد تحمل طابع الاحتلال المطلق والتبعية ، فكان الانسان الارمني حر التصرف في وطنه ، يختار الحكم الذي يرتاح اليه ، ويولي عليه البطارقة والملوك الذين يثق بهم ، ويتصرف بحياته وبمستقبله على النحو الذي يريد ، دون اي تدخل من الامير العربي الذي يتولى شؤون الاقليم .

بل كان من حق المواطن الارمني ان يرفع صوته بالشكوى اذا واجه حالة من الظلم واعمال العنف ، وكثيراً ما كان صوته يصل الى قصر الخليفة قوياً حاسماً ، فيبادر هذا الى ازالة اسباب الشكوى وتنحية الامير الذي اساء الامانة وانحرف عن الطريق السوي .

كان الولاة العرب في العهود الاولى حين يجيئون الى ارمينية لضبط امورها ، يتخذون بلدا واحداً ليكون داراً للأمارة والحرب ، وكثيراً ما يكون هذا البلد في منطقة نائية كأرّان مثلاً حيث ظلت « برذعة » فترة

طويلة داراً للامارة والجند بالنسبة الى ارمينية ، ثم انتقلت الى المراغة في اذربيجان ، ثم اردبيل ، واخيراً افضت الى دبيل فخلاط .

اما بقية المدن الارمنية فقد كان العرب يقيمون في ارباضهـا ، اذ كانوا ينشئون عند اطراف كل مدينـة ربضاً يعيشون فيـه ، ولم يكونوا يدخلون تلك المدن الا في الحالات الخاصـة ، حتى لا يداخل المواطن الارمني ، ابن البلد الاصيل ، شعور بالخوف او القلق من هذا « المهاجر » القادم من بعيد . .

كان الوجـود العربي خـلال العهود الاولى – يهـدف الى ضمان استمرار علاقات الصداقة والتعاون الخاص بين الشعبين العريقين ذلك لان وجود مثل هذه العلاقات الحسنة كفيل بابعاد شبح الروم عن البلاد العربية المتاخمة للاقليم .

والشيء الثابت الذي لا يستطيع ان ينكره اي انسان ، هـو ان العربي ما كان يقصد من وراء وضع ارمينية تحت نفوذه سوى ضمان سلامة ارضه واحكام خططه الدفاعية ضد عدوه الشرس العنيد .

ويمكن ان نقلب صفحات تاريخ بيزنطة ونتوقف قليلاً امام العهود التي سيطرت فيها على ارمينية لنرى كيف كانت تخوض صراعاً عنيفاً ضد الشعب الارمني المسالم في محاولة لادخاله الكنيسة الشرقية ، وكان الارمني يواجه شتى أنواع الظلم والعنف والاضطهاد بايمان كبير ، وصبر رائـع ، معلناً تمسكه بمذهبه الديني . . وكان هـذا التدخل المتواصل في شؤون ارمينيه الدينية من أهم الاسباب التي جعلت فئات الشعب الارمـني ، او معظمها ، تفضل صداقة العرب على بيزنطة .

نحن لم نقرأ او نسمع ان العرب حاولوا في اي عهد من العهود ، استعمال القـوة في فرض مذهب ديني معين على الشعب الارمني ، بل لم

يحاولوا حتى التدخل في الخلافات والمنازعات التي كثيراً ما كانت تثار بين مختلف الطوائف المسيحية في البـلاد ، معتبرين ذلك من شؤون الشعب الخاصة ، وليس للعرب حق التدخل فيها .

وقل ذلك بالنسبة للأسر الارمنية الحاكمة في أرمينية ، فقـد ظل الشعب الارمني محتفظا بولائه لها ، وظلت هي نفسها متقلدة زمام الحكم في البلاد ، دون أي تدخل من الدولة العربية صاحبة الحق الاول في ذلك .

أجل ، لم يحدث أن حاول العربي ، أن ينتزع حقاً شرعيـاً من حقوق الاسر الارمنية الحاكمة ، باستثناء بعض الحالات التي أسفرت عن أحداث خاصة أو ظروف طارئة ، اجتاحت الاقليم ، وسنجد في الصفحات المقبـلة من الكتاب مثالين على ذلك هما التصرف غير العادل الذي قام به يوسف المروزي في زمن المتوكل على الله والتـدخل المجحف الذي قام به يوسف بن أبي الساج في زمن المقتدر بالله . . ومع ذلك ، فاننا لو أحصينا الفترات التي استغرقتها المنازعات والحروب التي قامت بين العرب وأرمينية ، وقارناها بالفترات التي ساد فيها الامن والسلام ، لوجدنا أن الاولى لا تشكل إلا حيزاً صغيراً يكاد لا يذكر أمام سنوات الازدهار والاستقرار التي عاشتها البلاد في ظل الحكم العربي .

★ ★ ★

بدأ اهتمامي بأرمينية منذ أكثر من سبع سنوات ، حـين بدأت البحث في تضاعيف كتب التاريخ العربي عن الاحداث الهامة التي تحمل طابع الاثارة ، للاستعانة بها في كتابة الاعمال الدرامية لكل من الاذاعـة والتلفزيون .

لاحظت ، وأنا أمضي مع مسيرة التاريخ ، أن اقليم أرمينية كولاية

كانت تعيش في ظل الحكم العربي ، لم تكن بعيدة كل البعد عن مجرى تقلبات السياسة العامة فى عاصمة الدولة الكبرى ، وأن هـذا الاقليم النائي استطاع أن يقوم بأكثر من دور في تحديد معالم الحكم في البلاد ، كما أنه رافق ، بدرجات متفاوتة ، أهم القضايا الرئيسية التي واجهتها الدولة العربية في شتى مراحلها التاريخيه ، بل إن أرض أرمينية نفسها ، لم تسـلم من الاشتراك في الصراع الدامي العنيف ، الذي رسم ملامح الزمن ، وكان له الاثر الحاسم في تاريخ منطقة الشرق العربي بأسرها ...

مثال على ذلك ، معركة منازكرد التي نشبت بين السلطان السلجوقي الب ارسلان وبـين الامبراطور رومانوس البيزنطي التي كانت انعطافا حاداً في تاريخ المنطقة ، وكانت بمثابة جرس الانذار الذي قرع بشدة في جنبات الغرب وكان إيذاناً باندلاع نار الحروب الصليبية .

هـذا ما يتعلق بالاحـداث العسكرية والتقلبات السياسية ، أما إذا انتقلنا الى الشعب ، الى الانسان الارمني ذاته ، فاننا نجد فيه صنواً للانسان العربي ، فكلاهما رجلا حرب وصدام ، وجرأة واقـدام ، وكلاهما يعشقان المغامرة والضرب في الآفاق سـعياً وراء الأفضل والاحسن ، إذ ما كادت حدة الحروب في المنطقة تهدأ وينتشر السلام ويسود الامن وتزول الحـدود بين أقاليم الدولة العربية ، حتى وجدنا هجرة شبه منظمة يقوم بها كل من العربي والارمني ، فالاول رأيناه يجوب الاقليم باحثاً لنفسه عن موضع قدم يتخذه وطناً جديداً وموئلاً ، والثاني يتوغل في عمق الارض العربية باحثاً عن الغنى والثراء وبسطة العيش ورفعة الجاه .

لم يتـوقف الارمني الذي هاجر الى البلاد العربية واتخذ منها موطناً عند حدود العمل في حقول الصناعة والتجارة فحسب ، رغم وجود العديد من الارمن المهرة في كل الحرف والصناعات الدقيقة ، بل سعى أيضاً الى التصدي للمراكز السياسية الهامـة ، وتحمل المسؤوليات الجليلة ، وممارسة حقه الشرعي كمواطن عربي في تسيير دفة الامور وفي رسم معالم المستقبل ،

فكان من الارمن قادة عسكريون برعـوا في رسم الخطط الحربيـة وقادوا جيوشهم الى النصر ، وكان منهم رجال دولة ساهموا بنصيب كبير في صنع الاحداث وتوجيه دفة الحكم في البلاد .

وكما أن التاريخ البيزنطي يروي لنا الكثير من أسماء الارمن الذين لعبوا ادواراً هامة في تاريخ تلك الامبراطورية العظيمـة ، حتى كان منهم الاباطرة والقياصرة ، كذلك فان التاريخ العربي يحدثنـا عن العديد من الارمن الذين لعبوا أدواراً مماثلة في البلاد العربية ، وقد حاولنا في الصفحات الاخيرة من هذا الكتاب أن نرصد نشاط عـدد من هؤلاء الرجال ، كما اهتممنا بالدور الذي لعبته المرأة الارمنية في حياة عـدد من خلفاء الدولة العربية .

والتشابه بين العربي والارمني لا يقتصر على تلك المزايا الاجتماعيـة والسياسية وحسب ، بل اننا نجده أيضاً في الاخلاق والطباع والعادات ، فهما يشتركان في العديد من المزايا الخلقية والنفسية ونظرتهما واحـدة بالنسبة الى الخير والشر والفضيلة والرذيلة .

ولعل خير دليل نستطيع تقديمه على صحة هذه النظرية ، هو التفاتة يسيرة نوجهها الى ما حولنا ، الى الاخوة الارمن الذين يعيشون معنا ، في مدينة حلب بالذات ، فان هذه النظرة الخاطفة تعطينـا أكثر من دليل ، ذلك لأننا لا نجـد ، في الواقع ، ثمه فارق بين العربي والارمني ، لا في الاخلاق ولا في الطباع ولا في السلوك ، بل ان هناك العديد من الاسر الارمنية التي سبق أن نزحت الى حلب منـذ قرن فأكثر ، قـد ذابت في بوتقة هذا الشعب ، وغدت واحدة من خلاياه النابضة بالحياة .



كل يوم كان يمضي عليّ ، وكل صفحة من التاريخ كنت أقلبهـا ،

وكل حدث كنت أتوقف عنده ، كان يزيد من اهتمامي بأرمينية ، بالارض وبالشعب .

أخيراً ، قررت أن أولي وجهي شطر هذا الاقليم .

بحثت في البدء عن كتب معاصرة لمؤلفين عرب يعالجون فيها تاريخ أرمينية لا سيما خلال فترة الحكم العربي ، فأعياني البحث ، ولم أستطع أن اهتدي الى دراسة علمية حديثة تختص بهذا الموضوع .

وعدت أبحث من جديد عن الكتب المترجمة الى العربية أو الكتب شبه المترجمة ، فاذا بي أمام ثلاثة لا أكثر ، أولها ، وهو أهمها في نظري كتاب « تاريخ الأمة الارمنية » للدكتور ك.ل. استارجيان المطبوع في مدينة الموصل عام ١٩٥١ ، وثانيها كتاب « صفحات من تاريخ الأمة الارمنية » لشهان ن. الترك المطبوع في حلب عام ١٩٦٠ ، والكتاب الثالث هو « تاريخ أرمينية » لبول اميل وترجمة شكري علاوي ومن منشورات دار مكتبة الحياة في بيروت (بلا تاريخ) .

ومع ذلك فان الفترة التي تعنيني أكثر من تاريخ أرمينية ، لم تعط في هذه الكتب الثلاثة الاهمية من الدراسة والبحث التي كنت أنشدها ، فقد جاءت مختصرة ومكثفة ، هذا مع تقديري للجهد المبذول في الكتابين الاولين ، ولم تكن هذه الفترة بالذات لتشغل أكثر من عشرين صفحة تقريباً في كتاب يحتوي على نيف وثلاثمئة صفحة .

هنا ولدت الفكرة في رأسي ..

ماذا لو أستفيد من المعلومات التي جمعتها أثناء بحثي عن أرمينية وأعمد الى تنسيقها ورفدها بمعلومات جديدة ، ثم أصدرها في كتاب ؟ ..

إن المكتبة العربية بحاجة ماسة الى كتاب يعنى بتأريخ أرمينية لا سيما في فترة الحكم العربي ... وكذلك المكتبة الارمنية فلا بد أن تكون بحاجة

الى مؤلف يتناول تاريخ أرمينية كما تقدمه المصادر العربية ، وباللغة العربية ، لتضاف بدورها الى المصادر الاجنبية الاخرى كاللاتينية واليونانية والارمنية وغيرها .

وهكذا قررت أن أمضي في تحقيق هذه الفكرة .

عدت من جديد الى حيث كانت نقطة البداية ، وأخذت أجمع المعلومات التي تحفل بها مصادر التاريخ العربي الهامة عن أرمينية ، وقد استغرق مني هذا العمل المضني أكثر من سنتين ، وحين أيقنت أنني « نخلت » تلك المصادر ، ولم أترك فيها شاردة أو واردة عن أرمينية إلا وسجلتها في « فيش » خاص . بدأت عملية تنسيق هذه المعلومات وربطها بعضها ببعض .

وهنا ظهرت أمامي عقبة ما كنت أظن أنني أواجه مثلها من قبل ، ذلك أن معظم المؤرخين العرب القدامى اعتادوا أن يسجلوا أحداث التاريخ بطريقة الحوليات ، أي أنهم كانوا يوردون جميع الاحداث والوقائع التي حدثت خلال عام ، ثم يعودون الى ذكر ما طرأ عليها من تطورات وتغييرات في العام الذي يليه ، وهكذا ...

كان المؤرخ يهتم أولاً بالاحداث التي لها علاقة مباشرة بسلامة الدولة فيفرد لها حيزاً كبيراً ثم ينتقل الى الاحداث ذات الاهمية الادنى ، وقد يتمخض العام التالي عن أحداث جديدة أكثر أهمية ، فاذا بالحدث الذي احتل مكان الصدارة في العام الفائت قد وضع هذا العام في المركز الثاني ، وربما يصبح هذا الحدث بالذات بعد أعوام قلائل من الوقائع الثانوية غير ذات الاهمية ، بعد أن تكون الدولة قد تعرضت لهزات وجائحات أكثر خطورة وقد يتوقف المؤرخ عن متابعة تطورات الحدث الاول كلياً .

والتوقف هنا يعني بتر الحدث وقطع سياقه التاريخي ، فاذا كتب لك أن تعنى بهذا الحدث بالذات فانك لا تلبث أن تواجه لحظة البتر هذه ، وتجد نفسك في موقف حائر ومعقد ، وليس لك خلاص من هذه الورطة

إلا باتباع أحد طريقين .. إما أن تصرف نظرك عن هـذا الحـدث وتلقي بالمعلومات التي جمعتها عنه في سلة المهملات وإما أن تعمد الى طريقـة التخيل والاستنتاج ، وهذه لن تعطيك الضمانة الاكيدة على دقة المعلومات التي تستنتجها ومدى تطابقها مع الحقيقة التاريخية .

لقد اضطررت الى مواجهة مثل هـذا الموقف المحير ، ووجدت في الكتب الثلاثة التي نوهت عنها ما أعانني على رفد سياق الحـدث وتجاوز لحظة البتر ، إلا أن هناك حالات لم أعثر فيها على مصـدر تاريخي موثوق لرأب صدعها ، فلجأت مضطراً الى عملية التخيل والاستنتاج ، وإني لأحمد الله على أن هذه الحالات كانت قليلة ونادرة وهذا ما يجعلني أكثر اطمئناناً الى أن مادة هذا الكتاب قد تم نسجها من خيوط متينـة وصلبة ، ومع ذلك ، فجلّ الذي لا ينسى ولا يسهى .

* * *

والآن ، لا بد من الاشارة الى الاسلوب الذي اتبعتـه في تصنيف هذا الكتاب :

● لقد اتخذت من المراجع العربية مادة أساسية للبحث ، وحاولت كما قلت آنفاً ، أن استعين بالكتب الثـلاثة المذكورة بالاضافـة الى ما جاء في مادة « أرمينية » في كل من دائرتي المعارف الاسـلامية والبستاني ومعجم ياقوت الحموي لاجراء بعض المقارنات و « غربلة » بعض الاحداث ، واستكمال النواقص ، وايضاح النقاط الـتي بدت أمامي شديدة القتامة والغموض .

● استعنت بالكتب الثلاثة وكذلك بدائرة المعارف الاسـلامية ودائرة معارف البستاني على دراسة خصائص الشعب الارمني وتحليل مزايا الارض والطبيعة في أرمينية الكبرى .

● لم أشأ ان اتوسع في سرد الاحداث التاريخية القديمة للأمة الارمنية لاعتقادي أن القارىء الارمني لن يجد فيها جديداً يضـاف الى ما يعرفـه بداهة عن تاريخ أمته العريـق ، أما القـارىء العربي فلن يتمكن من استيعاب الصورة المشرقة لتاريخ ارمينيـة السحيـق مهما اسهبت وتوسعت لان الحديث عن أرض ظلت مشتعلة بنيران الثورات والحروب اكثر من الفي عام وكان لها في كل عام حديث انتصار ، لا يمكن الاحاطة بكل ذلك في حيز صغير من كتاب .

لذلك رأيت أن اقتصر على ذكر بعض اللمحات التاريخية للاحداث الاكثر اهمية لا سيما ما كان منها مرتبطا بمنطقة الشرق الاوسط ، وهذا هو السبب الذي جعلني اعنى بالحديث عن سميراميس الآشورية وديكران الكبير والملكة زنوبيا العربية .

● حين بدأت تسجيل « سنوات الفتح » بدا لي ان أهم مصدر تاريخي استطيع الاعتماد عليه هو كتاب « فتوح البلدان » للبلاذري ، ذلك لأن هذا المؤرخ قد ضمن كتابه معلومات جمعها من مصادر اساسية لا سيما ما يتعلق منها بأرمينية فقد اعتمد في رواية اخبار فتوحاتها على اناس من سكان البلاد بل على عدد من الارمن انفسهم ، يلي ذلك اليعقوبي في تاريخه المعروف ..

● كنت قد عزمت في البدء على أن اخصص جميع صفحات الكتـاب لأقليم ارمينية وحده ، ولكنني ما ان تقدمت قليلا حتى وجـدت استحالة هذا التخصيص ، ذلك لأن الاحداث التي داهمت ارمينية لم تكن بالتالي بعيدة عن تطورات الاحـداث العـامة في الدولة العربية ، ناهيك الاقاليم الاخرى المجاورة ، كأذربيجان مثـلاً ، واران ، والجزيرة ، ووجدت ان الحديث عن ارمينية ، وتحـديد طبيعة العلاقات الادارية والسياسية والحربية والمالية التي تربطهـا

بالعاصمة العربية ، لا بد ان يمر عبر الاقاليم المجاورة ، فأران في الشمال وأذربيجان في الشرق والجزيرة في الجنوب وخطوط المواجهة مع بيزنطة في الغرب ، كانت كلها تشكل مع ارمينية وحدة تاريخية تكاد تكون تامة .

ففي البدء كان الامير الذي يجلس في مدينة برذعة بأقليم اران يتولى حكم ارمينية واذربيجان معاً ، ثم غدا امير اردبيل في اذربيجان هو الحاكم الاول في الاقاليم الثلاثة او الاربعة ، ثم انتقل ذلك الى مدينة دبيل في ارمينية ، ثم خلاط ، وفي بعض الفترات كان امير الجزيرة هو الذي يتولى ادارة الاقاليم المعنية ، وكانت مدينة حران هي العاصمة الاقليمية للمنطقة كلها .

وهكذا وجدت نفسي مضطراً الى توسيع حدود البحث تمشياً مع طبيعة كل حدث ، ورصداً لمقدماته ونتائجه .

● في هذا الكتاب اقتصرت الحديث على ارمينية الطبيعية ، أي ارمينية القديمة ، التي تعتبر الموطن الاول للشعب الارمني ، ذلك لأن أرمينية هذه هي التي خضعت للحكم العربي ، وهي التي مارست حقها الطبيعي في تحقيق امجاد الامة الارمنية ، اما ارمينية الجديدة ، أي كيليكيا ، فانها قد نشأت في غمرة الاحداث المتأخرة التي داهمت منطقة الشرق الاوسط ، وكان الحكم العربي اذ ذاك يعيش حالة من التمزق والضعف والانهيار ، وكان ثمة شعب آخر قد بدأ يمارس دوره الطبيعي في المنطقة ، ونعني به الشعب التركي ، ولما كان هذا الكتاب يهتم بالدرجة الاولى بالاقليم الذي خضع فعلاً لحكم العرب ، لهذا فقد رأيت ان أقصر الحديث على ارمينية الكبرى فقط ، اما كيليكيا والدور الخطير الذي لعبته في تاريخ المنطقة خلال الفترة

التي رافقت سقوط دولة الباقرادونيين في ارمينية الكبرى ومن ثم سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، حتى ميلاد الدولة العثمانية وفتح القسطنطينية ، فان الحديث عن هذا سيكون ميدانه كتاب آخر ، قد يتبع هذا الكتاب .

● يلاحظ القارىء – دون شك – انني استخدمت « شكلاً » معيناً لكلمة « ارمينية » في هذا الكتاب ، ، اذ المعروف حتى الآن ان معظم الكتاب المحدثين يوردن الكلمة بالألف أي هكذا « أرمينيا » ، إلا انني خلال بحثي في كتب المصادر التاريخية العربية وجدت ان معظم المؤرخين العرب القدامى قد اوردوا الكلمة بالتاء المربوطة لا بالألف أي « أرمينية » فرأيت ان اقتدي بهم واثبتها بالشكل الذي اجمعوا عليه ...

* * *

والآن ، لنبدأ المسير ..

القسم الاول

رحلة عبر التاريخ

الارض

اختلف المؤرخون حول اسم ارمينية ، فقال بعضهم انه آرام ابن حارموس ، وقال آخرون بل هو ارميناك بن هاييك ، وان ارمينية في زمن الاخير كانت تسمى هايستان ... وهي حتى اليوم تسمى كذلك ...

يقول البستاني في دائرة المعارف ان ارمينية وآرام من اصل واحد في اللغات الساميه ومعناه مرتفع ، فكما ان سورية قد سميت قديماً – آرام – كذلك سميت هايستان « أرمينية » نظراً لجغرافيتها وتميز أرضها عموماً بالارتفاع . وهذه النظرية تدعم ذلك الرأي الذي يقول ان الآراميين والارمن في القديم كانا متمازجين في العادات والتقاليد واللغة ...

وجد اسم ارمينية لاول مرة منقوشاً على صخرة كائنة بالقرب من بلدة بيهستون ، تركها داريوس الاول بن هستاسب (٥٢١ – ٤٨٥ ق.م.) وقد كتبت بالفارسية والعيلامية والازانية والبابلية الجديدة .

واستعمل الآشوريون في اواخر عهدهم لفظة « ارمانيا » او « ارمينيا » او « ارمينارا » دلالة على ارمينية ، وظهرت هذه الاسماء فجأة في مخلفاتهم الاثرية لتحل محل « نابيري » و « اورارتو » و « خالدي » و « بيينا » مما يفترض معه بأن شعباً جديداً – اي الارمن – قد اجتاح تلك البلاد واستولى عليها ، وكان ذلك حوالي القرن السادس قبل الميلاد ...



وأرمينية كما عرفها المؤرخون العرب وجغرافيوهم تعد قسما من هضبة آسيا الغربية العظمى ، وهي اعلاها سطحا ، اذ أن علو كثير من هضابها يبلغ سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وتمتد بعد ذلك منخفضة من الغرب الى الجنوب ...

يتكون اقليم ارمينية من وحدة جغرافية ذات طبيعة خاصة تميزه عن غيره من البلاد المجاورة ، ويتألف هذا الاقليم من سلاسل جبال متوازية تمتد من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي وتقع بينها هضاب شتى صغيرة ، غنية بالمراعي ، يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين ٨٠٠ متر و ٢٠٠٠ متر . وجبال ارمينية مخروطية الشكل ومعظمها فوهات براكين خامدة ...

يعتبر جبل آرارات الذي كان يقع في وسط ارمينية ، وهو اليوم ضمن الاراضي التركية ، من اروع المشاهد في البلاد ، وهو يتألف من جبلين احدهما كبير ويسميه الاصطخري « الحارث » والثاني صغير ويسميه « الحويرث » ويبلغ ارتفاع قمته حوالي ٥١٦٠ متراً .

ولفظة « آرا » تعني النار ، وكلمة « آرارات » معناها جبل النار لما كان يلفظه في العصور الغابرة من مواد بركانية مشتعلة ، اما الآن فقد ناء تحت وطأة السنين ، وجلل الشيب « رأسه » وكللت هامته الثلوج ...

وصف المؤرخ جاك دي مورغان جبل آرارات فقال :

« اعتبر القدماء هذا الجبل العظيم منبعثاً من قوة خارقة للطبيعة وموطناً للأرواح التي كانت تسمى بالاصل « دراكونا » وتعيش فوق قمته العالية ، وتقول الاساطير ان الآلهة القديمة قد ارست جبل آرارات لتزري به برج بابل الذي صنعته يد البشر » .

وهناك اسطورة ماتزال تعيش حتى اليوم تقول ان سفينة نوح قد استقرت بعد ان انحسرت مياه الطوفان فوق قمة هذا الجبل ، وما تزال

جماعة من الباحثين تقوم بالبحث عن آثار هذه السفينة التي انقذت البشرية من الفناء .

* * *

وارمينية تعتبر بلاد الانهار ، ففيها عشرات الانهار التي تتدفق من سفوح الجبال وتحفر دروبها عبر السهول وفي ارمينية اعظم نهرين في منطقة آسيا الصغرى والوسطى هما الدجلة والفرات ، وينبع الاول من جبال طوروس الواقعة على الحدود الجنوبية ، أما الثاني فيتألف من اتحاد نهرين هما قره صو ومراد صو ، وكلاهما ينحدران من الهضاب الداخلية القريبة من ارضروم وبايزيد ...

والى جانب هذين النهرين العظيمين هناك نهر الرس الذي يندفع من جبال بيك كول طاغي ويروي البلاد الممتدة نحو بحر الخزر ، ونهر الكر الذي يندفع من الشمال حتى يلتقي بنهر الرس قبل ان يصبا في البحر المذكور ..

ويفصل ارمينية عن القوقاز وادي نهر الكر الذي تتجمع فيه مياه ارمينية الشمالية والشرقية ، ويسير الى جانبه نحو الشمال نهير ريونه وينتهي الى البحر الاسود ...

* * *

وفي ارمينية عدة بحيرات ، منها بحيرة وان (١٥٩٠ متراًمربعاً) ويسميها العرب بحيرة خلاط او ارجيش وارتفاعها عن سطح البحر حوالي خمسة آلاف قدم ، وبحيرة « سيوان » (كوك جاي) - (٢٠٠٠متراً مربعاً) وترتفع عن سطح البحر ستة آلاف قدم ، وبحيرة « ارميه » وتعرف باسم « كبوذ آن » (٢٢٣٠ ميلا مربعاً) وتعتبر بحيرة ارميه هذه ضمن اقليم آذربيجان ، لكن هذا الاقليم كان في معظم الاحيان يعتبر داخلا ضمن حدود ارمينية ويعتبر جزءاً من اراضيها ...

والى جانب هذه البحيرات الثلاث هناك مجموعة من الاحواض التي تشكل كل منها بحيرة صغيرة ولكن ليس لها تلك الاهمية التي تذكر ...

★ ★ ★

وصخور ارمينية من الناحية الجيولوجية بركانية التكوين ، تختزن في جوفها مختلف انوع المعادن كالذهب والفضة والرصاص والحديد والنحاس والملح الحجري والرخام والزرنيخ وغيرها ...

اما المناخ فهو غالباً جاف وبارد ، والثلوج تغمر اكثر مناطقها ، لا سيما العالية منها ، الا انه على الاجمال موافق للصحة ، ويصلح مكانا للانتجاع ، والطقس في المناطق المنخفضة معتدل ، ويلاحظ ثمة تباين واضح بين مناطق الهضاب التي يستمر الشتاء فيها طيلة ثمانية اشهر في العام ، وبين المناطق المنخفضة التي يعتدل الطقس فيها بصورة عامة لا سيما تلك التي تقع على شواطىء البحر الاسود وحوض الفرات الاسفل ..

ومناطق الهضاب شديدة الجفاف والزرع لاينبت فيها الا بالري الصناعي .

ومنطقة الثلوج تقع في ارمينية الشرقية على ارتفاع اربعة آلاف متر، على ان منطقة الثلج الدائم لا يزيد ارتفاعها على / ٣٣٠٠ / متر في الجبال الواقعة الى الجنوب والممتدة الى كردستان .

★ ★ ★

ليس لارمينية في الواقع حدود طبيعية ، فهي دائمة التقلص والامتداد، تبعاً لاحداث التاريخ المتعاقبة باستمرار ، وكل انتصار يحققه الشعب الارمني كان يتبعه امتداد وتوسع في رقعة الارض ، وتغدو هذه الارض جزءاً من ارمينية الأم ، وكل هزيمة تعقب هذه الانتصارات يتبعها تقلص للحدود

وانكماش في المساحة ...

وسنرى في الصفحات التالية من هذا الكتاب ان ارمينية لم تعرف في تاريخها الطويل حياة الدعة والسلام ، وان ارضها كانت دائماً مسرحاً للحروب والتصادم بين مختلف الحضارات العظيمة التي كانت تعيش على اطرافها ...

ومع ذلك فان الاقليم الذي يشكل وحدة جغرافية وطبيعية والذي يحمل اسم ارمينية يضم المنطقة الممتدة بين خطي طول ٣٧ و ٤٩ درجة شرقاً وخطي عرض ٣٧،٥ و ٤١،٥ درجة شمالا ، وتقدر مساحة هذا الاقليم بـ / ٣٠٠ / الف كيلو متر مربع ...

تقع ارمينية بين سلسلتين من الجبال هما سلسلة جبال القوقاز شمالا وسلسلة طوروس جنوباً ، وتمتد بين آسيا الصغرى الى الغرب من نهر الفرات وبين آذربيجان والاقليم الواقع الى الجنوب الغربي من بحر الخزر شرقاً ، وبين البحر الاسود الى الشمال الغربي والقوقاز شمالا وبين سهل الجزيرة (مابين النهرين) جنوباً ..

وكان هيرودوت قد استعمل في مؤلفاته لفظة « ارمينية » دلالة على البلاد الواقعة شمالي آشور ، وتقول الاساطير الدينية والشعبية ان الفردوس الارضي الذي كان يعيش فيه آدم كان موقعه في ارمينية ، والمعتقد ان معظم مناطقها الداخلية التي تحف بها سلاسل الجبال المتوازية كانت تشكل بحراً كبيراً في الازمان الغابرة ...

وبالنظر للتطورات الكثيرة التي كانت تطرأ على حدود ارمينية الاقليمية فقد كانت ـ تبعاً لذلك ـ تخضع لأنواع متباينة من التقسيمات الادارية والاقليمية ، ففي العصور الاولى انقسمت البلاد الى قسمين غير متساويين هما ارمينية الكبرى ، أي ارمينية الطبيعية ، التي قسمت الى

خمسة عشر ولاية ، وارمينية الصغرى التي تمتد من الفرات الى منابع نهر حاليس .

وحين جاء العرب ابقوا على هذا التقسيم واعتبروا ارمينية الكبرى تلك النواحي التي قاعدتها خلاط واطلقوا اسم ارمينية الصغرى على تفليس (أي جورجيا) ونواحيها ..

وقد اطلق ابن حوقل اسم « ارمينية الداخلة » على مناطق دبيل ونشوي (نخجوان) وقاليقلا (ارضروم) وما والى ذلك من الشمال، و « ارمينية الخارجة » على بركرى وخلاط وارجيش ووسطان والزوزان وما بين ذلك ..

ثم اصطنع العرب تخطيطاً جديداً استندوا فيه الى تخطيط قديم يدعى تقسيم جوستنيان (٥٣٦م٠) وهو يقسم البلاد الى اربعة اقسام ، وان كانوا قد اختلفوا بالنسبة الى حدود منطقة كل قسم عن التخطيط السابق مما يدعو الى الافتراض بأن تقسيما جديداً للنواحي قد وقع بعد الغزو العربي...

والتقسيم العربي هو الذي يعنينا هنا ، نظراً لأننا سنعتمد عليه في دراستنا هذه ، وهو يتألف على النحو التالي :

ارمينية الأولى

يطلق عليها اسم اران (الران او البانيا) وهي تشمل الارض الواقعة بين نهر الكر وبحر الخزر وقصبتها برذعة .

ارمينية الثانية

منطقة جرزان (جورجيا) وقصبتها تفليس .

ارمينية الثالثة

تشمل الجزء الاوسط من ارمينية الطبيعية بنواحيه دبيل والبسفرجان وبغروند والنشوى (نخجوان) وقصبتها دبيل .

ارمينية الرابعة

الاقليم الجنوبي الغربي بما فيه شمشاط وقاليقلا (ارزن الروم - ارضروم) وارجيش وقصبتها خلاط ...

الشعب

يقول ابن خلدون في تاريخه ان ناحور كان قد هاجر مع اخيه ابراهيم الخليل (عليه السلام) من بابل الى حران ، ثم الى الارض المقدسة ، وكان لناحور زوجة تدعى ملكا وهي ابنة اخيه هاران ، وملكا هذه هي اخت سارة زوج ابراهيم ، وقد انجب ناحور من زوجه ملكا - كما جاء في نص التوراة - ثمانية اولاد ، بينهم قمويل ، كما كان له من سرية تدعى ادوما اربعة اولاد ، وقد مات جميع اولاد ناحور وانقرضت سلالاتهم ماعدا قمويل ، فقد انحدر منه الارمن ، وكان موطنهم في ارمينية شرقي القسطنطينية .

اما المؤرخ موسيس دى خورين ، وهو يعتبر من اشهر مؤرخي الارمن في القرن الرابع بعد الميلاد ، فيقول ان « هايك » الذي يعتبر ابو الارمن ، قد انحدر من سلالة يافث بن نوح ، كما جاء في توالد السلالات، وهايك هو الذي قاد خطوات الارمن في هجرتهم الطويلة الى ان استقر بهم المطاف عند جبال ارارات .

وقد تناسل من صلب هايك اربعة اولاد هم : حادموس وخور ومانااوز وارميناك ، وخلف الاخير ولدا اسمه ارمايس والد كيغام الذي

انحدر منه هارما والد آرام ...

يقول دي خورين ان اسم « هاييك » هو حقيقة اسم الشعب الارمني الذي كان يطلق على نفسه اسم « هـــايي » او « هايكازان » المتفرعة من لفظة « هايي » ومعناها الرأس او الرئيس و « ك » هنا دلالة على الجمع ، والمهم ان اسم هاييك دخل التاريخ كجد اعلى للارمن كما هو الحال بالنسبة الى ابراهيم الخليل عند شعوب شرقي البحر الابيض المتوسط ورمولوس عند اللاتين .

* * *

يصنف علماء السلالات البشرية الارمن بين الشعوب الآرية ، الهندواوروبية ، كالفرس والانكلوسكسون والالمان والسلاف وغيرهم ، وكانت الامم الهندواوروبية هذه قد نزحت بشكل موجتين كبيرتين وانتشرت في آسيا الوسطى حتى اقصى الغرب ، ثم انقسمت الموجة الواحدة الى فرقتين ، دخلت احداها الهند وايران ، ومن هذه الموجة تكونت الامم الهندية والايرانية والمارية ، اما الموجة الثانية فبعد ان اجتازت بحيرة اورال وبحر الخزر دخلت اوروبا .

وعاشت اجيال عديدة منها في شمالي ساحل البحر الاسود ثم تفرقت شيعاً وجماعات تشكلت منها العناصر الهندواوروبية في اوروبا ، ومن هذه العناصر اتجه القسم الارمني في اوروبا جنوباً فعبر نهر الطونة واقام في تراقية ، ومن هناك قطع مضيق الدردنيل الى آسيا الصغرى حيث التقى مع قوم البروكيين .

ووصل الارمن الى ارمينية بعد مصادماتهم مع الحثيين والاوردآرديين بعد رحلتهم بألوف السنين وذلك في القرن السابع قبل الميلاد ، وهناك التقوا

بقوم غير قومهم فاندمجوا بهم كما اندمجت الاقوام الهندية الآرية بالشعوب التي احتلت بلادها ...

* * *

يقول علماء الجنس البشري ان الارمن لا يختلفون عن الشعوب التي تعيش في آسيا الغربية ، من حيث التكوين الجسماني ، فهم طوال القامة نحاف البنية ، ويعتبرون من ذوي الرؤوس القصيرة وقحف الجمجمة الممتد الى النقرة مسطح الشكل ، كما ان نسبة الارتفاع بين آخر الاذن وقمة الرأس خارقة للعادة ، وبسبب هذا التكوين فان تجويف الجمجمة الذي لا يوحى بأنه كبير ومتسع الا انه في الواقع يستطيع ان يستوعب دماغاً ذي حجم كبير ..

اما الوجه فهو مستطيل الشكل وضيق العرض ، والانف دقيق محدودب قليلا ومعقوف والجبهة متوسطة العرض ومحدبة ، والذقن غير بارزة، ولون بشرة الارمني سمراء فاتحة كالابيض الذي لوحته الشمس ، والعينان قاتمتان ، والشعر غامق متموج ، اجعد وكثيف ، كما هو الحال بالنسبة الى اللحية ...

والعنصر الارمني معروف بقوته وبخصبه في الانتاج التناسلي ، وهو شبيه الى حد بعيد بشعوب المنطقة الجبلية التي تعيش بين يوغوسلافيا وايطاليا ..

* * *

قبل ان يعرف الارمن النصرانية ، كانوا يعبدون الآلهة الوثنية التي كانت معروفة في بلاد آشور وفارس . ومن اشهر الآلهة عندهم :

١ - **وانادور** Vanadour : إله الثمر والفيض والبركات ، وكانوا يحتفلون به في اليوم الحادي عشر من نيسان من كل عام .



٢ - **مهر** : Mihre : إله النار والنور ، ويحتفلون به في الرابع عشر من شباط .

٣ - **دير** D.re : إله العلم والفراسة .

٤ - **اهو رامزد** Ahoura- mazde : جد الآلهة جميعاً ، خالق السموات والارض ومانح الخير والحسنات للبشر .

٥ - **واهاكن** Vahakne : إله الشجاعة والبطولة وشبيه الشمس .

٦ - **ناني** Nane : إلهة العفة والعصمة تفيض على النساء الخصائل الجيدة .

٧ - **اصدغيك** Venus : آلهة الجمال ، وكان صنمها ومعبدها في اشديشاد من لواء حوش ، وكان لها عيد خاص يحتفلون فيه بالورود والازهار ولذلك سمي عيدها « عيد الورود » .

٨ - **اناهيد** Anahide : وهي من اهم الآلهة عند الارمن القدماء ، وكانوا يسمونها أم الشعب ، والعذراء بلا دنس ، فهي الهة الخصب والارض المنتجة ، وهي مفيضة المواهب في الحياة والروح ، وكانوا يرمزون اليها بشكل فتاة نبيلة تحمل تاجاً مرصعاً بالنجوم وترتدي ثوباً من ذهب يزينه ثلاثون جلداً من جلود كلاب الماء ، وباعتبار ان اناهيد كانت الهة الخصب عند الارمن كما هو الحال عند الفرس، فان طقوس عبادتها كانت مماثلة للمعبودة « عشتار » عند الآشوريين.

وقد ذكر المؤرخ « سترابو » انه في هيكل اكليزين الارمني الشهير الذي اقيم للآلهة اناهيد في مدينة ارزنجان كانت الكاهنات الوثنيات ينصرفن لاعمال منافية للحشمة ، وكانت تلك الاعمال تعتبر نوعاً من طقوس العبادة ، كما كانت العائلات النبيلة تبعث الى هذا الهيكل

بناتها العذارى فيقمن فيه ويؤدين الطقوس الدينية الغريبة قبل ان ان يقترن بازواجهن .

واغلب العبادات الوثنية القديمة عند الارمن مستوردة من فارس وآشور وغيرهما ، باستثناء عبادة الشمس والقمر فانها من مصدر ارمني أو خلدي صميمين .

* * *

الحياة الاجتماعية في ارمينية القديمة لم تكن لتختلف عن مثيلاتها من حياة شعوب تلك المنطقة ، فالبنية الاجتماعية الارمنية كانت تتشكل من طبقتين ، هما الطبقة العليا أي طبقة النبلاء وملاك الاقطاعات الذين يملكون كل شيء ، والطبقة الدنيا ، أي طبقة العمال والفلاحين وغيرهم ممن لا يملكون أي شيء ...

ثم تشكلت طبقة ثالثة هي طبقة الاكليروس التي كانت تتصرف بالمساحات الكبيرة العائدة الى الكنيسة والتي تشغل اهم المناصب الدينية في البلاد .

ثم تشكلت في الحقب الاخيرة من التاريخ طبقة رابعة هي الطبقة البورجوازية من تجار وموظفين ومهنيين ..

كانت ظاهرة تعدد الزوجات متفشية في البلاد الارمنية وخاصة بين الملوك والامراء ، وظلت كذلك حتى بعد اعتناق الشعب المسيحية ، وفي حكم ارشاك الثاني (٣٥٣ - ٣٦٧ م) أعلن البطريرك نرسيس المصلح الحرب على جميع التقاليد الوثنية التي ما تزال منتشرة بين الشعب ، وامر بمنع الزواج من القريبات وبتحريم تعدد الزوجات وكذلك تحريم دفن الشهداء على اسطحة المنازل لاعتقاد الناس ان الارواح الصالحة تأتيها على هيئة

طيور (هاراليز) فتلحس بألسنتها جراح الشهيد وتبعث الحياة في جسده الهامد ...

والاسرة الارمنية تتشكل من رب العائلة وزوجه (او زوجاته) واولاده وزوجات اولاده واحفاده ، وكثيراً ما كانت الاسرة الواحدة تتألف من مئة شخص ونيفا وهي تمثل في حد ذاتها الخلية الاقتصادية الطبيعية ..

* * *

لم تكن ارمينية في يوم من الايام دولة ذات حكم مركزي ، الا في النادر القليل ، وكانت غالباً تتشكل من مجموعة مقاطعات تفصلها عن بعضها سهول واودية وتتزعم كل منها القبيلة التي ينتمي اليها رئيس المقاطعة والزعامة فيها وراثية ويتمتع رئيس المقاطعة بنفوذ غير محدود .

* * *

يقول المؤرخ موسيس دي خورين ان الارمن لم يستعملوا الكتابة قبل العصر المسيحي ومن المحتمل انهم قد عرفوا وقتئذ الكتابة الهيروغليفية الحثية ، التي يكثر فيها تشخيص الافكار بصورة رمزية ، ثم استعملوا الحروف اليونانية والفارسية وربما الخطوط المسمارية التي كانت شائعة بين شعوب العالم في ذلك الحين .

وقد اشتقت اللغة الارمنية بالاصل من اللسان الهندي الاوروبي كما تأثرت بلغات جيرانها من الشعوب المعاصرة كالآشورية واللاتينية والفارسية والعربية والقوقازية والاورارتية والتركية والكردية وغيرها ..

اما الابجدية الارمنية فيعود الفضل في اختراعها الى اشخاص ثلاثة هم الملك فرام شابوه الذي اعتلى عرش ارمينية من عام ٣٨٧ - ٣٨٨ حتى عام ٤١٣ - ٤١٤ ميلادية والبطريك اسحق بارتيف جاثليق ارمينية ،

اما الشخص الثالث فهو مسروب الحكيم الذي عرف بغزارة علمه وسعة اطلاعه واجادته اللغات الحية المعروفة في ذلك العصر ، والحكيم مسروب هو الذي قام برحلات عديدة الى البلدان المجاورة متقصياً منابع الحرف الارمني حتى توصل اخيراً الى وضع الابجدية الارمنية وقد جاءت في ٢٦ حرفاً .

حين وضعت الابجدية الارمنية بدأ الادب الارمني مرحلة نشاط ووعي قومي وذاتي وحضاري ، وانطلق الشعراء يعبرون عن افكارهم بلغتهم القومية السليمة ، واقبل الناس على تعلم القراءة والكتابة بحماسة لم يعرف تاريخ الشعوب مثيلاً لها ، فتألق الفكر ، وانتشرت الآداب والثقافة ..

كانت الاناشيد الوطنية والاغاني القومية تحتل مكان الصدارة في الادب الأرمني ، كما كانت الاساطير القديمة تلهم الشعراء والقصاصين الصور الفولكلورية الشعبية المبهرة .

ومن الاساطير الارمنية القديمة ، قصة الملك آرا الجميل مع الملكة الآشورية سميراميس التي سيرد ذكرها بعد قليل .

وقصة الملك ديكران الذي قتل الطاغية « اجداهاك » المادي .

والملك ارداشيس الثاني الذي قهر كل اعداء بلاده وحقق لوطنه العزة والمجد والفخار ..

والى جانب ذلك كان ثمة ادباء وشعراء يكتبون في الحب والغزل والوصف الى جانب الاغنيات الراقصة التي كان يرددها في حفلات الزواج والمناسبات السعيدة ..

وكنت ترى في ليالي الشتاء القارسة الكهول من الرجال والعجائز من النساء يتحلقون حول المواقد المتوهجة بالنيران وهم يقصون على افراد اسرهم ، لا سيما الاطفال الصغار الحكايات الغريبة والقصص التاريخية الممزوجة بروح اسطورية تجمع بين الخيال والواقع لكي يضفوا على شخصياتهم ميزات البطولة الخارقة والشجاعة التي لا تقهر ..

قبل الميلاد

ان نظرة نلقيها الى الوراء نستعرض فيها المراحل التي قطعها الشعب الارمني خلال تاريخه القديم ، تعطينا فكرة واضحة عن تلك الامجاد التليدة التي حققها هذا الشعب على مدى احقاب التاريخ ..

وهذه الاحقاب ، اي فترات التفتح والذبول ، يمكن تقسيمها الى فصول ، كما يفعل كتاب المسرحيات ، كل فصل له بداية ولحظات تأزم ثم يسدل الستار مؤذنا بالنهاية ، ليرتفع بعد قليل معلنا بداية فصل جديد ..

★ ★ ★

ان اول فصول المسرحية هو ذلك الذي يسجل تاريخ اول دولة قامت على يد مؤسس ارمينية الاول « هايك » وكان المؤرخون قد اطلقوا عليها اسم « هايكازان » نسبة الى ذلك الرجل الاسطوري العظيم ..

من ملوك تلك الفترة السحيقة الذين اقترنت اسماؤهم بالاساطير الشعبية ، الملك « آرا » الذي تولى الحكم خلفاً لوالده آرام ١٧٦٩ قبل الميلاد ..

يقول المؤرخون ان « آرا » كان فائق الجمال ، حتى ان جماله كان يضرب فيه الامثال ، وكانت مملكة بابل - التي تجاور ارمينية - في اوج

أزدهارها وجبروتها ، وكان عليها ملكتها الاسطورية سميراميس ..

وسميراميس امرأة قوية ، متسلطة ، واسعة الاطماع ، وكان لها هوى خاصاً بالرجال ، فما ان سمعت بجمال « آرا » حتى رغبت فيه ، وبعثت اليه بالرسل يعرضون عليه الزواج ، ولكن آرا رفض العرض متمسكاً بحبه لزوجته الوفية الجميلة ..

قالت سميراميس في احدى سفاراتها اليه انها تريد من هذا الزواج نصراً سياسيا يعود على المملكتين بالخير والسعاده ، ذلك لأن الزواج يؤدي الى اتحاد المملكتين الآشورية والارمنية تحت تاج واحد ، وليكن تاج آرا ان شاء ، او تاج سميراميس ، أو الاثنين معاً ..

ولكن آرا ، الذي يعرف قصة جارته مع زوجها الملك السابق ، حين قتلته لتتربع على العرش مكانه ، وربما رأى بعين خياله المصير المماثل الذي ينتظره على يد هذه المرأة البالغة الخطر ... من أجل هذا تمسك برأيه ورفض قبول كل الاقتراحات التي قدمتها له ..

وسميراميس هي امرأة قبل كل شيء ، لذا فقد أحست بطعنة تسدد الى انوثتها والى عواطفها من هذا الرجل الذي رفض ان يلبي رغبتها .. وحين تعلن الدبلوماسية عن عجزها فان للقوة عند ذلك الحق في ان تتدخل لتحسم الأمر ..

زحفت جيوش بابل وعلى رأسها سميراميس الى ارمينية ، ونهض الملك الارمني الشاب يرد عن وطنه الغزو المدمر ، وبعد معارك طاحنة ، انجلى الغبار عن هزيمة آرا وجيشه .

اعطت سميراميس اوامرها المشددة بوجوب أخذ آرا اسيراً ، واحضاره اليها حياً ، وعدم التعرض اليه بأذى ، ولكن آرا حتى في ساعة الهزيمة واليأس ، كان رجلاً قوياً وعظيماً ، انه يعرف الغاية من

مجيء سميراميس لبلاده ، ويعرف ان النصر العسكري ما كان ليهم هـــذه المرأة مثل النصر الذي تحققه حين تضع يدها على آرا وتقوده الى مخدعها...

لكن آرا سيظل رجلا سيداً ، وسيجعل سميراميس تعاني الحسرة الدائمة بسببه ، فقتل نفسه ، واوصى ان تخفى جثته بين آلاف الجثث التي سقطت على ارض المعركة ..

لا تسأل عن حزن سميراميس العظيم حين بلغهـا نبـأ مصرع آرا الجميل ، وحتى تكفر عن الخطأ الذي ارتكبته احضرت ابنـه كارتو الفتى واجلسته على العرش خلفاً لابيه واطلقت عليه اسم آرا .

وتكريماً لذكرى الحبيب الذي لم يشأ ان يريها وجهه ، شيدت مدينة اطلقت عليها اسم « سميراماكرد » وهي التي عرفت فيما بعد باسم « وان » على شاطىء البحيرة التي تحمل هذا الاسم ..

منذ ذلك التاريخ (١٧٤٣ ق . م .) خضعت ارمينية لبـابل ، وتحولت الى دولة آشورية ..

حين قتل نينو والدته سميراميس ـ وكانت قد تزوجته حسب شرائع تلك العصور ـ وارتقى العرش خلفا لها ، اقطع فانو بن كارتو قسما من ارمينية وجعله ملكا على هذا القسم شريطة ان يدفع له الجزية .

استطاع فانو ان يدير الامور بمهارة حتى تمكن من استرجاع ارمينية كلها وتحريرها من الآشوريين ..

مات فانو عام ١٦٦٢ ق . م . دون ان يعقب ولدا ، فانتقل العرش الى عدد من الملوك مما سبب تقهقر البلاد وخضوعها لمملكة فارس ..

* * *

اذا انتقلنا الى القرن السادس قبل الميلاد وهو التـاريخ الذي بدأ فيه الحكم في ارمينية يأخذ شكلا متميزا يتصف بالطابع الارمني البحت ، بعد ان تم امتزاج الشعوب التي كانت تسكن تلك البلاد بعضهـا ببعض ، نجد ان ديكران الاول يستغل صداقة مملكة فارس فيعلن الحرب على الديلم الذين كانوا من الد اعدائه ، ويقف قورش ملك فارس الى جانبه ، وحين يجني ديكران ثمار هذا التحالف ويحقق النصر على اعـدائه ، يسارع الى ايفاء قورش الدين الذي عليه فيقف الى جانبه في حربه ضد مملكة بابل .

مات ديكران في عام ٥٢٠ ق . م . ونقل الفرس تمثال هـذا الملك الى بلادهم ـ كما قيل ـ وعبدوه ... وخلف ديكران ابنه واهان الذي قام بترميم مدينة سميراماكرد واصلاحها ، واطلق عليها اسمه « وان » .

* * *

حين غزا الاسكندر المقدوني الكبير بلاد الشرق ، وقف « فاهه » ملك ارمينية الى جانب اصدقائـه الفرس ، وحارب معهم ، فلمـــا انتصر الاسكندر وحطم جيش فارس ، طاردت قواته فاهه الى داخـل ارمينيـة حتى تمكنت من القضاء عليه وعلى جيشه وكان ذلك عام ٣٢٧ ق . م .

وبموت فاهه هذا انقرضت دولة هايك التي دامت نحو ١٨٠٠ عام .

* * *

بعد وفاة الاسكندر قسمت البلاد التي افتتحها بين قواده ، فكان نصيب سلوقس مملكة فارس ، وقد عهد هذا الى قائده فراتا فرنيس احتلال ارمينية عام ٣٢٣ ق . م . ثم شطرت ارمينية الى قسمين ، الاول وهـــو القسم الاكبر تولاه ارداشيس والثاني وهو القسم الاصغر تولاه زاره ...

وقد جاء ارداشيس الى الحكم في عام ١٩١ ق.م . بعد انهزام جيوش انطونيوس الكبيرة في العام نفسه واستمر حكمه حتى عام ١٦١ ق.م . ومنذ ذلك التاريخ بدأ تغلغل الرومان في آسيا الصغرى .

حكمت اسرة ارداشيس ارمينية حتى العام الاول من ميلاد السيد المسيح ، وخلال حكم هذه الاسرة ظهر عدة ملوك استطاعوا ان يحققوا لبلادهم اروع الانتصارات وعلى رأسهم ديكران الثاني الكبير (٩٤-٥٤ ق.م) الذي لقب نفسه ملك الملوك اسوة بملوك فارس .

حكم ديكران الثاني ارمينية زهاء اربعين عاماً استطاع خلالها ان يضم الى مملكته ارمينية الصغرى ، وان يسترجع جميع المناطق المنتزعة منها ، وقد امتدت رقعة مملكته حتى مدينة عكا جنوباً بعد ان تم له احتلال كردستان الجنوبية واذربيجان والموصل ونصيبين والرها وحران وكبادوكية وكيليكيا وسورية وجزءاً من فلسطين .

وامام هذه الانتصارات الباهرة التي حققها ديكران الثاني ، واتساع رقعة مملكته ، فقد اضطر الى اتخاذ عاصمة جديدة ، تقع في الوسط من هذه المملكة ويستطيع من خلالها ادارة امور البلاد ، وحفظ الامن وضمان السرعة في رد العدوان ، وهكذا ابتنى مدينة ديكرانا كرد على الضفة اليسرى من نهر دجلة بالقرب من ديار بكر (مدينة ميافارقين الحالية) فاشاد فيها العمارات الضخمة واحاطها بالقلاع الحصينة ، ونقل من كبادوكية ثلاثمئة الف نسمة من الاروام اسكنهم فيها ، كما نقل اليها من اهالي سورية وفلسطين عدداً كبيراً من امهر الصناع وارباب الفنون والحرف للاستفادة من مواهبهم وفنونهم .

يقال ان ديكران شيد في عاصمته عدة مسارح وكان احدها خاصاً ببلاطه ، وكانت هذه المسارح تقدم للشعب مسرحيات سوفوكليس ويوروبيدس

كما قدمت عدة مسرحيات الأمير ارداوست نجل الملك الذي كان يعد من اشهر ادباء وفناني عصره ..

ويعود لكليوباترا زوجة ديكران الكبير وهي من اصل يوناني - وابنه مهرطاد الفضل في هذه النهضة الثقافية والفنية الزاهرة .

اثار هذا النصر العظيم الذي حققه ملك الملوك الارمني حقد قادة الرومان الذين راحوا ينظرون الى فتوحات ديكران نظرة فيها الخوف والتربص والحذر ، ثم كانت الواقعة بين الرومان وارمينية ، انتهت بهزيمة الجيش الارمني ، واضطر ديكران الى ان يعقد صلحاً مع اعدائه تنازل فيه عن جميع المناطق التي احتلها واحتفظ لنفسه فقط بالسيطرة على بلاده الاصلية ..

بسقوط مدينة ديكرانا كرد (٦ تشرين الاول ٦٩ ق.م) طويت تلك الصفحة المشرقة من تاريخ ارمينية ، وعاد الصراع من جديد بين نفوذ دولتي فارس وروما حتى انبثاق النور السماوي من الارض المقدسة ومجيء السيد المسيح بتعاليمه السمحة الخالدة ...

بعد الميلاد

ونمضي مع فصول المسرحية ..

لقد ارتفع الآن الستار عن فصل جديد ... وها هي ارمينية تحت حكم عدد من الملوك الاجانب الذين جاءوا مدفوعين وراء منافعهم الشخصية فجعلوا من انفسهم اداة تحركها اصابع كل من الامبراطوريتين العظيمتين ، فارس من الشرق وروما من الغرب ...

وفي الوقت نفسه كان ثمة صراع داخلي يقوم في البلاد بين حزبين كبيرين احدهما موال للبرثويين الذين يحكمون فارس ويتخذون مدينة (المدائن) عاصمة لملكهم والثاني يدعو الشعب الارمني الى الانضواء تحت العلم الروماني..

فلما جلس واغارش الاول على عرش ايران (٥١ - ٧٧ م.) عمد الى تعزيز الحزب المؤيد لشعبه في ارمينية ، وقرر اسناد حكم هذا الاقليم الى واحد من افراد اسرته ، فاختار شقيقه الاصغر ديرطاد لهذه المهمة ..

حدث هذا في عام ٥٢ م . وحين جاء ديرطاد الى البلاد واجه الكثير من المصاعب وحركات المقاومة التي قامت بها العناصر المناوئة لفارس في البلاد ، الا انه ما لبث ان قضى على هذه الحركات كلها ، وبسط نفوذه القوي على جميع المناطق التي يحكمها ..

لم تقف روما مكتوفة اليدين ازاء هذا التطور الخطير ، فبعث قيصرها نيرون بجيوشه الجرارة لطرد هذا الملك الاجنبي الدخيل واعادة الاقليم الارمني الى سلطان روما ، وبعد معارك طاحنة ، خرجت الجيوش الرومانية في الكثير منها مهزومة مندحرة ، اضطر نيرون الى ايقاف هذه المجازر التي لم تعطه الثمار المرجوة ، وأخذ يتحدث عن السلام ، وبعد مفاوضات تم التوقيع على معاهدة تصون جميع حقوق الفرقاء ، المتنازعين، وبموجب هذه المعاهدة اعترفت كل من المدائن وروما بالسيادة الارمنية القومية ، على ان يعين ملك البرثويين ارشاغونيا لعرش ارمينية ثم يتوج القصر الروماني هذا الملك ..

سافر ديرطاد الى روما تصحبه الملكة وابناؤها والامراء البرثويون وحاشية تبلغ زهاء ثلاثة آلاف جندي ارمني من الفرسان وكثير من كهنة المجوس وعدد من كبار الموظفين الرومان فاستقبل بحفاوة بالغة ، وفي بوردم وضع نيرون تاج ارمينية على رأس ديرطاد وكان ذلك في عام ٦٦ م . وهكذا انتقل تاج ارمينية الى الاسرة الارشاغونية التي حكمت البلاد حتى عام ٤٢٨ ميلادية ..

* * *

يمضي الزمن ، وتتابع فصول المسرحية ، ولا يظهر على المسرح حدث خطير رغم تعاقب الملوك على العرش الارمني ، حتى نبلغ العهد الذي

جاء فيه خسروف الثاني (٢٢٥ – ٢٥٠ م.) الذي حكم البلاد تحت سيادة اخيه ارداوان ملك البرثويين في فارس ...

فقد حدث ان قام ارداشير الفارسي الاصل بانقلاب على ارداوان واطاح بحكمه بعد معركة طاحنة دارت في موقع بالقرب من الخليج العربي، وانتهت بمصرع اردوان . واعلن ارداشير نفسه ملك الملوك في البلاد ثم سارع الى تأمين وضعه السياسي بتقوية المذهب الزرادشتي وعبادة النار ليضم الكهان الى جانبه وبالتالي يأمن خضوع الناس واستسلامهم وهكذا اتيح له أن يؤسس الدولة الساسانية في فارس ..

حين بلغ خسروف نبأ مصرع اخيه اقسم على الانتقام ، وبما ان الرومان قد توجسوا خيفة من ارداشير هذا وهو المعروف بقوته وصلابة رأيه ، فقد سارعوا الى تقديم المساعدة لحليفهم خسروف .

اقتحمت الجيوش الارمنية مملكة فارس العظيمة وازلت بارداشير وانصاره هزيمة منكرة ، الا ان ارداشير ما لبث ان عاد الى الحكم بعد رجوع خسروف الى بلاده . ولم ينس عدوه القوي الذي اوقع به الهزيمة فقرر الانتقام منه ، وهنا ، دفع القدر بشاب من قبيلة سورينيان البهلوية يدعى اناك ، الى ان يكون الاداة المنفذة ، فسافر الى ارمينية وتقرب من خسروف مدعياً في البدء انه هارب من جور ارداشير وظلمه، فلما سنحت له الفرصة اغمد خنجره في صدره وقضى عليه ..

قبض على اناك ثم اعدم ، كما ذبح جميع افراد اسرته باستثناء طفل صغير استطاعت مربيته ان تهرب به الى كبادوكية ليظهر فيما بعد باسم القديس المنقذ كريكور الملقب بالمنور ...

* * *

مات خسروف ، ومات بعده بقليل ارداشير ، وانتقل عرش فارس الى ابن الاخير شابوه ، اما عرش ارمينية فقد تربع عليه قائد الجيش ارداوست مانتكوني ، وكان شابوه قد اعلن سخطه على ارمينية لقتلها اسرة اناك الفارسية ، وهدد بالثأر ، إلا ان ارداوست سارع الى معالجة الموقف بحكمة ودهاء ، فاستعطف شابوه وهدأ من ثورة غضبه ..

في تلك الاثناء خرجت من روما انباء تتحدث عن اضطراب الاوضاع فيها ، وتردي الحالة العامة ، ووقوع انشقاق بين الاسرة الحاكمة، فاراد شابوه ان يهتبل الفرصة ويرد اللطمة الى الامبراطورية الرومانية ، التي سبق ان وجهتها الى مملكته فارس ، فحشد قواته واندفع نحو الجنوب والغرب ، فاحتل بلاد مابين النهرين ونصيبين واجتاح ارمينية ، كما اجتاح كيليكيا وسورية وكبادوكية ، وثبت اقدامه في انطاكية ، ولكنه اضطر الى التوقف امام الرها ، بعد ان وصلت جيوش تدمر العربية بقيادة الامير اذينة ...

وهناك وقعت المعركة الفاصلة وانتهت بهزيمة الجيش الفارسي ، وعاد شابوه الى بلاده ليختفي داخل حدودها ...

* * *

كان اذينه يدين بالطاعة لروما ، شأن حكام منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا وآسيا الصغرى التي يرتفع عليها علم الامبراطورية الرومانية ، فلما بدأ شابوه زحفه الكبير ارسلت روما الى اذينه تطلب اليه الوقوف في وجه هذا الزحف ، ومقاومته ، وامتثل الرجل للأمر ، وسار الى لقاء شابوه ، حيث اوقع به الهزيمة المنكرة عند الرها ...

اراد اذينه ان يكافيء نفسه على هذه الخدمة التي قدمها لروما

فاقتحم اراضي ارمينية واحتل قسما منها بعد ان طرد ارداوست ...

بعد قليل قتل اذينه غيلة على يد بعض قواده وكان ذلك في عام ٢٦٧ م.

★ ★ ★

تربعت الملكة زنوبيا على عرش تدمر خلفاً لزوجها ، وكان أول ما فعلته أن ثأرت لدم أذينة المغدور ، ولما كانت روما هي المحرضة على قتله فقد اعلنت انفصال بلادها عن الامبراطورية الرومانية ، واعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة ووحدة تامتين .

وهكذا استطاعت زنوبيا ان تؤسس اول دولة عربية ذات حضارة مجيدة في الشرق الاوسط ، بعد ان بسطت نفوذها على جميع المقاطعات التي سبق ان احتلها زوجها ومن بينها ارمينية .

ظلت البلاد الاخيرة تحت نفوذ مملكة تدمر العربية زهاء احد عشر عاماً ، أي من عام ٢٦١ حتى عام ٢٧٢ ميلادية .

في هذا العام اقتحم القائد الروماني اورليان حدود المملكة العربية التدمرية ، وبعد حروب طاحنة ومعارك رهيبة ، تمكن من تخريب العاصمة الجميلة ، واوقع ملكتها العظيمة في الاسر ، واسترجع ارمينية واعادها الى سيطرة الامبراطورية الرومانية .

★ ★ ★

هنا انقطع حبل القصة ، وفقدت بعض الصفحات اهميتها التاريخية ، حتى جاء عام ٢٨٣ حين عاد ديرطاد الثالث الى الحكم ، ومكث فيه حتى عام ٢٩٤ ثم فقده ثانية لمدة اربع سنوات ، ثم عاد اليه من جديد وظل هكذا حتى عام ٣٣٠ . وقد عرف هذا الملك برجاحة العقل وسعة

الاطلاع وبعد النظر ..

خلال هذه الاعوام كان كريكور الطفل ابن اناك الذي تركناه مع مربيته في كبادوكيا قد نما وكبر وغدا شاباً مكتمل العقل والرجولة ، ولما كان قد نشأ في بيئة مسيحية صالحة ، فقد اعتنق الدين الجديد ونذر نفسه لخدمة الرب والوطن ..

كان اول عمل قام به كريكور ان توجه لمقابلة الملك ديرطاد في منفاه ، فواساه باخلاص دون ان يكشف له عن حقيقة شخصيته ، ثم رافقه لدى عودته الى ارمينية حين استتبت له الامور ...

بعد قليل شعر ديرطاد بأن كريكور يقوم سرا بالدعوة الى النصرانية واكتشف انه ابن اناك الذي قتل اباه خسروف ، فأمر باعتقاله وزجه في احدى زنزانات قلعة العاصمة ارداشاد فلاقى على يد سجانيه انواع العذاب والتنكيل ...

اصيب ديرطاد بمرض عضال ، عجز عنه نطس الاطباء وطقوس الكهنة المجوس .. وقيل ان شقيقة ديرطاد رأت فيما يشبه الحلم رجلا يقول لها ، الرجل الوحيد القادر على شفاء اخيك هو كريكور الصالح ، ونهضت المرأة من فراشها واسرعت الى شقيقها تروي له ما رأته ، فأمر باستدعاء كريكور من سجنه ، وقد برحت به الآلام وبقلب مفتوح وايمان صادق ، نسي كريكور العذاب الذي يلاقيه على يد هذا الرجل ، فأقبل على علاجه مستعيناً بصلواته ودعواته ، وقد تحققت المعجزة وشفي الملك .

حين نهض ديرطاد من فراش المرض اعلن اعتناقه الدين المسيحي واتخذ كريكور منذ ذلك اليوم كبير امناء سره وآثره على جميع وزرائه ، ثم حقق له امنية حياته بأن جعل النصرانية ديناً رسمياً للدولة ...

وعلى الأثر ظهرت ردة فعل عنيفة لدى الكهان الفرس وعبدة الاوثان والنيران في البلاد ...

يقول المؤرخ زينوب دي كلاك :

ان المقاومة كانت عنيفة وضارية في مقاطعة دارون ، وكانت اشد عنفاً في منطقة ارزنجـان التي كان فيها صنم كبار الآلهـة ، حيث نشب القتال حامياً بين رجال دبرطاد وكريكور من جهة ، وبـين القوات الوثنية المـلحة من جهة ثانية ، وكان النصر حليف قوى، الخير والصلاح، وبعد ان انجلى غبار المعركة امر القديس كريكور المنور بتحطيم صنم المعبد الذي كان مصنوعاً من معدن النحاس ، وكان ارتفاعه ستة امتار...

وعمد دبرطاد بعد ذلك الى بناء مدينة « ايشهيازين » الـتي اصبحت مدينة الارمن المقدسة والمركز الروحي لجميع طبقات الامة الارمنية .

بعد انتهاء مهمة كريكور الدنيوية تنحى عن منصبه لولده اريستاكوس الذي حضر في ازتيك عام ٣٢٥ المؤتمر الديني العام لجميع البطاركة ، ذلك المؤتمر الذي اتخذت مقرراته فيما بعد اساسا للطقـوس الدينيـة الارمنيـة واعتكف القديس المنور في غار يقـع على سفح جبل سيبوه بارمينيـة الى ان وافاه الاجـل ..



وتستمر فصول المسرحية على هذا النحو المثير ، بين احداث دامية، ومؤمرات باغية وتنافس شديد على السلاطين الزمنية والروحية ، فمملكـة فارس لم تهدأ لحظة عن اثارة الشحناء والتخاصم بين ابناء البلد الواحـد طمعاً في القضاء على الدين الجديد واسترجاع البلاد الى حظـيرة المجوسية ووضعها تحت سلطة كهان فارس . في حين كانت الامبراطورية الرومانيـة



ملك الملوك ديكران الكبير في مجلسه الملكي



مدينة قارس

الشرقية التي اعتنقت المسيحية تحاول ان تسيطر على ارمينية باسم الدين الجديد...

وفي عام ٤٨٤ م . حين مات عاهل فارس الملك بيدوس ، كانقد ابرم مع الأرمن معاهدة تنص على ما يلي :

١ - الدين المسيحي هـو الدين الرسمي لأرمينية وليس للملك أي حق في التـدخل او الامر بالارتداد عنـه ، ولا تشجيـع الفرس على ذلك .

٢ - وجوب المساواة في انتخاب موظفي الدولة على ان يفضل العضو النافع للمصلحة العامة .

٣ - على الملك ان لا يصغي للمنافقين والدساسين ، وان يأخذ الامور بالمشاركة والمحاكمة .

وكانت هذه المعاهدة بمثابة انتصـار مؤزر الأرمن في زمن كانت الغلبة فيه للقوة الباغية ..

ولكن الأرمن الذين وقفوا في وجه فارس ورفضوا العـودة الى المجوسيه ، كذلك وقفوا في وجه بيزنطه الـتي ارادت ان تحملهم على قبول قوانين المجمع الخلقدوني .

في هذه الفترة العصيبة من تاريخ ارمينية ظهر القائد البطل المنقذ وارطان (الثالث) ماميكونيان ، الذي قاد شعبه الى النصر وخلد اسمـه في اعظم صفحات تاريخ أرمينية وأروعها ، وحين اراد احد قياصرة الرومان (موريك) ان يخمد ثورات الارمن بالتعـاون مـع كسرى الفرس ، وذلك بابعاد الامراء الارمن من بلادهم والقضاء على القيادات الـتي توجـه حركة المقاومة الشعبية ، تصدى لهم سمباد الباقرادوني ، وطاويد ساهاروني وتيودور رشدوني ، وبوأوا خطـة القسطنطينية والمدائن بالفشل وثبتوا في كفاحهم الوطني الصادق حتى عام ٦٤٠ وهو تاريخ دخول العرب ارمينية ...

سنوات الفتح

سقطت المدائن ، وانهارت مملكة فارس ، وخرج هرقل من سورية بعد ان القى عليها نظرته الاخيرة ، وودعها وداعا لم يكن بعده لقاء ...

وانطلق الفارس العربي يمعن في الارض ، غازياً ، مجاهداً ، فاتحاً ، مبشراً ، بدين جديد ، وبرسالة سماوية جديدة .

حدث كل هذا ولم يمض على الهجرة المحمدية اكثر من عشرين عاماً ...

وبينما كان ابو عبيدة بن الجراح (١) قائد الجيش العربي في الشام مقيماً في حمص يسوس الامور ، وينظم أوضاع البلاد التي تحررت منذ هنيهة من ربقة الاستعمار البيزنطي وعادت السلطة الى الشعب الذي اخذ الآن يحكم نفسه بنفسه في ظل الراية العربية الجديدة ، اذا بقوات كبيرة من الروم تقتحم البلاد على حين غرة ، فبادر ابو عبيدة الى صدها ، واسرع يكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه الخبر ويقول له ان اهل الجزيرة

---

(١) اسمه عامر بن عبد الله بن الجراح من الرعيل الاول شهد مع الرسول العربي الكريم معظم المعارك التي خاضها ومنها بدر وأحد والخندق ، وقاد الجيش العربي حين فتح سورية ومات في طاعون عمواس وله من العمر ٥٨ سنة .

هم الذين استجاشوا الروم على اهل حمص وهم الذين مهـــدوا لهم طريق العبور الى ارض الشام [1]

وبناء على أمر الخليفة بعث سعد بن ابي وقاص أمير الكوفة بعياض ابن غنم [2] مع عدد من القادة على رأس جيش من اشجع الرجال مدداً لأبي عبيدة ، وتوجه عياض في البدء الى الجزيرة فأدب العصـاة واخضع المتمردين وساس الأمور فيها ، ثم انحدر جنوباً الى حمص . ونظراً للشجاعة النادرة والادارة الحكيمة التي ابداها عياض فقد رأى ابو عبيدة ان يضمه اليه ويجعله واحداً من قادة جيشه فكتب بذلك الى الخليفة العـادل فوافق عمر على ذلك .

حتى يأمن ابن الجراح جانب الغدر من بعض الفئـات الممالئة للروم من سكان الجزيرة كلف حبيب بن مسلمة [3] بالامارة على حربهـا والولاية

---

١ ــ قادة فتح العراق والجزيرة ص ٣٤٠

٢ ــ عياض بن غنم واحد من صحابة الرسول الكريم ومن الذين شهدوا الحـديبيـة ونالوا شرف الجهاد تحت لواء النبي فى غزواته الاولى ، ثم صحب خالد بن الوليد حين جاء الى دمشق وبقى فيها الى جانب ابي‌عبيدة بن الجراح حيث شهد جميع معارك الشام وكان مع ابي عبيدة على مقدمة الجيش حين تم فتح مدينة حلب وهو الذي ابرم معاهدة الصلح مع ابناء حلب ، وحين مات عياض لم يترك وراءه مالا ولم يكن عليه دين ، فقد كان جواداً كريما .

٣ ــ حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي قـائد من كبار الفاتحين يقرنه بعضهم بخـالد بن الوليد وابي عبيدة بن الجراح ولد بمكة وخرج الى الشام مجاهداً في ايام أبي بكر فشهد اليرموك ودخل دمشق مع ابي عبيدة ثم تولى انطاكية ، وامره عمر بن الخطاب بدخول ارمينية عونا لسراقة بن عمرو ، وعاد الى الشام في ولاية معاوية فكان يغزيه الروم ثم تولى امارة الجزيرة وضمت اليه ارمينية واذربيجان ، وكان معـاوية يستشيره في كثير من شؤونه وكان يقال حبيب الروم لكثرة دخوله بلادهم ولما صفا الملك لمعاوية ولاه ارمينية فمات فيها ..

على أهلها من الاعاجم ، كما كلف الوليد بن عقبـة بالولاية على سكانها من القبائل العربية .

ولكن ، هل يكفي احتلال الجزيرة واستتباب الامور فيها ليـأمن العرب غارات الروم وغزواتهم المفاجئة ؟...

الجزيرة في الواقع منطقة استراتيجية هامة للخطوط الدفاعية القصوى بالنسبة للامبراطورية الرومية [1] ، والذي يمتلك الجزيرة يستطيع ان يهدد كبدوكيا وكيليكيا وغيرها من البلاد البيزنطية ، كما يستطيع ان يهـدد سورية والعراق وغيرها من البلاد العربية ، فهي عموماً تعتبر موقعاً هـاماً لا بد ان يدور حوله صراع مستمر بين الدولتين العظيمتين .

حتى يبعد الخليفة العادل شبح الخطر عن الارض العربية وجـد ضرورة انتهاج خطة ترغم الجيوش البيزنطية على البقاء داخـل حـدودها ، هذه الخطة هي اشعال النار بشكل دائم في هذه الحدود حتى يجعل عبورها مستحيلا على العدو ..

فلينهض الجيش العربي الفتى اذاً بهذه المهمة ، وليبدأ اولا بعملية استطلاع واسعة في المناطق الواقعة خلف تلك الحدود ..

● الحملة الاولى

تولى عياض بن غنم هذه المهمة ، ومشى على رأس جيش عربي من اهل الشام والجزيرة متوغـلا في ارض العــدو ، فجــاز الدرب [2]

---

١ ــ قادة فتح العراق والجزيرة ص ٤٤

٢ ــ المراد هنـا الطريق بين طرسوس وبلاد الروم لانه ضيق كالدرب ، واياه عنى امرؤ القيس حين قال :

بكى صاحبي لما الدرب دونه ... وايقن انا لاحقـان بقيصر
فقلت له ، لاتبك عينك ، انما ... نحاول ملكا او نموت فنعذر

وبلغ مدينة بدليس [١] ومنها انتقل الى خلاط [٢] وعند اسوار هـــذه المدينة الحصينة كتب عياض لبطريقها عهداً ، اشارت اليه المصـادر العربية في احداث السنين التالية دون ان تورد له نصاً ..

تم توغل في عمق البلاد حتى بلغ منطقة تسميها المصـادر العربيـة « العين الحامضة » وبعد ذلك عاد عياض الى الرقة ومنهـــا الى حمص .. وبذلك يكون ابن غنم اول قائد عربي دخل الدرب وعبر الجزيرة ووطـأ ارض الروم ومن ثم مهد الطريق امام الفتح العربي في ارمينية [٣] ...

● الحملة الثـانيـــة

بعد عامين لا اكثر ، اي في عام ٢١ هجرية (٦٤٢ م) وقعت الحملة الثانية فقـــد زحف الجيش العربي في اربع فرق قاصداً مدينـــة الدربند [٤] في الشمال – تسمها المصادر العربية البـاب وباب الابواب – وكان الهدف من هذه الحملة هو الوقوف في وجه الخطر الذي بات يتهـدد الناس في اذربيجان من شعوب الترك المنتشرة في تلك الاصقاع النائية ..

تمكن الجيش العربي الذي كان بقيادة سراقـــة بن عمرو [٥] من

١ – بدليس بلدة في نواحي ارمينية قرب خلاط ذات بساتين كثيرة ، وتفاحها يضرب به المثل في الجودة والكثرة وتقع عند ملتقى نهير بدليس بنهر دجلة .

٢ – قصبة ارمينية الوسطى بلدة عامرة مشهورة ذات خيرات واسعة وهي واقعة على بحيرة وان.

٣ – قادة فتح العراق والجزيرة ص ٤٣٠

٤ – الدربند لفظ فارسي معناه بالاصل سنبلة من حديد يقفل بهـا الدكان ويقال لها دربند ايضاً ، وقد استعملت هنا بمعنى المضايق والطرقات والمعابر الضيقة . كما اطلقت على مدينة الباب التي يقال لها ايضاً باب الابواب وهي ميناء كبير على بحر الخزر .

٥ – سراقة بن عمرو اقبه ذو النور وقد ذكره المؤرخون في الصحابة ولم ينسبوه ، كان احد الامراء بالفتوح وقد تولى القيادة اكثر من مرة وكانوا في زمن الفتوح الاولى لا يولون القيادة الا للصحابة .

بلوغ الدربنـد ومصالحة ملكها على جزية يؤديها ، إلا انه اخفق في تحقيق انتصارات اخرى في ارمينية فقد تراجعت الفرق التي وجهها الى الفتح امام مقاومة شديدة وباسلة بذلها الدافعون الارمن عن المناطق التي توجهت اليها ..

هذه هي الحملة الوحيدة التي تشير المصادر العربية الى اخفاقهـــا ، وتقول هذه المصادر ان الخليفة عمر بن الخطاب حين جاءه كتـاب سراقة الذي يعلمه فيه بندب عدد من القادة على رأس كتائب صغيرة من الجيش لغزو بعض المواقع ، استاء لذلك واعرب عن عدم اطمئنانه الى نتائج هذه المغامرة التي اقدم عليها سراقة نظراً لقلة عـدد القوات العربيـــة المنتـدبة للغزو وتعاظم القوات المحلية في كل المناطق التي وجهت اليها ..

لعل هذه هي الحملة التي يشير اليها المؤرخون الارمن ويؤكدون على ان هزيمة ساحقة نزلت بالعرب وانهم خسروا في غزوتهم هذه عدداً كبيراً من الرجال ، سقطوا على ارض المعركة صرعى بفعل سيوف رجال الامير تيودور رشدوني البواسل ..

هذا اذا نحينا جانبا الاختلاف الظاهر في تحديد تاريخ هذه الحمـلة بين كل من المصادر العربية والمصادر الارمنية ..

● الحملة الكبرى

بعد تسعة اعوام من تولي عثمان بن عفان الخلافة ، اي في العـام الثاني والثلاثين للهجرة (٦٥٢ م) كتب الخليفة الى معاوية بن ابي سفيـان عامله في دمشق ، يأمره بندب حبيب بن مسلمه لغزو ارمينية في جيش من اهل الشام ، وكان حبيب ما يزال واليا على الجزيرة .

سار حبيب الى مدينة قاليقلا (١) فحاصرها وضيق عليها ، وحين يئس اهلها من النجاة طلبوا الامان على الجلاء او الجزية ، فوافق حبيب ، فجلا الكثيرون من اهلها الى بلاد الروم ، اما الذين آثروا البقاء فقد اقروا على انفسهم الجزية .

اقام حبيب في المدينة عدة اشهر لاستكمال قوته ، واتخاذ الاهبة ، بعد ان بلغه تحرك جيش الروم لحربه ، كما بلغه ان العديد من امراء تلك المناطق قد انضموا مع قواتهم الى هذا الجيش حتى غدا قوة مرهوبة الجانب ...

خشي ابن مسلمة ان تعجز قواته عن دفع هـــذا الخطر الداهم ، فاسرع يبلغ معاوية هذا النبأ ، وكتب معاوية الى الخليفة بذلك فوجه الخليفة كتاباً الى امير الكوفة (٢) يطلب اليه نجدة حبيب بجيش من متطوعة اهل الكوفة ، وبعد ثلاثة ايام من وصول كتاب الخليفة كان قـــد تجمع من المتطوعة زهاء ثمانية آلاف ، فساروا بقيادة سلمان بن ربيعـــة الباهلي قاصدين ارمينية على طريق الموصل ..

اما حبيب فقد وافاه جيش الروم قبـل ان يصـل اليه المدد ، واقام العدو في مكان فسيح على ضفاف نهر الفرات ليقطع على حبيب طريق التراجع او العبور ، ورأى حبيب ان لا قدرة لجيشه الصغير على مجابهة هذه الجحافل من القوات ، وكان المعروف عن هذا القائد العربي سعة الحيـــلة وشدة المكر في القتال ، فعمد الى وضع خطة تهدف الى ما يشبه حرب الصاعقة ،

---

١ — قاليقلا بلد بارمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازكرد ، ويقال لها ارزن الروم ، ثم اطلق عليها اسم ارضروم وكان الارمن يطلقون عليها اسم « كرين » وهي عاصمة ارمينية الصغرى التي كانت خاضعة للحكم البيزنطي .

٢ — يقول ابن الاثير والطبري ان الوليد بن عقبة كان أميراً على الكوفة ، اما الواقدي (وعنه اخذ ابن كثير) فيقول ان سعيدا بن العاصي هو الذي كان على الكوفة وهو الذي تسلم كتاب عثمان بن عفان وقام بندب سلمان بن ربيعة وجند المتطوعة من أهل الكوفة .

بوساطة كتائب متفرقة تعتمد على الضربة المفاجئة ثم الانسحاب متجنبة في ذلك المواجهة الفعلية مع العدو ..

ولكي يضمن نجاح هذه الخطة ، حدد ساعـة التنفيـذ في النصف الثاني من الليل ، حين يخلد المعسكر الى النـوم ، ولا يبقى الا الحراس والعسس والدبادب . وفي الاجتماع الذى عقده حبيب مع قادة جيشه شرح لهم الخطة بالتفصيل وتم الاتفاق على تحديد نقـاط الهجوم وتعيين كتـائب الجند التي ستعمل في كل من اطراف المعسكر حين ترسل الصيحة فيهم..

عاد حبيب بعد انتهاء هذا الاجتماع الى خبائه ، واقبلت عليه زوجه ام عبد الله بنت يزيد الكلبية تسأله عما تم عليه الاتفاق ، فاخبرها بالامر، وسألت :

ـ اذا كانت الصيحة فاين سيكون موعدك انت ؟ ..

قال :

ـ سيكون سرادق الطاغية الموريان (١) او الجنة ..

في ساعة الصفر داهم العرب معسكر الروم وارسلوا فيهم الصيحة ، وما هي الا ساعات حتى تحولت ارض المعركة الى دمار وحلت الهزيمة بالروم وفر من سلم من رجالهم لا يلوون على شيء ...

تقول المصادر العربية ان حبيباً حين بلغ سرادق الموريان ، واقتحمه شاهراً سيفه ، اذا به امام زوجته ام عبد الله التي كانت قـد سبقته الى السرادق واجلت اصحابه عنه بعد ان خاضت المعركـــة كأي واحد من ابطالها (٢) فكانت أم عبـد الله بنت يزيد الكلبيـة اول امرأة من العرب ضرب عليها حجاب السرادق (٣) ..

---

١ — اسم قائد جيش الروم كما تسميه المصادر العربية .

٢ — فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٧٨

٣ — تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٤٨

بعد ان انجلت المعركة ، وحين كان رجال حبيب منهمكين في جمع الاسلاب والغنائم وصل سلمان مع متطوعة الكوفة ، وسارع هؤلاء ينازعون اهل الشام على الغنيمة ولكن اصحاب حبيب رفضوا ذلك ، حتى تغالظ حبيب وسلمان في القول وتوعد بعض رجال حبيب سلمانا بالقتل وقال في ذلك اليوم موسى بن مغرا هذه الابيات من الشعر التي اصبحت فيما بعد بمثابة وثيقة تاريخية لها اهميتها :

ان تضربوا سلمان نضرب حبيبكم — وان ترحلوا نحوابن عفان نرحل
وان تقسطوا فالثغر ثغر اميرنا — وهذا امير في الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنا حماته — ليالي نرمي كل ثغر وننكل [1]

رأى القادة في الجيشين ان الحل السلمي هو الافضل والاصلح فكتبوا الى عثمان بن عفان بما حدث ، وجاءهم الجواب بأن الغنيمة هي من حق اهل الشام الذين خاضوا المعركة مع قائدهم حبيب ، وطلب الخليفة من سلمان ان يغزو بلاد اران ، اما حبيب فليتابع طريقه في ارمينية الوسطى..

تمضي الرواية العربية بعد ذلك فتقول ان حبيبا بعد ان اوقع الهزيمة بجيش الروم غادر قاليقلا متجها الى خلاط وارجيش [2] على الساحل الشمالي من بحيرة وان [3] فخرج اليه بطريق خلاط حاملاً اليه كتاب عياض بن غنم الذي سبق ان كتبه لاهل المدينة واعطاهم فيه الامان على انفسهم ومعابدهم وحيطان بيوتهم واموالهم لقاء جزية يسيرة يؤدونها

١ — تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٧

٢ — ارجش مدينة قديمة من نواحي ارمينية الكبرى قرب خلاط .

٣ — بحيرة وان هي البحيرة الواقعه بين مدن وان وخلاط وارجيش وقد نسبت اليها في احدى فترات التاريخ الولايات الواقعه على ضفافها .

مرة كل عام ، فوافق حبيب على ماجاء في كتاب عياض ، وتعهد بتنفيذه وقدم له البطريق ماكان على المدينة من مال كما قدم له هدية نفيسة ، فاخذ حبيب المال واعاد للبطريق الهدية ...

ثم استأنف طريقه متوغلاً في البلاد ، متجهاً نحو عاصمة ارمينية الفارسية (الكبرى) دبيل [1] وفي الطريق خرج بطارقة البلاد ، يطلبون الصلح والامان ودفع الجزية فكان حبيب يعطيهم العهد على ذلك حتى بلغ المرج القريب من العاصمة ...

كانت دبيل تقع في منطقة وعرة المسالك تحيط بها الاودية السحيقة والجبال الشاهقة ، وكانت اسوارها قوية وعالية بحيث يستعصي على أي جيش غاز الوصول الى اعلاها ...

ولكن حبيباً ليس بالرجل الذي تهزمه المصاعب فأمر الفرسان ان يتقدموا اسرابا وسرايا ، متخليا بذلك عن خطة الحشد والتنظيم في المسير ، لضيق المسالك ووعورتها ، وكانت المدينة ، قد اغلقت على نفسها ابوابها ووقفت حامياتها في اعلى الاسوار استعداداً للفتك بالمهاجمين اذا ما سولت لهم نفوسهم ارتقاءها ..

وبدأ القتال متخذاً اسلوب المناوشات والكر والفر ، فاحاط الفرسان بالمدينة ، واخذوا يتقدمون ويتراجعون وبعد عدة جولات ، تبين لحبيب ان هذا الاسلوب لن يعطيه نتائج مثمرة ، فأمر بالاستعانة بالمنجنيقات واخذ يقذف بها كرات النفط المشتعل مما احدث الحرائق في المدينة وخلف الاسوار ، فدبت الفوضى في صفوف المدافعين وانشغلوا في اخماد النيران

١ — دبيل او دوفين (كما تسميها المصادر الارمنيه) مدينة بارمينية تتاخم اران وكانت ثغرا للاقليم .

التي أزداد اندلاعها شدة وتفاقماً ، واضطرت المدينـــة الى طلب الامان والصلح ، فاعطاهم حبيب اياه ، وهذا هو نص كتاب الامان :

باسم الله الرحمن الرحيم

من حبيب بن مسلمة الانصارى الى اهل دبيل ومجوسها ويهودها وشاهدهم وغائبهم .

اني امنتكم على انفسكم واموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم فانتم آمنون ، وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وادبتم الجزية والخراج..[1]

وتشير المصادر الارمنية الى الحملة العربية الــــتي انتهت بفتح دبيل فتقول انها حدثت في عام ٦٤٢ م . وان اهـــل (دبيل) حين علموا بقدوم الجيش العربي دمروا الجسر القريب منها لكي يوقفـوا زحفهم ، الا ان احد امراء الارمن وكان اميرا على « موكس » قد خان وطنه ودل العرب على طريق آخر يفضي الى المدينة الحصينة .

وتمضي المصادر الارمنية فتقول ان دبيل قاومت الغزاة مقاومة عنيفة لمناعتها الطبيعية وتحصيناتها ولكنها كانت مقـاومـة يائسة لأن الهجوم كان شديداً ومركزاً ، وان العرب لما رأوا مناوأة السكان اضرموا النيران في جميع اطراف الاسوار فاختنق حماتها بالدخان ، وحين قضى العرب على الحاميات بهجماتهم المتلاحقة صعدوا الاسوار بسلالم من الحبال ، وانهم حين فتحوا المدينة اسروا ٣٥ الفاً من سكانها وساقوهم الي بلاد العرب [2].

ونقرأ لأحد المؤرخين الارمن الذين عاصروا تلك الاحداث وصفاً حياً للواقعة فيقول انه بتاريخ ٦ كانون الثاني عام ٦٤٢ استولى العرب على

---

١ — مجموعه الوثائق السياسيه رقم الوثيقه ٣٤٦ ص ٣٣٤

٢ — تاريخ الامه الارمنيه ص ١٦٣ وصفحات من تاريخ الامه الارمنيه ص ١٠٢

العاصمة دوفين فذبحوا الكثير من سكانها واقتادوا عدداً كبيراً من الأسرى ، ثم يصف المقاتلين العرب فيقول انهم فـوق مستوى البشر ، رجال اشداء لم يعرف التاريخ لهم مثيلا [1] ..

بعد ان تم لحبيب فتح دبيل واعطى اهلها وبطريقها الامان ، تابع سيره ففتح النشوى (نخجوان) [2] وصالح اهلها على مثل صلح دبيل ، وقدم عليـــه بطريق اقليم البسفرجان [3] (واسبوركان) فصـــالحه على جميع بلاده .

وفي الطريق الى تفليس [4] قصبــــة اقليم جرزان (جورجيــا) وقع حادث « ذات اللجم » ..

يقول البلاذري في فتوح البلدان ان فريقاً من الجيش العربي بلغ في طريقه الى تفليس مرجاً على نهر ، فحط رحاله فيـــه ، ثم سرح رجاله خيولهم ودوابهم بعد ان ازلوا احمالها على الارض ، وبينما هم في راحة اذ هجم عليهم قوم من اهل المنطقة واعملوا فيهم سيوفهم ، وبوغت الرجال ، ولم يجدوا مفرا من الهرب ، والاحتماء في بعض شعب الجبال المجـاورة ، وقد عجزوا عن لجم خيولهم النافرة فتركوها .

---

١ — صفحات من تاريخ الامة الارمنية ص ١٠٢

٢ — نشوى معروفة بين العامة باسم نخجوان ويقـال لها ايضاً نقجوان ، وهي قصبة كورة بسفرجان في ارمينية .

٣ — البسفرجان كورة بأرض اران ومدينتها النشوى ، وهي نقجوان ، يقول ياقوت الحموي ان هذه المدن اشادها الملك انو شروان حيث بنى باب الابواب ، وتعتبر هذه المنطقـــة كلها في ارمينية الثالثة .

٤ — تفليس مدينه تقع في ارمينية الاولى وهي قصبة ناحية جرزان (جورجيا) وتقع قريبا من باب الابواب .

ثم عادوا بعد انسحاب القوم فجمعوا ما قدروا عليه من خيولهم ولحقوا بالمغيرين ففتكوا بهم واسترجعوا ما كانوا قد اخذوه منهم ، ومنذ ذلك اليوم اطلق العرب على ذلك الموضع اسم « ذات اللجم » .

وصل حبيب بن مسلمة الى جرزان فخرج اليه رسول البطريق وقدم اليه رسالة من اهل الاقليم يطلبون فيها الامان ، كما قدم اليه هدية نفيسة فكتب اليهم حبيب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من حبيب بن مسلمة الى اهل تفليس .

سلم انتم ، فاني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، اما بعد :

فان رسولكم « تفلي » قدم علي وعلى الذين آمنوا معي ، فذكر عنكم انا كنا امة ابتعثنا الله وكرمنا ، وكذلك فعل الله بنا بعد ذلة وقلة وجاهلية جهلاء ، فالحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم والسلام على رسوله وصلواته كما به هدينا ..

وذكر عنكم « تفلي » ان قذف في قلوب عدونا منا الرعب ، فلاحول بنا ولا قوة الا بالله ، وذكر انكم احببتم سلمنا فما كرهت ولا الذين آمنوا معي ذلك من أمركم .

وقدم علي « تفلي » بهديتكم فقومتها والذين آمنوا معي ، عرضها ونقدها مئة دينار غير راتبة عليكم ، ولكن على أهل كل بيت دينار واف جزية ولا فدية ، وكتب لكم عند ملأ من المؤمنين كتاب شرطكم وامانكم، وبعثت به اليكم مع عبد الرحمن بن جزء السلمي ، وهو عالمنا من أهل الرأي والعلم بأمر الله وكتابه ، فان اقررتم بما فيه ، دفعه اليكم ، وان

توليتم آذنكم بحرب من الله ورسوله والذين آمنوا على السواء ، وان الله لا يحب الخائنين .

والسلام على من اتبع الهدى (١) .

وافقت جرزان على ذلك ، واقرت ماجاء في كتاب حبيب ، فاستأنف طريقه الى تفليس قصبة الاقليم وخرج اهلها للصلح فكتب اليهم الامان التالي :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل طفليس ـ من ارض الهرمز ـ بالامان لكم ولأولادكم ولأهاليكم وصوامعكم وبيعكم ودينكم وصلواتكم على اقرار بصغار بالجزية على أهل كل بيت دينار واف ليس عليكم ان تجمعوا بين متفرق من الاهلات استصغاراً منكم للجزية ولا لنا ان نفرق بين مجتمع استكثاراً منا للجزية ..

ولنا نصيحتكم وضلعكم على عدو الله ورسوله ، والذين آمنوا فيما استطعتم ، واقراء المسلم المجتاز ليلا بالمعروف من حلال طعام اهل الكتاب وحلال شرابهم ، وارشاد الطريق على غير ما يضر بكم فيه ، وان قطع بأحد من المؤمنين عندكم ، فعليكم اداؤه الى ادنى فئة من المؤمنين والمسلمين الا ان يحال دونهم ، فان ثبتم واقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة فاخواننا في الدين ، ومن تولى عن الايمان والاسلام والجزية ، فعدو الله ورسوله والذين آمنوا ، والله المستعان عليه .

فان عرض للمؤمنين شغل وقهركم عدوكم ، فغير مأخوذين بذلك

١ ـــ مجموعة الوثائق السياسية رقم الوثيقة ٣٤٧ ص ٣٣٦

ولا ناقض ذلك عهدكم بعد ان تفيئوا الى المؤمنين والمسلمين ..

هذا عليكم وهذا لكم ..

شهد الله وملائكته والذين آمنوا وكفى بالله شهيدا [1] .

يقول البلاذري :

« وفتح حبيب ـ بعد تفليس ـ جوارح وكسفربيس وكسال وخناق وسمسخي والجردمان وكستسجي وشرشت وبارليت صلحاً على حقن دماء اهلها واقرار مصلياتهم وحيطانهم وعلى ان يؤدوا اتاوة عن ارضهم ورؤوسهم، وصالح اهل قلرجيت واهل ثرياليت وخاطيط وخوبخيط وارطهـــال وباب اللال وصالح الصنارية والدودانية على اتاوة [2] .

اما سلمان بن ربيعة فقد مضى الى اقليم اران [3] وفتح مدينـــة البيلقان [4] صلحاً وانتقل الى برذعة قصبة الولاية فعسكر على نهر تسميه الرواية العربية « الثرثور » وبعد حصار قصير فتحها على الصلح والامان ، ثم فتح البلدان والقرى المحيطة بها وبلغ في سيره مدينة الباب .

وكان اخوه عبد الرحمن بن ربيعه اميراً على هذه المدينة ، فلمـا بلغه قدوم سلمان اجتاز الباب وتوغل شمالا الى ما وراء جبال القفقاس ، وعلى ضفاف نهر بلنجر دارت معركة انتهت باستشهاد عبد الرحمن وصحبه ، ولم يسلم من الجيش الذي كان يرافقه وعدده اربعة آلاف مقـاتل الا قلة

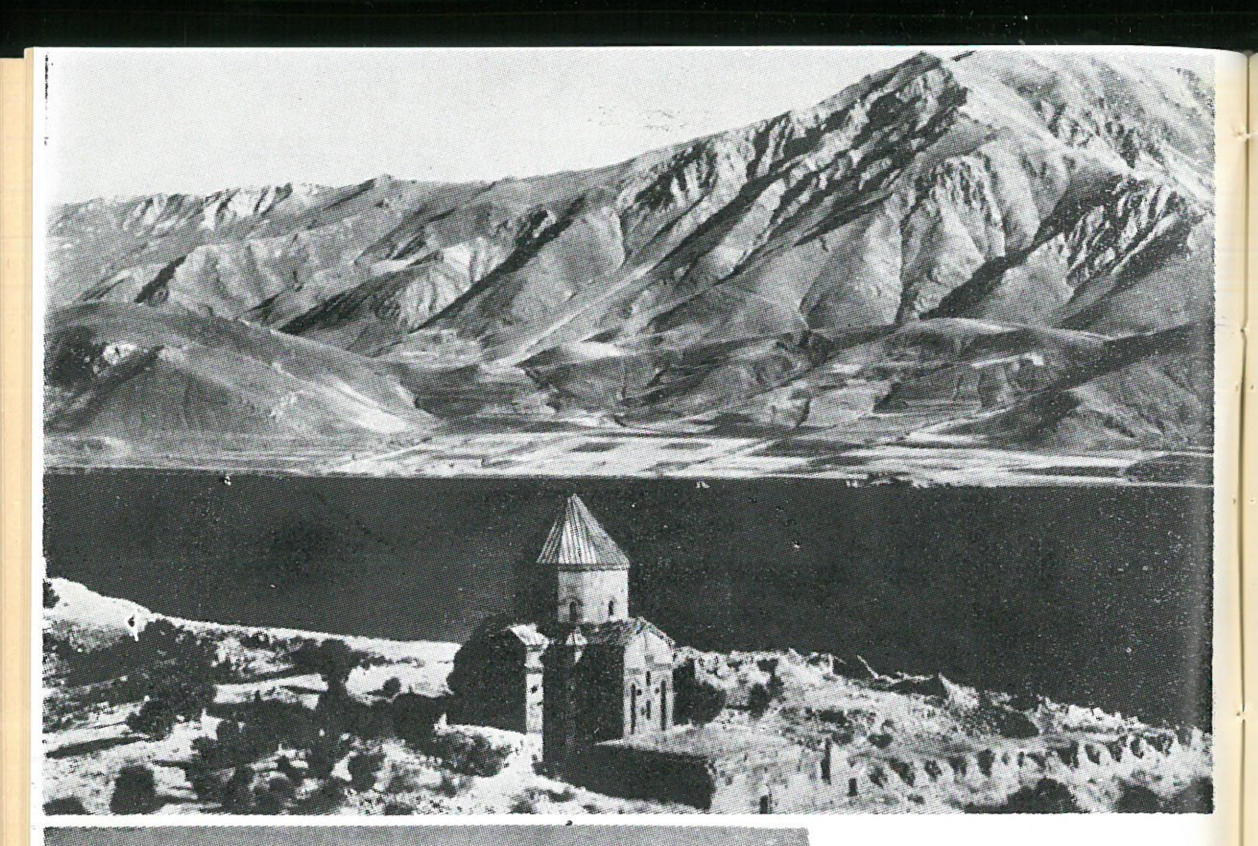
---

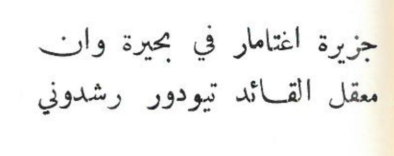
١ ـــ مجموعة الوثائق السياسية رقم الوثيقة ٣٤٨ ص ٣٣٦

٢ ـــ فتوح البلدان ص ٢٨٥

٣ ـــ اران اسم اعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزة وبرذعة وشيكور وبيلقــان وبين اذربيجان واران نهر الرس ، وهي من اصقاع ارمينية .

٤ ـــ البيلقان مدينة قرب الدربند الذي يقال له باب الابواب ، وتعد في ارمينية الكبرى قريبة من شروان .





جزيرة اغتامار في بحيرة وان
معقل القـائد تيودور رشدوني



الواجهـة الشرقيـة لكاتدرائية اغتامار المشيدة في عهـد الملك كاكيك الاول (٩٠٤ـ ٩٣٨ م .)

من الرجال .

يقول الشاعر ابن جمانه الباهلي مشيراً الى عبد الرحمن بن ربيعة شهيد بلنجر وقتيبة بن مسلم شهيد الصين :

وان لنـا قبرين ، قبر بلنجر وقبر بصين استان يا لك من قبر
فذاك الذي في الصين عمت فتوحه وهذا الذي يسقى به سيل القطر[1]

والشطرة الاخيرة من البيت الثاني تشير الى ما كان يقال من ان عظام عبد الرحمن كانت مودعة عند اهـل بلنجر في تابوت فاذا احتبس عليهم المطر اخرجوا التابوت واستسقوا به فيسقون .

نعود الآن الى حبيب بن مسلمة ، فانه بعد ان انتهى من هذا الفتح العظيم الذي حققه في ارمينية ، ولى ثغرها حذيفة بن اليمان العبسي الذي اتخذ مدينة برذعة مقراً له ، ووجه عماله الى ما بينها وبين قاليقلا ... وقد جاء هذا التعيين تنفيذاً لأمر الخليفة عثمان بن عفان الذي كان قد قرر في البدء ان يولي حبيبا ارمينية ، إلا انه نزل عند نصيحة الصلحاء من الرجال فجعله غازياً لثغور الشام والجزيرة لقوة شكيمته ومضاء عزيمته وبراعته في ادارة العمليات الحربية وتحقيق النصر ...

العـدو الصديق

في عام ٣٢ هجرية (٦٥٢ م .) تم الصلح بـين الامير تيودور رشدوني قائد الجيش الارمني في ارمينية الشرقية (الكبرى) وبين حبيب ابن مسلمة قائد الجيش العربي والمندب للفتح من قبل معاوية بن ابي سفيان امير دمشق ...

كان تيودور الذي اتخذ من جزيرة اغتامار الواقعة وسط بحيرة وان

---

١ — فتوح البلدان ص ٢٨٧

قاعدة لقيادته وقد وجد بعد اثنتي عشرة سنة من القتال انه لم تعد ثمة جدوي من المقاومة ..

ففارس التي كانت تمده بالمساعدات قد سقطت امام الفاتح وغدت بدورها ولاية عربية .

وزميله الامير هامازاسب ماميكونيان حاكم ارمينية الغربية (الصغرى) الخاضعة لسلطة بيزنطة ما يزال يعيش تحت تأثير اطماعه الشخصية في ضم ارمينية الكبرى الى امارته وجعل الاقليمين اقليماً واحداً يدين بالطاعة لامبراطور الروم كونستانس الثاني .

وفي الشمال حيث شعوب الترك منتشرة بكثافة عجيبة خلف الجبال ما فتئوا يشكلون خطراً داهماً على سلامة ارمينية وامنها واستقرارها ..

وهاهم العرب ، قد جاءوا بدورهم من الجنوب في موجات متلاحقة ما تنفك تزداد شدة وضراوة ..

والروم انفسهم ، قد ولوا الادبار امام الجيوش العربية الزاحفة ، فخرجوا نهائياً من شرقي البحر الابيض المتوسط ، وخسروا سورية وفلسطين ومصر وبلاد مابين النهرين ، وهاهي قواتهم الضاربة تتمركز الآن في كبادوكية لا لشيء الا لصد غزوات العرب الموسمية سواء في البر او في البحر ..

وهكذا خلع بحر « الروم » عن نفسه هذا الاسم بعد ان انحسر ظل الامبراطورية البيزنطية عن معظم شواطئه الشرقية والجنوبية .

لقد ادرك تيودور ان الوصول الى صلح دائم مع العرب هو من اولى واجبات القائد الفطن المحنك ، مادام هؤلاء لا ينشدون من الفتح إلا دفع الخطر الى بعيد وتأمين سلامة الاطراف والحدود ومن ثم الحصول على قدر من المال ، باسم الجزية ينفق منه على اصلاح البلاد ، وعلى

تأمين نفقات الجيش المرابط في تلك المناطق وما زاد منه وهو قليل فيحمل الى حاضرة المملكة العربية لانفاقه في وجوه الخدمات العامة ...

وهكذا تم الصلح بين القائد الارمني والقائد العربي ، وعادت السيوف الى اغمادها ، وساد السلام ارجاء البلاد ..

يقول المؤرخ الارمني سيبيوس في تاريخه المصنف في اواخر القرن السابع ان الامير تيودور رشدوني قد وقع معاهدة الصلح مع معاوية وانها كانت تنص على ما يلي :

اولاً ـ تعفي الدولة العربية ارمينية من الجزية خلال ثلاث سنوات .

ثانياً ـ على الأرمن بعد مرور ثلاث سنوات ان يدفعوا الجزية للدولة العربية بدمشق قدر ما يريدون .

ثالثاً ـ يحق لأرمينية ان يكون لها جيش مؤلف من خمسة عشر الف فارس ينفق عليه الارمن من حساب الجزية .

رابعاً ـ لا يدعى هذا الجيش للعمل في بلاد الشام .

خامساً ـ على الجيش الارمني كحليف للدولة العربية ان يحارب الى جانبها ضد الاعتداء عليها من الخارج .

سادساً ـ ان الجيش الارمني يكون صاحباً لقلاعه دون أي تدخل اجنبي .

سابعاً ـ ان الدولة العربية تتعهد حماية ارمينية وحدودها ضد هجمات العدو وبنوع خاص ضد هجمات الروم (١) .

---

١ ـ من مقال « معاويه والارمن » للاب اوهانيس ابراهيم آداميان نشر في مجلة الحديث الحلبيه مجلد ٢٦ ص ١١٧

تقول المصادر الارمنية ان الامبراطور كونستانس الثاني (١) حين بلغه نبأ الصلح الذي تم بين تيودور وحبيب والذي اصبحت ارمينية الكبرى بموجبه تحت الحكم العربي ، اصابته نوبة من الغضب الشديد فثار وهدد وتوعد واقسم ليبطشن بهذا الشعب الذي خرج عن طاعته ...

ولكنه عاد الى نفسه ، واراد ان يسلك سبيل اللين والوداعة قبل ان يلجأ الي العنف فبعث برسول خاص الى الامير تيودور يعرض عليه حمايته (٢) إلا ان هذا رفض العرض بلباقة وادب ، وقال انه لم يتعود في حياته ان ينكث عهداً قطعه على نفسه ، فقد اعطى عهده للعرب ، وسيظل يحترم هذا العهد ما بقي على قيد الحياة ...

وعاد الرسول الى الامبراطور حاملا اليه الجواب ...

صدرت الاوامر فوراً بتحرك الجيش نحو ارمينية لهدم مدنها وتدمير حصونها وقتل سكانها ، وجعلها أثراً بعد عين .. وسار مئة الف جندي رومي بكامل عدتهم واسلحتهم خلف الامبراطور لهذه الغاية ..

حين بلغ نبأ مسيرة الجيش الرومي اسماع الامير تيودور بادر الى التحصن داخل جزيرة اغتامار في بحيرة وان وارسل الى حليفه الامير معاوية في دمشق يطلب اليه موافاته بالنجدات السريعة تنفيذاً لمضمون المعاهدة الموقعة بينهما ..

---

١ ـ (قسطنطينيوس) حفيد هرقل اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية من عام ٦٤١ حتى عام ٦٦٨ ميلادية عرف بنشاطه وقدرته الفائقة التي بذلها لوقف تقدم العرب،ولتحقيق هذا الهدف اعاد تنظيم ادارة الاقاليم بانشاء نظام الالوية أو البنود أو الثغور وجعلها خاضعة لولاة عسكريين ، وافاد هذا النظام في ازدياد قوة السيطرة الادارية واصبح اساساً للنظام الامبراطوري عدة قرون .

٢ ــ تاريخ الامة الارمنية ص ١٦٤ .

اما الامبراطور فقد وصل مع جيشه الى مقاطعة ارزن الروم واقام معسكره في ترجان بعد ان اجلى عن المنطقة بوسائل العنف ثمانية آلاف عائلة ارمنية وبعث بافرادها كأسرى الى احدى مستعمراته في افريقيا الشمالية (١) .

وهنا ظهر عدد من زعماء الأرمن الذين وجدوا ان اللجوء الى الوسائل السلمية مع هذا الجيش الكبير اجدى من الحرب ، فتقدم البطريرك نرسيس الثالث مع عدد من الامراء المعروفين بولائهم للروم يطلبون مقابلة الامبراطور ، وحين مثلوا بين يديه ، ابلغوه بأن تيودور رشدوني لا يمثل سوى قلة من الشعب الارمني ، وانه مجرد قائد من قواد الجيش في مقاطعة من مقاطعات الاقليم الواسع الكبير .

واستطاع البطريرك بلباقته الشخصية وحديثه الطلي ان يقنع الامبراطور وان يدخل الطمأنينة الى نفسه ، فتلاشى غضبه ، وامر باعادة السيف الى غمده (٢) .

يقول الاب اوهانيس آداميان نقلاً عن مصادر التاريخ الارمني ان الامبراطور البيزنطي عقد مؤتمراً في ارزن الروم حضره زعماء الارمن الموالين له ، وتم الاتفاق على عزل تيودور رشدوني من منصبه واعتقاله ثم اعدامه ، وان الامبراطور ارسل بعثة عسكرية لتنفيذ هذا القرار فلما وصلت البعثة الى مقاطعة وان امر تيودور باعتقال افرادها ، وسجن بعضهم في قلعة بدليس والقسم الآخر اودعه معتقل اغتامار المنيع في بحيرة وان ، ثم ان تيودور بعث الى حليفه معاوية في دمشق يستعجله في ارسال النجدات

---

١ ــ من دراسة للاب اوهانيس آدميان في مجلة الحديث مجلد ٢٦ ص ١٢٠ .

٢ ــ تاريخ الامه الارمنيه ص ١٦٥ .

وفي الوقت نفســـه اقام خطاً دفاعياً حصيناً حول مواقعه العسكرية .

حين بلغ نبأ اعتقال افراد البعثة الرومية مسامع الامبراطور اراد ان يبادر ويحسم الامر ، ولكن فصل الشتاء كان قد اقبل وغطت طبقات من الثلوج وجه الارض ، وحال الصقيع دون عبور الطرق الجبلية المؤدية الى معاقل تيودور ، وهنا قرر الامبراطور ان يقضي الشتاء في مدينة دبيل ، على ان يصفي حسابه مع الثائر المتمرد في الربيع .

خـلال هذه الفترة كان معاوية بن ابي سفيان والي دمشق قد بادر الى نجدة صديقه وحليفه الارمني فوجه الى ارمينية جيشاً من سبعة آلاف فارس ، وجاء الكرجيون حلفاء رشدوني لتقديم المســاعدات اللازمـة ، وكذلك فعل ابناء اران والسيسجان .

وضعت هذه القوات جميعها تحت قيـادة تيودور رشدوني الذي امر برابطتها في بعض المناطق الستراتيجية ، وتنفيذاً لهـذه الخطة كلف الجيش العربي بالتمركز في مقاطعتي آغيوفيد وبزنوني (بجوار مراد جاى) .

هنا يلاحظ ثمة ثغرة في سير الاحداث . . . فان الامبراطور الذي رضي ان يقضي الشتاء بعيداً عن عاصمة ملكه لتأديب القائد الارمني الثائر ، رأيناه عند بداية موسم الربيع يعود مع قواته الرئيسية مسرعاً الى العاصمة مكتفياً باقامة بعض الحاميات العسكرية في عدد من المواقع الهامة ، فلما بلــغ جيش الامبراطور القسطنطينيــة تحرك البطريق تيودور واخــذ يهاجم تلك الحاميات مع حلفائه حتى تمكن اخيراً من اجلائها عن البلاد .

الا ان تعليل هذا الامر يدفعنا الى الظن بأن الامبراطور لم يتخل

عن مهمته الاساسية هذه الا لحدوث تطورات طـارئة في عاصمته الكبرى جعلته يؤثر العودة سريعاً لمعالجتها .

استقبل الارمن انباء انتصارات البطريق تيودور بالغبطة والابتهاج ، وقد زاد فرحهم حين شاهدوا ، المقاتل العربي ، والمقاتل الارمني يحاربان في جبهة واحدة ، ويدافعان عن قضية واحدة ، ويهاجمان عدواً واحداً . .

اما في دمشق فقد انعكست هذه الاحداث في نفوس القادة العرب الى اعجاب وتقدير ببطولة القائد الارمني الذي قاد جيشه الى النصر ، فوجه معـاوية الدعوة الى تيودور لزيارة دمشق لـكي يتسنى للرجلين التعرف على بعضهما عن قرب .

استجاب تيودور رشـدوني لدعوة صديقه وسافر الى دمشق فدخلها في موكب رسمـــي حافل واستقبل من اميرها وقادة الجيش العربي بمظاهر الحفاوة والمودة والاحترام ، وكانت هذه الزيارة بمثابة تمكين للحلف العربي الارمني وتأكيد على صداقة الشعبين البطلين .

اراد معاوية ان لا تمر هذه الزيارة دون نتائج عملية مثمرة فتوسط لدى الخليفة عثمان بن عفان الذي وافق على اقتراح اميره في دمشق ، وعهد الى البطريق تيودور رشدوني بادارة جميع المناطق التي بين يديه ، بدأ من شمال اران وبلاد الكرج والسيسجان حتى حدود اللان .

تقول المصادر الارمنية ان معاوية بن ابي سفيان كان يعتقد بأنه من الصعب وضع البلاد الجبلية الوعرة تحت سيطرة الجيوش العربيه الدائمة فاراد ان يسلمهـا الى الجيوش الارمنية تحت قيادة حليفه المخلص تيودور رشدوني ، وهكذا كان (١) .

---

١ — من مقال « معاويه والارمن » للاب اوهانيس آ دميان نشر مجة في الحديث مجلد ٢٦ ص ١٢٣ .

• اصلاح البيت اولاً . .

هنا تتوقف المصادر العربية عن تتبع الاحداث في ارمينية ، وفي مناطق الشمال ، لأن حدثاً رهيباً وقع في حاضرة البلاد شغل الناس عن كل شيء عداه ، حتى عن الجهاد المقدس الذي نذر الجيل الاول انفسهم وحياتهم ووجودهم له .

فقد تكاثر خصوم عثمان بن عفان ، واشاعوا حوله الاراجيف ، وطعنوا بنزاهة عماله وامرائه ، وانتقدوا اسلوبه في تولية أهله واقربائه المناصب العالية في البلاد ، وان هؤلاء قد استطاعوا الحصول على اموال كثيرة ومغانم كبيرة من وراء هذه المناصب التي ارتقوا اليها . . . .
وانتهى الامر بمقتل الخليفة (٣٥ هـ . ٦٥٣ م .) .

ولأسباب سياسية بحتة هب معاوية بن ابي سفيان يطالب بالثأر لدم عثمان الشهيد ، ووقف علي بن ابي طالب الذي ولي الخلافة من بعده موقفه التاريخي المعروف .

واسرع معاوية الى سحب جيش حبيب بن مسلمه من ارمينية وبقية الجيوش الموجودة على الثغور لكي يستعين بها في مواجهة الاحداث الداخلية الداهمة ، وحتى يأمن غائلة هذا العمل فقد عقد مع امبراطور الروم هدنة تنص على ان يدفع له قدراً من المال كل عام شريطة ان يوقف الامبراطور غزو البلاد التي يحتلها العرب .

وامام الفراغ الكبير الذي ظهر في ارمينية بعد انسحاب الجيش العربي منها رأت بيزنطة ان الوقت قد اصبح ملائماً لاعادة سيطرتها عليها ..
واضطر الامير تيودور رشدوني الى مواجهة سلسلة من المتاعب التي اثارها في وجهه خصومه السياسيين والعسكريين من امراء المقاطعات

الارمنية ، مستغلين بذلك فرصة غياب القوة العربية وعجزها عن دعم موقف حليفها الصديق ، فأوقعته هذه صريع المرض ، وفي عام ٦٥٨ اضطر الى اعتزال منصبه والاعتكاف في جزيرة اغتامار التي اتخذها منذ زمن طويل مركزاً لقيادته وقاعدة لحكمه . . .

في العصر الاموي

في عـام ٤١ هجرية (٦٦١ م .) انتهت الاحـداث الدموية التي شملت البلاد العربية بتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان الذي نقل عاصمة الدولة من مدينة يثرب الى دمشق .

كان اول ما فعله معاوية حين تولى الخلافة ان اعاد حبيب بن مسلمة الفهري الى ارمينية على رأس جيش من اهل الشـام ، فأقام حبيب هناك يسوس الامور بالتعاون مع الامراء والقادة من اهل البلاد (١) .

وفي العام التالي اي في سنة ٤٢ هـ . (٦٦٢ م .) مات حبيب ، فاسـند معاوية امارة الجيش في تلك المنـاطق الى عبد الله بن النعمان بن عمرو الباهلي .

مات عبد الله بعد حين في ارمينية فولى معاوية خلفاً له عبد العزيز بن حاتم (اخو عبد الله) وبادر عبد العزيز فاعاد انشـاء وتخطيط عاصمة ارمينية الكبرى دوفين بعد ان دمرتها الاحداث والزلازل ، واطلق عليهـا

---

١ ـ كان الخلفاء الامويون يعينون بطريقاً ارمنياً يشرف على امور ارمينية الداخلية وعاملاً عربياً يشـرف على تحصيل الضرائب ، وعلى صد هجمات الاعداء من الخارج . وفي مقدمتهم الروم والخزر ، وكان العامل العربي يقدم للخليفة كل سنة او سنتين بياناً مفصلاً عن اعماله في الاقليم (من دراسة تاريخية للاب آدميان نشرت في مجلة الحديث المجلد ٢٦ ص ٣٧٥) .

اسم دبيل وجعلها حاضرة الولاية ومركز الادارة والمال كما بنى مدينة النشوى (نخجوان) ورمم مدينة برذعة واحكم حفر الفارقين حولها وجدد بناء مدينة البيلقان ، وكانت هذه المدن متشعثة مهدمة (١) .

بعد ان عادت الجيوش العربية الى قواعدها في الاطراف والثغور ، ابلغ معاوية بن ابي سفيان القسطنطينية الغاء الهدنة القائمة معها ، كما دعا صديقه تيودور رشدوني لزيارته ، فلبى هذا دعوته وتوجه الى دمشق ، الا ان جسمه العليل لم يقو على احتمال مشاق السفر فداهمه المرض في دمشق ومات فيها (٢) .

حزن معاوية على وفاة صديقه تيودور ، ورغبة منه في ان تظل علاقات الصداقة بين العرب والارمن قائمة تحقيقاً لأمنية البطريق الراحل ، وجه الخليفة معاوية رسالة الى البطريك نرسيس العامر وقادة المقاطعات الارمنية يؤكد فيها احترامه لبنود المعاهدة التي سبق ان وقعها مع تيودور ويدعوهم الى تجديد المواثيق والعهود بين الشعبين الصديقين .

عقد اجتماع كبير برئاسة البطريك وحضور زعماء الارمن وبعد ان تدارس المجتمعون الموضوع ، تم الاتفاق بالاجماع على التمسك بالمعاهدة ، وحتى يؤكدوا صدقهم واخلاصهم بعثوا كلاً من كريكور ماميكونيان وسمباد باكرادوني ، وهما من كبار رجالات الارمن ومن اعرق الاسر الارمنية في البلاد ليقيما في دمشق بصورة دائمة كرهائن ، كما اعلموا الخليفة العربي انهم قرروا ان يدفعوا لبيت المال في دمشق خمسمئة درهم سنوياً ، كمبلغ رمزي باسم الجزية .

---

١ ـ فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٨٨ .

٢ ـ من مقال « معاوية والارمن » للاب اوهانيس آدميان نشر في مجلة الحديث م ٢٦ ص ١٢١ .

استقبل معاوية كريكور وسمباد احسن استقبال وخصص لهما احد القصور الفخمة لاقامتها (١) .

مر عام على اقامة كريكور وسمباد في عاصمة الدولة العربية ، وذات يوم تلقى الخليفة رسالة من بطريك الارمن وزعمائهم يقترحون فيها تعيين الامير كريكور ماميكونيان بطريقاً على ارمينية ، خلفاً لتيودور رشدوني .

وافق معاوية على هذا الاقتراح لاسيما بعد ان اكتشف في كريكور، خلال اقامته في دمشق ، جميع المزايا التي تؤهله للقيام باعباء هذا المنصب الخطير ، فأمر بتجهيزه وحمله الكثير من الهدايا والعطاءات وشيعه حتى خارج اسوار العاصمة العربية .

يقول المؤرخ الأرمني غيفونت انه خلال خلافة معاوية بن أبي سفيان دخل الارمن نهائياً في ظل الحكم العربي ، وان مؤرخي الارمن جميعهم بدون استثناء كغيفونت والبطريك هوفهانيس واسوغيك يذكرون فيمذكراتهم التاريخية كيف ان الارمن قد عاشوا عيشة سعيدة وهانئة تحت حماية العرب . (٢)

* * *

حين استتب الامن والسلام في البلاد ، بدأت جماعات المهاجرين العرب تزحف نحو « الارض الجديدة » لتقيم في حواضرها ، وتبدأ فيها حياة جديدة وتجعل منها موطنا ومستقراً ، من أهم المدن التي استقبلت امواج الهجرة الاولى برذعة وتفليس وخلاط ودبيل ومنازكرد وارجيش

---

٣ ـ المصدر السابق ص ١٢٣ .

٢ ـ المصدر السابق ص ١٢٣

وقد استقر العرب أولا في ارباض اقاموهـا الى جانب هـذه المدن ليكونوا عوناً للحاميات العربية فيها ، ثم مالبثوا ان دخلوا تلك المـــدن واستقروا فيها وغدوا بعد اجيال جزءاً منها .

وكنت ترى منائر المساجد ترتفع الى جانب ابراج المعابد ، وفي هدأة الليل تتعالى اصوات المؤذنين الى جانب رنين اجراس الكنائس ، وكل يدعو قومه الى الصلاة وعبادة الخالق الديان ...

وهكذا نعمت ارمينية بفـترة هدوء واستقرار استمرت من عام ٦٦١ م . حتى عام ٦٨٥ م . حيث بدأت الرياح تهب عليها شديدة وعاتية ..

مات معاوية وتولى ابنه يزيد الخلافة ، مستخدمـاً في ذلك ، لأول مرة في تاريخ العرب نظام الوراثة بدل الشورى في اختيار الخليفة الصالح ، مما ازكى النيران الخامدة ودفعها الى مزيد من الاشتعال ، وقـد امضى يزيد مدة خلافته (٦٨٠ – ٦٨٣ م .) في محاولات يائسة لرأب الصدع واخماد النيران الى جانب الانصراف الى لهوه ومجونه .

وفي عهد يزيد قامت حركة الحسين بن علي واستشهاده .

فلما جاء معاوية الثاني (٦٤ هـ ٦٨٣ م) هاله الامر الذي وصلت اليه الخلافة وعظم لديه الخطب ، فـترك وراءه عرض الدنيـا الزائل وولى وجهه شطر الله الحي الدائم ..

● سنوات القلق

لم يكن حظ مران بن الحكم (٦٤ – ٦٥ هـ/ ٦٨٤ – ٦٨٥م) بأفضل ممن سبقه من الخلفاء الامويين ، إلا انه استطاع ان يمهـد ، رغم فترة حكمه القصيرة ، الطريق امام الاسرة المروانية لتتسلم مهـــام الملك والسلطان بدلا من الاسرة السفيانية .

فلمـا جاء ابنه عبد الملك (٦٥ – ٨٦ هـ / ٦٨٥ – ٧٠٥ م .) شعر بأن الارض ما تزال تهتز تحت اقدام رجاله في الشمال ، وفي الثغور ، وفي فارس ، وفي كل مكان ..

ففي مكة خلافة اسلامية جديدة لعبد الله بن الزبير ، وفي الكوفة ثورة المختار بن عبيد الله الثقفي الذي هب يطالب بالثأر من قتـلة الحسين ابن علي ، ويوقع بهم الواحد بعد الآخر ، وهنا وهنـاك في ارض العرب هجمات صاعقة للخوارج الذين لم يرضوا عن أي حكم في البـــلاد ، وفي الشمال ، حيث شعوب الترك من الخزر والصغد والكرج والغز وغـــيرهم يقومون بغارات متلاحقة على اراضي ارمينية واران واذربيجان ، وكانت هذه الغارات تشكل خطراً ماحقاً للناس والارض والامن والاستقرار ..

ومن البدهي ان تبعث هذه الاوضاع المتردية القلق في نفوس اهل البلاد ، وتعلو صيحات الشكوى والتمرد . وقد اراد عبد الملك ان يحسم هذا الامر ويضع حداً للفوضى والاضطراب فعزل عبد العزيز بن حاتم عن ارمينية وولى مكانه عثمان بن الوليد بن عقبة بن معيط ..

مما يلاحظ هنا ، ان الفترة الواقعة بين عامي ٦٨٥ و ٦٩٢ تبـدو مهزوزة وغير واضحة ، وان ثمة اختلاف واضح بين المصـادر العربيـــة والمصادر الارمنية ...

تقول المصادر الاخيرة ان الامير كريكور ماميكونيان لاقى مصرعه في عام ٦٨٥ حين كان يصد غارات الخزر عن بلاده ، وان آشود باقرادونيان قد تولى السلطة من بعده ، واستمر حتى عام ٦٨٨ ، وان جوستنيـــان الثاني امبراطور الروم اراد ان يستغل حالة الفوضى والاضطراب في ارمينية فوجه انذاراً الى الارمن يطالبهم فيه بالتخلي عن حلفائهم العرب والدخول

من جديد في طاعته (١) ولكن الارمن اجابوا قائلين بانهم ماعادوا يثقون بوعوده (**فكم مرة خضعنا لحكمكم ولم نلق منكم سوى الذل والهوان ، فدعونا وشأننا مع حلفائنا الحاليين العرب لأنهم يحيطوننا بكل عطف ورعاية**) . (٢)

غضب الامبراطور لهذا الرد فجرد حملة كبيرة غزا فيها أرمينية واعمل فيها يد القتل والتخريب ، فنهب الاموال واستباح الحرمات وسام الشعب سوء العذاب ثم اقتاد معه ثمانية آلاف شابة ارمنية سبية وبعث بهن الى بلاد بعيدة حيث جرى بيعهن في اسواق النخاسة (٣) .

في عام ٦٨٨ م . قتل آشود على يد بعض رجال الحاميات العربية (٤) الذين شاركوا الارمن في مقاومة جيش الروم فاستولى الامير سمباط الباقرادوني على السلطة وقرر محاربة العرب والروم على السواء ..

هذا ما تقوله المصادر الارمنية ، اما المصادر العربية فانها تشير الى هذه الاحداث بقولها :

ان عبد الملك بن مروان لما ولى عثمان بن الوليد ارمينية وكانت حركة ابن الزبير في اوج احتدامها ، استغل اهل البلاد هذه الاحداث وثاروا في وجه العرب معلنين بذلك استقلالهم وامتناعهم عن دفع الجزية. (٥)

---

١ ـ صفحات من تاريخ الامة الارمنية ص ١٠٥

٢ ـ المصدر نفسه ١٠٥

٣ ـ المصدر نفسه ص ١٠٥

٤ ـ هكذا تقول المصادر الارمنية .

٥ ـ فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٨٩

اما حملة جوستنيان الثاني فتؤرخ لها المصادر العربية في عام ٧٠ هـ ٦٨٩ م .
وتقول ان الامبراطور اقبل على رأس جيش عظيم يريد الثغور وبلاد الشام ، وحين وجد عبد الملك نفسه بين نارين ، نار الروم في الشمال ونار الثورة في الشرق والجنوب ، عمد الى تجميد الوضع على حدود الروم ليتفرغ للاحداث التي تشغله في الحجاز والعراق ، فاتصل بالامبراطور جوستنيان وعرض عليه هدنة مؤقتة على ان يدفع له الف دينار ذهباً كل اسبوع شريطة ان يتوقف القتال تماماً بين الدولتين سواء في البر او في البحر .

رأى الامبراطور الرومي في هذا العرض نصراً ما بعده نصر ، فوافق عليه ، ورجع مع جيشه الى عاصمة بلاده دون ان يقع اي اشتباك يذكر بين الفريقين .

حين انتهت سنوات القلق بالنسبة الى عبد الملك واستقام له الامر ، ابلغ الامبراطور عزمه على الغاء الهدنة ، وامر عثمان بن الوليد عامله في ارمينية ان يبدأ من يومه في غزو بلاد الروم ، وبالفعل دخل عثمان ارض الروم على رأس جيش ، يقدره الطبري بستين الفا ، وسجل عدداً من الانتصارات وعاد بغنائم كثيرة (١) وكان ذلك في عام ٧٣ هجرية ٦٩٢ ميلادية .

محمد بن مروان

حين انهى عبد الملك هدنة الثلاث سنوات (كما تسميها المصادر العربية) مع بيزنطة ، وباشر عدوه القتال غضب الامبراطور جوستنيان الثاني لهذا الامر ، وقرر ان يجرد حملة كبيرة يؤدب بها هؤلاء العرب

---

١١ ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٩٤

الذين ما انفكوا يهددون بلاده ويقضون مضاجع شعبه ، وسار على رأس جيش عظيم الى ارمينية ، بناء على اتفاق مسبق مع عدد كبير من الامراء والقادة الارمن الذين قرروا هذه المرة شق عصا الطاعة على العرب ، والانضمام الى الروم وكان على رأسهم الامير سمباد الباقرادوني الذي يتولى ادارة الحكم المحلي في ارمينية الكبري ، ورأى سمباد في قدوم جوستنيان الامبراطور اولى تباشير الفرج فابلغ حاكم ارمينية العربي (عثمان بن الوليد) امتناعه عن دفع الجزية .

بلغ عبد الملك نبأ زحف الجيش الرومي الى ارمينية وانضمام قسم كبير من القوات الارمنية اليه فبادر الى الاتصال بأخيه محمد بن مروان الذي كان قد ولاه الجزيرة والثغور ، وتنظيم حملات الصوائف والشواتي ، فعهد اليه هذه المرة بامارة ارمينية الى جانب الاعمال التي بين يديه ، وصرف عثمان بن الوليد عن الولاية .

كان اول ما فعله محمد بن مروان ان حشد جميع قواته وزحف لملاقاة الجيش البيزنطي قبل ان يمكنه من دخول البلاد العربية والتوغل فيها . والتقى الجيشان ودارت رحى معركة هائلة ، كان النصر فيها لابن مروان والهزيمة الساحقة لجوستنيان وحلفائه ، ووقع الامير سمباد نفسه في يد العرب اسيراً مع عدد آخر من امراء بلاده فبعث بهم محمد الى دمشق .

بعد ثلاث سنوات ، أي في عام ٧٦ هجرية (٦٩٥ م) تمكن الامير سمباد بوسيلة ما من الهرب من سجنه واللجوء الى الامبراطور ليون الذي أستولى على عرش القسطنطينية بعد هزيمة جوستنيان الثاني ، فاعاده هذا حاكماً على ارمينيا الكبرى .

جاء سمباد الى ارمينية وفكرة الانتقام من العرب تراود ذهنه ، فما كاد يستقر به المقام حتى اعلن الثورة ، واخذ يهاجم الحاميات العربية

المتمركزة في عدد من المواقع داخل البلاد ، وكان لا بد ان يقع الاصطدام ، وتسفك الدماء ، وتحرق المزارع ، وتدمر القرى والدساكر ، وقد تمكن الامير الارمني من ايقاع الهزيمة بمعظم هذه الحاميات والفتك برجالها ، وكان الامير ابو شيخ بن عبد الله الذي ولي ارمينية مندوبا عن محمد بن مروان من بين الضحايا الذين قتلوا بسيوف رجال سمباد .

حدث كل هذا ومحمد بن مروان منشغل في حرب الروم ومهاجمة قلاعهم وحصونهم القريبة من الحدود العربية ، وجاءه كتاب اخيه عبد الملك بوجوب التفرغ لانهاء المجزرة في ارمينية واخماد نار الفتنة فيها ، واعادة تنظيم امور الحاميات العربية واسترجاع المواقع الحربية التي سقطت بيد سمباد .

اعلن ابن مروان النفرة في رجاله ، وزحف بجيشه كاملا هذه المرة لا ليغزو الروم ويقاتل جيش بيزنطة ، بل ليخمد نيران الثورة في ارمينية ، ويقضي على حركة التمرد ، ويعيد احتلالها من جديد .

لاحت بوادر مجزرة رهيبة في الافق ، واحس عقلاء الارمن ان هذه المجزرة اذا ما وقعت فانها ستقضي لا محالة على معظم سكان البلاد ، وتطمس معالم الحياة والنمو والازدهار في مدنها ومزارعها ... ووجد هؤلاء الرجال ان لا قدرة لهم على مجابهة الجيش العربي وقائده الشديد البأس ، وانه لا بد من الجنوح الى المهادنة والموادعة واخذ الامور بشيء غير قليل من حسن التصرف ، وبعد تدارس الموقف اجمعوا الرأي على تكليف البطريك اسحاق الثالث بالتوجه الى مركز قيادة محمد بن مروان في الجزيرة موفداً باسم شعب ارمينية حاملا رسالة ممهورة بتواقيع جميع الامراء والقادة الارمن تتضمن عبارات الاستعطاف والتبرؤ مما حدث في البلاد من اعمال الشغب والفوضى ..

حمل البطريرك رسالة الشعب ورحل الى الجزيرة ، وهو يستشعر في نفسه خطورة المهمة المنتدب اليها ولكنه في الوقت نفسه كان شديد الامل في نجاح سفارته هذه لأن محمد بن مروان يكن للبطريرك صداقة شخصية ، ويجله ويحترمه ويستأنس برأيه السديد .

ولكن القدر لم يشأ ان تتم هذه السفارة بالطريقة التي ارادها البطريرك ، فانه ما كاد يصل الى حران (١) حتى ادركته المنية ، هذا في الوقت الذي كانت طلائع جيش ابن مروان قد بلغت الموقع الذي مات فيه ..

اسقط في يد الرجال الذين يرافقون البطريرك ، ماذا بامكانهم ان يفعلوا ، وقد سكت الصوت الذي كان سيتحدث باسم الشعب ؟.. وفي غمرة يأسهم اهتدوا الى حيلة .. وضعوا جثمان البطريرك في نعش مكشوف وهو في كامل ملابسه ، ووضعوا في يده رسالة الشعب الارمني ، ثم بدأو باقامة الجناز الكنائسي .

في هذه الاثناء وصل موكب محمد بن مروان الى حران ، وبلغه نبأ وفاة صديقه البطريرك ، فاعلن حزنه على موته ، وقرر ان يعزي اصحابه فيه ، فقصد كنيسة المدينة وفيها يسجى جثمان البطريرك الراحل..

تقول بعض المصادر الارمنية (٢) ان محمد بن مروان حين وقف امام الجثمان الهامد تحركت يد البطريرك التي تحمل الرسالة ، فتناولها محمد ، وحين اطلع على مضمونها ، وعرف الغاية من مجيء صديقه ، سكنت ثائرته ، وتلاشى غضبه ، وتراجع عما كان قد وطد العزم عليه ..

---

١ — مدينة عظيمة من جزيرة آقور ، وهي قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان ، وهي على طريق الموصل والشام والروم (ياقوت) .

٢ _ صفحات من تاريخ الامة الارمنية ص ١٠٦

بين الاخوين الملك والقائد

من حق التاريخ علينا ان نطرح هنا هذا السؤال :

هل كان محمد بن مروان محبوباً من اخيه عبد الملك ؟...

وهل استطاعت جميع الاعمال التي قام بها هذا القائد البطل والمعارك التي خاضها ان تبعث شعور الرضا والاطمئنان في قلب الخليفة ؟...

قيل ان شجاعة محمد وجرأته وصلابته هي السبب في كراهية عبد الملك له ، فالخليفة كان يحسد في اخيه هذه السمات البطولية الرائعة ،

وقد تولدت هذه الكراهية منذ سنوات الحداثة ، حين كان محمد يحصل على كل ما يبتغيه بالقوة ، ويترك لأخيه عبد الملك ماهو في غير حاجة اليه .

يروي ابن الاثير في تاريخه الكامل هذه القصة :

لما تولى عبد الملك الخلافة اظهر مافي نفسه لأخيه ، وتجهز محمد ليسير الى ارمينية ، فلما دخل على اخيه مودعاً سأله عبد الملك عن سبب تركه دمشق وايثاره الحياة في ارمينية قال محمد هذين البيتين من الشعر :

وانك لا ترى طرداً لحر كالصاق به بعض الهوان

فلو كنا بمنزلة جميعاً جريت وانت مضطرب العنان

فقال له عبد الملك ، اقسمت عليك لتقيمن معي ، فوالله لا رأيت مني بعد اليوم ما تكره (١) .

وهذا يؤكد الغاية من اتخاذ محمد مدينة حران فيما بعد قاعدة لأمارته ، فلما جاء بعده ابنه مروان مشى على سنة ابيه ، فلما تولى الخلافة

---

١ — التاريخ الكامل لابن الاثير ج ٤ ص ١٦٧

في اواخر الحكم الاموي نقل العاصمة من دمشق وجعلها في حران ..

ونحن اذا ما حاولنا ان نتتبع نشاط محمد الحربي نلاحظ بالتأكيد تحولا كبيراً قد طرأ على ميول الخليفة عبد الملك نحو اخيه ، وكذلك ميول ابنه الوليد حين ولي الخلافة من بعده ، ويخيل اليّ ان حال محمد بن مروان من الاسرة الحاكمة في دمشق هي كحال ابن اخيه مسلمة ابن عبد الملك ... الذي اقصي عن الخلافة وهو احق الناس بها ..

مسلمة يظهر على المسرح

في عام ٨٦ هجرية (٧٠٥ م) مات عبد الملك وخلفه ابنه الوليد (٨٦ – ٩٦ هـ / ٧٠٥ – ٧١٥ م) ، افتتح الوليد عهده بأن عهد الى اخيه مسلمة امارة الجيش في جميع المناطق التي يشرف عليها عمه محمد بن مروان واقتصرت ولاية محمد على النواحي الادارية والمالية فقط ...

وهكذا دفع الوليد بمسلمة الى خضم الاحداث ، لكي يلعب فيما بعد دوره التاريخي في تقليم اظافر الامبراطورية البيزنطية ، وتقليص مساحات اراضيها ودفع حدودها الى الداخل وتقطيع الروابط التي كانت تصلها بمقاطعات ارمينية المختلفة .

في السنة الثانية من تولي مسلمة مهام عمله الجديد ، بدأ في شن غزواته ضد الروم ، وفي السنة الثالثة ، اي في عام ٨٨ هـ (٧٠٧ م) اراد مسلمة ان يأخذ عدوه الامبراطور بالحيلة ، فطلب الى « صاحب ارمينية » [1] ان يكتب الى الامبراطور رسالة يقول فيها ان شعوب الخزر من سكان الجبال قد احتشدت للاغارة على البلاد ، ويطلب منه بذل المساعدة

١ — هكذا تنعته المصادر العربية دون ان تورد اسمه

في ردها ، ففعل صاحب ارمينة ما كلفه به مسلمة ... وبطريقة ما ، لعلها صادرة عن بعض امراء الارمن انفسهم ، علم الامبراطور بالخدعة ، فتظاهر بانه قد صدقها ، وبعث الى صاحب ارمينية يعلمه بأنه آت مع جيشه لمساعدته .

حسب توقيت محدد ، دخل الجيش العربي ارض الروم وهو يحسب انه قد اصبح في مؤخرة الجيش الرومي الزاحف باتجاه ارمينية ، وكان دخول الجيش العربي من ثغور الجزيرة ، ثم اتجه شمالا ليقطع على الامبراطور طريق العودة الى بلاده ، وما علم ان الامبراطور لم يغادر مواقعه الاصلية ..

تلقت الحاميات الرومية على الثغور الضربة الاولى فسقطت ، ومضى الجيش العربي الى العمق داخل البلاد ، وما كاد يقطع بعض المراحل حتى ظهر جيش الروم الكبير على مجنبتيه ومن خلفه وهنا اكتشف مسلمة انه سقط في شرك الخديعة التي حاك خيوطها بيديه ...

عندما نشب القتال ظهر في البدء تفوق الروم على العرب ، وكادت تحل بهم الهزيمة ويفنى الجيش عن آخره لولا الحركة الجريئة التي قام بها العباس بن الوليد الذي كان يشترك مع عمه مسلمة فى القيادة ، فقد راح العباس يحث الرجال على طلب الموت ويزين لهم الجنة ، ويعيد الى اذهانهم بطولات الاجداد ، والفئة القليلة التي كانت تتغلب بصدق ايمانها على الفئة الكبيرة ..!

وعادت كفة القتال لتميل نحو العرب وتدور الدائرة على الروم ويولون الادبار ... وبدلا من ان يكتفي مسلمة بهذا النصر ويعود الى مواقعه واصل زحفه داخل ارض العدو حتى بلغ طوانه وفتحها بعد حصار دام عدة اشهر وفرض عليها الجزية ، ثم عاد الى مواقعه على الحدود ...

في عام ٩١ هـ . (٧٠٩ م) كشف الوليد لعمه محمد عن وجهه

الحقيقي واصدر امره بعزله عن جميع مناصبه في الجزيرة وارمينية واذربيجان وتولية اخيه مسلمة هذه المناطق ..

مسلمة في ارمينية

كان اهتمام مسلمة خلال فترة امارته الاولى على الجزيرة وارمينية واذربيجان ، أي من عام ٩١ هـ / ٧٠٩ م حتى عام ١٠٠هـ (٧١٨ م) منصباً على اعمال الغزو وتنظيم حملات الصوائف والشواتي ضد الروم وكذلك رد الهجمات المتكررة التي كانت تقوم بها شعوب الترك من الخزر والصغد على اقليمي اران واذربيجان .

قام مسلمة بثلاث عشر غزوة خلال السنوات الست المتبقية من حكم اخيه الوليد ، فلما ولي اخوه الثاني سليمان بن عبد الملك الخلافة (٩٦ – ٩٩ هـ / ٧١٥ – ٧١٧ م) انصرف مسلمة الى الاستعداد لتحقيق حلمه الكبير وهو فتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ووضع كلمة النهاية في تاريخ هذه الدولة العظيمة . كما حدث من قبل في المدائن حين قوض الجيش العربي حكم الاكاسرة في فارس .

ويموت سليمان ومسلمة ما يزال محاصراً القسطنطينية ويجيء عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ / ٧١٧ – ٧٢٠ م) فيأمر مسلمة بفك الحصار واعادة الجيش الى مواقعه على الحدود ..

نتوقف الآن عن متابعة المسيرة مع مسلمة لنستعرض هذه القصة التي تحمل دلالات بارزة في تاريخ العلاقات العربية – الارمنية ايام حكم الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز . يذكر المؤرخون الارمن انه في زمن خلافة عمر كان البطريرك على ارمينية هو هوفهانيس اوتسنيتسي اعظم شخصية بارزة في ارمينية والشرق وكان مشهوراً بمصنفاته وبلاغته ومعلوماته

العميقة في الشعر والآداب والفلسفة واللاهوت وقد صنف معظم اجزاء الكتب الطقسية للكنيسة الارمنية وكان يقضي اكثر ايامه منقطعاً للصوم والصلاة ، لهذا فان الكنيسة الارمنية تعتبره بين ملافنتها الكبار مثل كريكور الناريكي ونرسيس الانيق ونرسيس اللامبروني وغيرهم .[1]

كان عامل الخليفة عمر في ارمينية [2] يصف دائماً في رسائله البطريرك الارمني هوفهان اوتسنيتسي ويشيد باخلاقه الطيبة ، فتاق الخليفة العادل الى التعرف على هذا الرجل العظيم وبعث يدعوه لزيارة دمشق ،ولبى البطريرك الدعوة وقدم الى العاصمة العربية الجميلة ، فاستقبل بمظاهر الحفاوة والاكرام حيث قيل ان دمشق لم تشهد مثيلا لهذا الاستقبال الرائع بالنسبة لرجال الدين وكبار ضيوف الدولة العربية .

في اللقاء الاول الذي تم بين الرجلين العظيمين ، لفت انتباه الخليفة الزاهد حسن قامة البطريرك وشعره المسبل الجميل وذقنه المزدهرة وثيابه الموشاة وعصاته المذهبة المرصعة بالاحجار الكريمة ، ولم يكتم الخليفة الفضول الذي كان يعتمل في نفسه فسأل ضيفه الكبير عن هذا الترف غير الاعتيادي طالما ان السيد المسيح قد دعا في انجيله المقدس الى البساطة ، فقال البطريرك مجيباً :

– ان المسيح لما اتخذ الطبيعة البشرية غطى بها المجد الالهي ولكنه لم يستر المعجزات وقوته الالهية ، فبقوته الالهية صنع آيات كثيرة هو وتلاميذه ، ولم يحتج الى ثياب مثل ثيابي هذه ليجعل كلامه مسموعاً وشخصه وقوراً ، ولكننا نحن رجال الدين لا يمكننا ان نصنع آياتمثل آيات السيد المسيح ومعجزاته فاننا نحاول ان نلقي على انفسنا مظاهر

١ — تاريخ البطريرك هوفهانيس السادس ص ١٢٩ .

٢ — تسميه المصادر الارمنية « الوليد » اما المصادر العربية فلم تذكر اسمه مفصلا .

المهابة والوقار بواسطة هذه الملابس المزدانة . ولكـــن اذا اردت ان تعرف الحقيقة الكاملة وتشاهد ملابـي الحقيقية التي اضعها على جسدي ، فأرجو ان تأمر الحاضرين باخلاء المجلس .

طلب الخليفة الزاهد ان يخرج الجميع ، فلمـا خـلا بالبطريرك نزع هذا ملابسه الخارجية المزدانة بانواع الجـوهرات والوشي فاذا بثوب خشن مصنوع من الخيش مسدل على جسده ، وقال :

ـ هذه هي ثيابي الاصلية التي البسها بشكل دائم فـوق جسدي تحسسها بيدك ان شئت .

فوضع الخليفة يده على الثوب ثم سحبها مندهشاً وهو يقول :

ـ كيف يستطيع الانسان ان يتحمل مثل هذه الثياب الخشنة المؤلمة اذا لم يعطه الله الصبر ؟ .

ثم خلع الخليفـة على البطريرك الخلـــع النفيسة وزاد في اعزازه واكرامه ...

ويضيف الى هذا المؤرخ الأرمني قرياقس الجنزوي في تاريخه بأن الخليفة سأل البطريرك عن حاجته ، فقال لست اريد شيئاً لنفسي وانما اريد ثلاثاً لشعبي ، ولمـا استوضحه الخليفة عن هـذه الامور الثلاثـــة قال البطريرك .

ـ اريد ان تمنحني كلمة نعم على هذه المطالب الثلاثة ، اولا حرية الدين وثانياً اعفاء رجال الدين من دفع الضرائب وثالثـــاً ممارسة الدين واقامة المراسيم الدينية .

وافق الخليفة على هذه المطـــالب الثلاثـة ورد البطريرك الى بلاده

معززاً مكرماً (١) .

نعود الآن لنستأنف الرحلة مع مسلمة بن عبد الملك .

حين مات عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م) واضطر هذا الى الاستعانة باخيـه مسلمـة على اخماد نار الفتنة التي اندلعت في العراق بقيادة يزيد بن المهاب ، وقـد تمكن مسلمة من تحطيم مقاومة يزيد واعادة العراق الى الحكم الاموي فولاه اخوه امارة العراق وخراسان .

بعد عام عزل يزيد اخاه مسلمة عن امارته ووضع مكانـه عمر بن هبيرة (٢) الذي استطـــاع الوصول الى هـذا المنصب الخطـــير بأساليبه الملتوية الخاصة ..

ونقفز الآن الى عام (١٠٤ هـ ٧٢١ م) ونرى ان يزيـــد بن عبد الملك قد ولى الجراح بن عبد الله الحكمي (٣) ارمينية واذربيجان وقد جاء هذا الاجراء بعد ان عجز ابن هبيرة عن تدبير امور الحرب في

---

١ ـــ الاب اوهانيس آدميان عن تاريخ البطريرك هوفهانيس السادس وقرياقس (مقال عمر بن عبد العزيز والارمن منشور في مجلة الحديث مجلد ٢٦ صفحة ٣٧٧) .

٢ ـــ امير من الدهاة الشجعان ، كان من اهـــل الشام وهو بدوي امي شارك في مقتـل مطرف بن المغيرة المناوىء للحجاج الثقفي فاكرمه الخليفـــة عبد الملك ، في زمن عمر بن عبد العزيز ولي الجزيرة وغزا الروم من ناحية ارمينيـــة فهزمهم ، في زمن يزيد بن عبد الملك ولي العراق وخراسان ،ولما جاء هشام عزله ودخل سجن واسط فمات فيه (الاعلام) .

٣ ـــ امير خراسان وأحد الاشراف الشجعان ، دمشقي الاصل والمولد ، ولى البصرة للحجاج ثم خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز ، ولاه يزيد بن عبد الملك امارة ارمينية واذربيجان فغزا الخزر وافتتح حصن بلنجر وبعد ان اقره هشام زمنا عزله واعـاده الى دمشق فانصرف الى الغزو والفتح ، قال الزرقي كان الجراح يد الله على خراسان كلها . (الاعلام) .

صد غزوات الخزر . حين جاء الجراح بدأ في تطهير المناطق التي احتلها الخاقان وفرض الطاعة على ملوك الجبال وقبل ان يكمل الجراح مهمته الحربية مات يزيد وولى الخلافة اخوه هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م فاقر الجراح على عمله وامده بالرجال والعتاد يتقوى بهم على صيانة الحدود ودفع الاذى عن اهل البلاد ..

ويعود مسلمة ثانية اميراً على ارمينية واذربيجان في عام ١٠٧ هـ ٧٢٥ م بعد ان أمر هشام بعزل الجراح الحكمي ..

ولكن مسلمة هذه المرة لم يغادر دمشق ليتولى عمله في المناطق التي وضعت تحت امرته ، بل كلف الحارث بن عمرو الطائي (١) بالولايتين نيابة عنه ، ومكث هو الى جانب اخيه هشام بعد ان اخذت تنعقد في الافق سحب داكنه وتزحف ببطء نحو دمشق مهددة ومعرضة الخلافة الاموية ذاتها الى خطر الهلاك ..

ونحن ، نلاحظ في هذه الاعوام هدوء الحالة الداخلية في ارمينية ، وجنوح الاهلين الى المهادنة والسلم ، وانصرافهم الى مؤازرة القوات العربية في دفع اخطار شعوب الترك التي نشطت على الحدود الشمالية والشرقية من ارمينية بشكل يثير الذعر في النفوس ..

يقول الاب اوهانيس آدميان :

كان لهشام بن عبد الملك علاقات طيبة مع الارمن لم يذكرها مؤرخو العرب والاجانب وانما ذكرها المؤرخ الارمني غيفونت في تاريخه فيقول ان هشاما عين عمالا صالحين على ارمينية وانه اكرم اشوط

١ — من القادة ، ولي امرة البلقان في خلافة عمر بن عبد العزيز ثم ولي ارمينية (١٠٧ هـ) ثم ولي اذربيجان (١٠٨ هـ) واغار على الترك (١١١ هـ) فهزمهم بعد قتال شديد (الاعلام) .

باكرادوني بدمشق ودفع له الرواتب السنوية للجيش وتحالف الجيشان العربي والارمني ضد العدو المشترك (الخزر) . (١)

وقد شهدت اذربيجان خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٠٨ و ١١٤ هـ (٧٢٦ - ٧٣٢ م) سلسلة من المعارك والاشتباكات بين قوات التركمان (الخزر) بقيادة الخاقان وبين الجيش العربي ، ففي المعارك الاولى قتل الحارث بن عمرو الطائي نائب مسلمة ، مما اضطر مسلمة الى ان يجيء بنفسه عام ١٠٩ هـ . ويوقع بالترك ، وفي العام التالي كانت المواجهة بين مسلمة والخاقان في اقصى الشمال واستمر القتال بينهما حوالي شهر ثم هطلت امطار غزيرة احالت المعركة الى مستنقع تغوص فيه قوائم الجياد ، فأوقف الخاقان الحرب وعاد الى بلاده وكذلك فعل مسلمة (٢) .

في عام ١١١ هـ (٧٢١ م) استبقى هشام اخاه الى جانبه واعاد الجراح بن عبد الله الحكمي اميراً على ارمينية واذربيجان ، وكان الجراح مقيما بمدينة مذحج من اعمال ارمينية (٣) فعبر نهر الكر وسار حتى قطع النهر المعروف بالسور وسار الى الخزر فقتل منهم الكثيرين وقاتل اهل بلاد حمزين ثم صالحهم على انه نقلهم الى رستاق خيزان وجعل لهم قريتين منه واوقع اهل غوميك وسبى منهم ثم قفل عنهم فنزل مدينة شكي من ارمينية وامضى الشتاء مع جنده في برذعة والبيلقان ، وفي العام الثاني (١١٢ هـ ٧٣٠ م) جاشت الخزر وعبرت نهر الرس بارمينية فحاربهم الجراح في صحراء ورثان ثم جازوا الى ناحية دبيل فحاربهم على اربعة فراسخ مما

١ — من مقال الاب آدميان ص ١٦٩

٢ — التاريخ الكامل لابن الاثير ج ٤ ص ٢٠٧ .

٣ — مقال « هشام بن عبد الملك والارمن » للاب آدميان نقلا عن مصادر تاريخية للبلاذري وغيفونت واليعقوبي والطبري وابن الاثير .

يلي ارمينية فاقتتلوا ثلاثة ايام واستشهد الجراح ومن معه فسمى ذلك النهر نهر الجراح [1] .

بعد ان لاقى الجراح حتفه تمزق جيشه وطمع الاعداء بالبلاد وتوغلوا في الداخل حتى بلغوا الموصل [2] هنا طلب هشام من مسلمة ان يتولى الامر بنفسه بعد ان قلده امارة الولايتين ، فوجه مسلمة على مقدمته سعيد بن عمرو الحرشي [3] فبدأ هذا في مطاردة جموع الغزاة حتى بلغ مدينة برزند ، وعلى شواطىء نهر الرس دارت المعركة قبل الاخيرة ، فاوقع سعيد بالخزر فترك هؤلاء غنائمهم واسلابهم وسباياهم ولاذوا بالفرار .

يقول المؤرخ الأرمني غيفونت انه لما هجم سعيد الحرشي على الخزر ، فك الحصار عن قلعة امبريوديك (بجوار اردبيل) وهزمهم اشنع هزيمة واخذ منهم علمهم الذي كان محفوراً على صفحة من النحاس فحفظته فرقة الحرشي تذكارا لانتصارها على الخزر [4] .

ثم عاد الخزر فلموا شعثهم وجموعهم وهاجموا الحرشي على شاطىء نهر البيلقان ، وبعد قتال رهيب تراجع الخزر ثانية الى ناحية النهر للاحتماء

---

١ — حين جاء الجراح الى مدينة برذعة علم بأن الناس فيها يستعملون انواعاً مختلفة من المكاييل والموازين ، فأقامها على العدل والوفاء واتخذ مكيالا يدعى الجراحي ، فصار الاهالي يتعاملون به الى ايام المتوكل وما بعده . (للاب آدميان استناداً الى فتوح البلدان للبلاذري ومصادر تاريخية اخرى) .

٢ — ابن الاثير والطبري (احداث عام ١١٢ هجرية) .

٣ — قائد من الشجعان من اهل الشام وهو الذي قتل شوذب الخارجي ، وفتك بمن معه (١٠١ هـ) ولاه ابن هبيرة خراسان (١٠٣ هـ) ثم عزله فعاد الى دمشق فولاه هشام غزو الخزر (١١٢ هـ) فرحل الى ارمينية ثم عاد الى دمشق بامر الخليفة . قال بن حزم مولده بأرمينية وكان تقياً بطلاً . (الاعلام)

٤ — للأب اوهانيس آدميان نقلا عن تاريخ غيفونت الارمني ص ١٠١

به ، وامام هجمات الفرسان العرب الصاعقه اندفعوا نحو النهر يريدون العبور ، ولكن مياهه السريعة الجريان تخاطفتهم جماعات جماعات حتى قيل ان عدد الذين غرقوا في النهر كان اضعاف عدد الذين قتلوا بسيوف العرب [1] .

يروي اليعقوبي في تاريخه الحادث التالي :

حين حطم سعيد بن عمرو الحرشي جيش الخزر ، ووضع يده على الخاقان نفسه ، قطع رأسه وبعث به الى الخليفة هشام مبشراً اياه بالنصر ، فعل هذا دون ان يطلع قائده مسلمة على ذلك ، فلما بلغ مسلمة ما فعل سعيد غضب وكتب يؤنبه ، ثم عزله وولى مكانه عبد الملك بن مسلم العقيلي وامره ان يجيء الى سعيد فيقيده ويسجنه في مدينة « قبلة » ففعل عبد الملك ما امره به مسلمة ، فلما قدم مسلمة المدينة استدعى اليه سعيد واغلظ له في القول ، ثم امر بنقله الى سجن برذعة التي كانت دار الامارة والجند في ولايتي اذربيجان وارمينية .

حين بلغ هشام ما فعل مسلمة استبد به الغضب وارسل الى مسلمة يلومه على هذا التصرف ثم ارسل من قبله رجالا اخرجوا سعيداً من السجن وحملوه الى الخليفة [2] .

اما مسلمة فانه واصل تقدمه حتى بلغ الدربند في اقصى الشمال واقام هناك مرابطاً عدة اشهر ، ثم دخل الباب وتوغل بجيشه فيما وراء الجبال حتى بلغ نهر بلنجر الذي قتل عنده عبد الرحمن بن ابي ربيعة منذ سنوات ، فجاشت شعوب الترك من الصغد والكرج والخزر وكادوا يفتكون

---

١ — التاريخ الكامل لابن الاثير ج ٤ ص ٢٠٨

٢ — تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣١٧

بجيش مسلمة لولم يبادر هذا في اللحظة الاخيرة الى الانسحاب والعودة الى مواقعه عند الباب ...

وقد لعبت ارمينية دوراً كبيراً في مجرى هذه الاحداث ، ذلك ان الجيوش العربية كانت تعبر منها الى اذربيجان او الى أران ، كما كانت الحاميات الموجودة في المناطق القريبة من الحدود تساهم الى حد كبير في تطور القتال وترجيع كفة هذا او ذاك ..

مروان بن محمد

امضى مروان بن محمد سنوات طفولته وحداثته في ارمينية والجزيرة ، فقد ولد في ارمينية حين كان والده محمد بن مروان الحاكم النافذ الكلمة في تلك الاقاليم ، والقائد الذى لم تتوقف جيوشه لحظة عن القتال ...

ثم انتقل مع والده الى دمشق حين عزل عن ولايته ، ووفقاً للتقاليد التي كانت متبعة عند الخلفاء الامويين من اشتغال ابنائهم بالحرب، وتوليهم قيادة الجيوش وممارسة قتال الاعداء والتعرف على احوال الرعية عن كثب وعجم عود الرجال والالمام باحوال البلاد حتى اذا تسلموا الخلافة كانوا على علم ودراية بامور الدولة والناس والحرب ، فقد التحق مروان بجيش مسلمة .

كان مروان واحداً من قادة جيش مسلمة الذي توجه لمحاربة شعوب الترك فيما وراء الجبال ، ورأي ما فعل مسلمة بسعيد الحرشي ، وما ارتكبه من اخطاء بعضها ادارية ومعظمها حربية ، فاغتنم فرصة توقف القتال الذي حدث خلال فترة المهادنة وجاء سراً الى دمشق ، فلما اجتمع بالخليفة هشام اعرب له عن استيائه من تصرفات مسلمة ، الادارية والحربية ومما جاء على لسان مروان وصفاً لما حدث هناك ، قوله :

لقد كان من دخول الخزر الى بلاد الاسلام وقتل الجراح وغيره ما ادخل به الوهن على المسلمين ، ثم رأى أمير المؤمنين ان يوجه اخاه مسلمة اليهم ، فوالله ما وطيء من بلادهم الا ادناها ثم انه لما رأى كثرة جمعه اعجبه ذلك ، فكتب الى الخزر يؤذنهم بالحرب ، واقام بعد ذلك ثلاثة اشهر ، فاستعد القوم وحشدوا ، فلما دخل بلادهم لم يكن فيهم نكاية وكان قصاراه السلامة (١) .

وبعد ان استعرض الرجلان الموقف بالتفصيل وافق هشام على اقتراح مروان وعهد اليه بمحاربة الخزر ..

عمد مروان الى الحيلة ، وبالاتفاق مع الخليفة اعلن انه قد ولي امارة ارمينية فقط ثم توجه بقواته الى الاقليم المذكور ، وحين توسطها اندفع فجأة نحو اران ، هذا في الوقت الذي كان فيه جيش مسلمة قد تراجع الى اذربيجان امام ضغط جيش الخاقان الذي توغل في مناطق الشمال ، فلما سمع الخاقان بعبور مروان ارمينية ، وجد انه في موقف شديد الخطورة وانه معرض للوقوع في الوسط بين جيش مسلمة في الجنوب وجيش مروان في الشمال ، ووجد انه من الاصوب ان يتراجع الى اقصى بلاده ، وقد سبب هذا الاجراء المفاجيء انتشار الفوضى في كتائب جيشه المثقل بالغنائم ، إلا ان مروان كان اسبق منه فوضع يده على جميع المسالك في الشمال ليقطع على الخاقان طريق العودة ، وهنا ادرك الخاقان ضياع الفرصة ، وقبل ان يلم شعث رجاله وينظم قواته ، عاد القهقري مسرعاً والفرسان العرب في أثر رجاله ، ولما بلغ عاصمة ملكه ـ وتسميها المصادر العربية بلاد السرير ـ لم يستطع التوقف فيها ، فسقطت العاصمة بيد العرب وفرض على اهلها الجزية ، ثم واصل مروان تقدمه ، فاجتاز بلاد الخزر

---

١ ـــ التاريخ الكامل لابن الاثير ج ٤ ص ٢١٥

متوغلاً في بلاد « المكز » واقر اهلها بالطاعة . فاستعمل عليهم عاملاً من قبله ثم سار الى الدودانية فاوقع بهم . وكذلك بقية شعوب الترك المتجمعة في تلك الانحاء ...

عاد مسلمة الى دمشق وقد جرد من مناصبه وقدم مروان الى مدينة حران التي سبق ان اتخذها والده من قبله حاضرة لأمارته ليتخذها هو ايضاً مقراً لحكمه وذلك بعد ان تقلد جميع المناصب التي كانت لوالده ، فهو الآن الحاكم المطلق الصلاحية في كل من الجزيرة وارمينية واذربيجان..

يقول الاب اوهانيس آدميان : (١)

لما وصل مروان بن محمد مدينة دوفين (دبيل) قدم عليه زعماء الارمن فكلمهم مروان كلاما طيبا باسم الخليفة هشام واكرمهم غاية الاكرام وعين الامير آشوط باكرادوني (نجل باساك باكرادوني) بطريقاً على ارمينية واكرمه اكراماً شريفاً .

ولكن الزعيمين الارمنيين كريكور وداود ماميكونيان اللذان كان ينتميان الى اسرة ماميكونيان الكبيرة المنافسة لاسرة باكرادوني ، لما رأيا الشرف الذى حصل عليه آشوط باكرادوني وتفاهمه مع العرب ، حسداه وعصيا عليه فوصل خبر عصيانهما الى مسامع مروان فامر باعتقالهما واوثقهما بالسلاسل وارسلهما الى هشام حيث حكم عليهما بالسجن المؤبد (٢) .

بعد ان استقر آشوط في امارته ودانت له امور البلاد توجه الى دمشق للاجتماع بالخليفة الاموي لمعالجة اوضاع امارته ، وحل بعض الامور

١ — مقال بعنوان مروان بن محمد والارمن للاب اوهانيس آدميان (مجلة الحديث مجلد ٢٦ صفحة ٢٧٢) .

٢ — المصدر المذكور عن تاريخ غيفونت الارمني ص ١١٢ — ١١٣

المستعصية لا سيما ما كان يتعلق منها بالشؤون المالية وعطاءات الجند ، فقد كان هشام قد اوقف دفع الرواتب للوزراء الارمن ولفرسانهم منذ ثلاث سنوات .

استقبل هشام حليفه البطريق استقبالا حافلا ، واكرمه غاية الاكرام وخلع عليه خلعاً ثمينة ثم أمر بأن تدفع الرواتب التي كانت متوقفة عن الاعوام الثلاثة الماضية وقدرها مئة الف درهم عن كل عام ، ثم استأنفت دمشق دفع هذا المبلغ كل سنة بدون انقطاع (١) .

ونمضي الآن مع المؤرخ الارمني غيفونت اذ يقول : (٢)

بتاريخ ٧٣٨ م قام مروان بن محمد قائد القوات العربية بارمينية ومعه آشوط باكرادوني والجيش الارمني وشنوا غارات عنيفة على الخزر واحتلوا بلنجر وسحقوا الجيش الخزرى ، فلما رأى هؤلاء ان الجيش العربي والأرمني احتلا بلادهم القوا بامتعتهم في بحر الخزر وقذفوا بانفسهم في الماء حيث غرقوا وماتوا ..

ورجع العرب والأرمن منتصرين الى برذعة عاصمة اران من اعمال ارمينية فاحصى مروان الغنائم والاسرى وبعث بالخمس للخليفة هشام ووزع الباقي على العساكر وخلع على آشوط ووزرائه وفرسانه الخلع السخية وكان من بينها غلمان وجواري من الخزر (٣) .

عاش الارمن مدة خلافة هشام وامارة مروان بن محمد عيشة هانئة وسعيدة وازدهرت الصناعة والتجارة في ارمينية وانقذ مروان الارمن من

١ — المصدر المذكور عن تاريخ غيفونت الارمني ص ص ١٧٢

٢ — المصدر نفسه ص ٢٧٣

٣ — تاريخ غيفونت ص ١١٣ — ١١٤ اورده الاب آدميان في مقاله مروان بن محمد والارمن السابق الذكر .

غزوات الخزر الذين غدوا خطراً يتهدد حياة العرب والارمن في المنطقة على السواء ، وفرض العقوبات القاسية ضد اللصوص وقطاع الطرق ومشـــيري الفتن والدسائس فقطع ايدي الكثيرين منهم وارجلهم وصلب بعضهم فاستقرت الامور وساد الامن والنظام ارجاء البلاد (١) .

استمر مروان بن محمد واليا على ارمينية طيلة السنوات المتبقيـة من حكم هشام بن عبد الملك وظل كـذلك في خلافة كل من الوليـد بن يزيد (١٢٥ – ١٢٦ هـ ٧٤٣ – ٧٤٤ م) ويزيد بن الوليد (١٢٦ هـ – ٧٤٤م) فلمـا قتـل الاخـير وبويع اخـوه ابراهـيم بالخـلافـة رفض مروان البيعـة لأحـد غيره ، لأنه أحق بالخلافة من أي اموي آخر وحتى يضمن حقه في الخـلافـة ، ندب على ارمينيـة عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي وولى على الباب والابواب اسحـق بن مسلم العقيلي، ثم ضم الاقليمين الى اسحق وسافر الى دمشق ، وبعد سلسلة من الاحـداث تمت لمروان البيعة واصبح خليفة على العرب ، وهو آخر من ولي الخـلافه في المشرق من الاسرة الاموية ..

كان اول ما فعله مروان بعد ان اصبح خليفة ان نقل العاصمة من دمشق الى حران وكان تصرفه هذا واحداً من الاسباب العديـدة التي اثارت عليه حقد ابنـاء دمشق ودفعتهم الى الوقـوف في صف خصومه واعـدائـه ...

يقول الأب اوهانيس آدميان :

ولي مروان بن محمد ارمينية منذ السنة الثامنة لخلافـة هشام بن عبد الملك (٧٣٢ م – ٧٤٣ م) وبقي والياً عليها زمن الخليفـة الوليد

١ — تاريخ غيفونت ص ١١٤

بن يزيد (٧٤٣ م – ٧٤٤ م) فكان خـلال هذه الفترة يعامل الأرمن معاملة حسنة ويسعى جهده ليجعلهم سعداء .. فلما تولى مروان الخلافـة (٧٤٥ م – ٧٥٠ م) بقي على معاملته الطيبة للارمن وظلت ارمينية كما كانت عليه ايام ولايته عليها ، وكان مروان يتوق لو ساعـده الحظ في البقاء مدة اطول لكي يمنحها الامتيازات والمساعدات الكثيرة مكافأة لها على اخلاصها للدولة العربية ، غير انه قـدر للدولة الاموية ان تنقرض فماتت تلك الآمال الطيبة وقضي على الامتيازات والمساعدات التي كان بنو امية قد منحوها للارمن وخصوصاً لاسرة باكرادوني الموالية للعرب وللامويين (١) .

١ — من مقال مروان بن محمد والارمن للاب آدميان (مجلة الحديث مجلد ٢٦ ص ٢٦٧) .

في العصر العباسي الاول

قتل مروان بن محمد على نهر الزاب اثناء هربه من وجه مطارديه اصحاب الرايات السوداء من بني العباس ، وبموته طويت صفحة من تاريخ العرب كانت تسمى « العصر الاموي » وافتتحت صفحة جديدة باسم « العصر العباسي » .

كان العباس ابو عبد الله السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٤ م) اول خليفة تسلم امور الدولة بعد الامويين ومهد لبني العباس في الحكم ، كان شديداً وحازماً ، ودموياً ، حتى غلب عليه لقب السفاح لكثرة ما سفك رجاله من دماء الامويين وانصارهم ومن كان له علاقة بهم .

منذ اليوم الأول من تولي العباس الخلافة جعل عاصمة ملكه الكوفة بدلاً من دمشق ، ثم الانبار ، فلما ولي ابو جعفر المنصور الخلافه انشأ مدينة بغداد وجعلها عاصمة الدولة العربية الجديدة ..

حين اعلن العباس الخلافة له ولآل بيته خلع كثيرون البيعة وحملوا الرايات الاموية البيضاء معلنين رفضهم قبول حكم بني العباس ، وكان من بين الذين اعلنوا الثورة عرب الجزيرة الفراتية من ابناء قرقيسيا والرقة والرها وحران ونصيبين وماردين ..

كان اسحق بن مسلم العقيلي عامل مروان بن محمد على ارمينية قد غادر البلاد ، بعد ان اناب عنه في ارمينية مسافر بن كثير ، فلما وصل الى الجزيرة استقبله اهلها وطلبوا اليه ان يقود ثورتهم ، فاجابهم الى ذلك ، حتى قيل ان عدد الذين اجتمع اليه من الفرسان بلغ مئة الف مقاتل .. وتوجه اسحق الى حران ، فاوقع بعامل السفاح وكان اسمه موسى بن كعب التميمي ..

وصلت هذه الانباء الى العباس حين كان يستعد لنقل حاضرة ملكه من الكوفة الى الانبار فاسقط في يده ، وأحس بأن الأرض تهتز تحت اقدامه ، فطلب الى اخيه المنصور ان يتولى اخماد هذه الثورة بنفسه .

استطاع ابو جعفر المنصور بعد فترة ، ان يحسم الأمر في المنطقة ويوقع باسحق بن مسلم ويدفعه الى طلب الامان ، ثم توثقت عرى الصداقة والمودة بين الرجلين حتى آخر ايامهما ..

بعد هذا النجاح الذي حققه المنصور اصدر اخوه العباس امراً بتوليه الجزيرة وارمينية واذربيجان ..

اتبع المنصور سنة مروان بن محمد وابيه محمد ، فجعل مقره الرئيسي مدينة حران ، ووجه محمد بن صول الى ارمينية لانتزاعها من يد جماعة الامويين ، وكان مسافر قد تغلب عليها واعلن العصيان ، واستطاع ابن صول ان يوقع بجيش مسافر وان يصرع قائده وكان صالح بن صبيح من بين جماعة ابن صول ، فلما استقرت الامور في الاقليم عهد المنصور الى صالح بولاية ارمينية واعاد ابن صول الى حران ليبقى الى جانبه ...

وهكذا دخلت ارمينية اخيراً تحت رايات العباسيين السوداء ..

* * *

كانت البلاد في تلك الايام تغلي كالمرجل ، وصيحات التحدي والتمرد تنطلق من كل مكان ، والجيش العباسي مشغول في قمع هذه الحركات واخماد نيرانها ، وكانت عيون الروم ترقب هذه الاوضاع بدقة واهتمام .. وقد شعر الامبراطور ليون الرابع ان الوقت قد حان ليصفي حسابه مع جيرانه العرب ويوجه ضربته القاضية الى السلطات الحاكمة في الاقاليم التي كانت قديماً تحت نفوذ امبراطوريته ..

جاء ليون على رأس جيش عظيم فحاصر مدينتي كمخ وملطية وهما من الثغور ، وبعد ان ضيق الخناق عليها ، اخرج ابناءهما سلما وهدمهما ، ولم يستطع عامل السفاح على الجزيرة ان يفعل شيئاً لانقاذ المدينتين لانشغاله في حرب اسحق بن مسلم العقيلي ..

انتقل الامبراطور بعد ذلك الى ارزن الروم ونزل مكانا يدعى مرج الخصي ، وكانت ثمة قوة عربية منتدبة لحماية المدينة ، فاغلقت على نفسها الابواب وتحصنت وراء الاسوار ، فوجه الامبراطور احد قواده من الارمن (١) فحاصر المدينة ، ثم اتصل مع بعض انصاره من الارمن في داخلها ، فعمد بعضهم الى احداث ثلمة في السور استطاع الجيش الرومي ان ينفذ منها ، فقتل الروم افراد الحامية العربية وسبوا النساء ، وقضوا على جماعة من ابناء المدينة ، واقتادوا القائم على امر المدينة اسيرا وعادوا الى امبراطورهم ..

بدء الهجرة

لما ولي ابو جعفر المنصور الخلافة (١٣٦ – ١٥٨ هـ ٧٥٤ – ٧٧٥ م) بعد اخيه السفاح ، عهد الى يزيد بن اسيد السلمي (٢) بولاية

١ — يسميه العرب كوشان الارمني
٢ — من رجال الدولة العباسية ، كانت امه نصرانية ، ولي ارمينية للمنصور ولولده المهدي ، غزا الروم (١٥٨ هـ) واستولى على حصون ناحية قاليقلا (١٦٢ هـ) (الاعلام)

أرمينية ، فتوجه يزيد الى مقاطعة اران وفتحها عنوة ، ونظم امورهـا
وضبطها واقام فيها حينا ، وكان يزيد هـذا اول من فتح باب الهجرة
العربية والاستيطان في ارمينية على اوسع مداها ، وكانت الاقاليم الثلاثـة
(اذربيجان واران وارمينية) قد ادرجت في اقليم واحد يسوس امورها
امير عربي واحد بالتعاون مع عدد من الولاة المندبين والبطارقة المحليين..

خلال تلك الفترة نزحت الى تلك المناطق جموع كبيرة تنتمي الى
عدد من القبائل اليمنية التي كانت تعيش في البصرة ، فاقام بعضها في
الاراضي الواقعة بين تبريز (قصبة ولاية اذربيجان) وكورة البذ على
حدود اران ، وكانت هذه الجماعات تحت زعامة الرداد بن المثنى الازدي ،
كما استوطنت جماعة اخرى من اليمانية مناطق اخرى بزعامة مر بن علي
الطائي ، ووفدت بعد ذلك جماعات من النزارية فاستوطنت مناطق عديدة
في ارمينية ونزل فرع من بني قيس منطقة منازكرد وعاش فيها ، في حين
كان سكان الجزيرة وديار ربيعة وغيرهم يفدون الى تلك الاقاليم سعياً وراء
الرزق وبسطة العيش وهرباً من مناطق الخطر القريبة من الثغور ، حيث
الروم ، وصوائف العرب وشواتيهم ما تكاد تنقطع ابداً ...

حين استقرت الامور لأبي جعفر ، اتصل بامبراطور الروم واستفدى
منه الاسرى الذين اخذو من مدينة قاليقلا (ارزن الروم) وغيرها
(١٣٩ هـ ٧٥٦ م) واعاد بناء ما تهدم من هذه المدينة ورد اليها اهلها ،
وكذلك فعل مع اهل ملطية وكمخ وبقية البلدان الواقعة على حدود الروم
في المناطق الجزرية والشامية والارمينية ...

الخزر يبدأون غاراتهم

في عام (١٤١ هـ ٧٥٨ م) نكبت ارمينية بالخزر ، فقد اجتاز
الخاقان حدود الشمال على رأس جيش عظيم واعمل يد القتل والفتك في

سكان المدن الارمينية وحين حاول يزيد بن أسيد الوقوف في وجه الخاقان
اصيب بضربات شديدة ، وكاد الامر يفلت من يده ، فبادر الى طلب
العون من الخليفة الذي بعث اليه بنجدة من / ٢٠ / الف مقاتل من
اهل الشام والجزيرة والموصل وجعل عليهم جبرائيل بن يحيى ، الا ان
الخاقان واصل تقدمه بعد ان بطش بجيش جبرائيل هذا ، فسارع المنصور
الى نجدته بجيش آخر حتى انه اطلق المساجين من سجونهم في البلاد
القريبة من ارمينية وساقهم الى القتال فتمكنوا اخيراً من ايقاف تقدم الخزر
ثم ردوهم الى ما وراء الحدود ، وعمد المنصور بعد ذلك الى بناء عدة مدن
في الشمال وجعلها ثغوراً على الخزر ، واقام فيها قوات ثابتة للدفاع عنها .

في عام ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) ولى المنصور اخاه العباس بن محمد
الجزيرة والثغور وضم اليه عدداً من القواد وكلفه بغزو الروم ..

وفي عام ١٤٦ هـ (٧٦٣ م) أتم المنصور بناء مدينته بغداد ،ونقل
مركز الخلافة اليها ..

* * *

حين كان الخليفة المنصور منشغلا بالاحتفالات الكبيرة التي اقامها
بمناسبة نقل العاصمة الى مدينته الجميلة بغداد ، وبينما كان الناس يلهون
ويمرحون ، اجتاح ارمينية استرخان ملك خوارزم واعمل السيف في اهلها،
فقتل خلقاً كثيراً من المسلمين والذميين وسبى عدداً كبيراً من النساء
والاطفال ، واسرع جبرائيل بن يحيى للوقوف في وجه هذا الخطر الداهم
ولكنه مني بالهزيمة ، وجاءه حرب بن عبد الله الراوندي نجدة فقتل حرب
وهرب جبرائيل ...

يقول ابن الاثير (١) ان اهالي ارمينية قد اصيبوا ببلاء شديد من

١ — التاريخ الكامل لابن الاثير ج ٤ ص ٢٠٧ .

سيوف الخوازميين الذين توغلوا في المنطقة حتى مدينة تفليس وعاثوا فيها فساداً ، ووجه المنصور قائده الكبير الحسن بن قحطبة الطائي لمحاربة خوارزم ، وانقاذ البلاد من ايديهم ، فلما وصل الى ارمينية وجد ان استرخان قد عاد الى بلاده مع جيشه وبما حمله من سبى وغنائم ، فعاد الحسن الي بغداد ، ينقل الى المنصور ما حدث فولاه هذا أمرة البلاد ..

في عهد ولاية الحسن بن قحطبة قامت ثورة ارمينية ، كان قائدها هذه المرة احد بطارقة الارمن الاشداء،وتسميه المصادر العربية « موشائيل الارمني » ، كان موشائيل يهدف الى وحدة القاطعات الارمنية واعلان الاستقلال التام فالتفت حوله جموع كبيرة من ابناء الشعب فما لبث ان قويت شوكته واخذ يهدد الأمن والسلام في المنطقة كلها ..

بعث المنصور الى قائده الحسن بنجدة من الرجال والعتاد ، بعد ان ادرك خطورة الحركة والاضرار الفادحة التي ستحل بالمستوطنين العرب فيما لو كتب لها النجاح .. وكان على رأس الامدادات القائد عامر بن اسماعيل، وقد اشتبك الحسن مع البطريق الثائر في عدة معارك طاحنة ، استطاع في نهايتها ان يوقع به ، وأن يقتله ، فانفضت جموع الارمن الثائرة واستقامت الامور ..

قيل ان الحسن بن قحطبة قد قام بعدة اصلاحات هامة في البلاد ، فاليه ينسب نهر الحسن بالبيلقان والباغ الذي يعرف بباغ الحسن بمدينة برذعة ، والضياع المعروفة بالحسنية (١) ..

القبلية تطل برأسها

في زمن المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) والهادي

١ ــ فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٨٩

(١٦٩ - ٢٧٠ هـ ٧٨٥ - ٧٨٦ م) بدأت المنازعات القبلية بين المستوطنين العرب في كل من ارمينية واذربيجان واران ، ونظراً لبعد هذه المناطق عن حاضرة الدولة العربية ، ووعورة مسالكها وكثرة معاقلها ، فقد تغلب عدد من القادة والولاة على بعض مناطقها الجبلية الوعرة وتغلب آخرون على الحواضر ، في حين ان البطارقة الارمن الذين يحكمون منذ القديم المقاطعات النائية ويتمتع كل منهم بشيء من الاستقلال الذاتي ، استمروا على رأس مقاطعاتهم دون ان يطالبوا بشيء سوى الجزية ، وهذا هو حال ارمينية بوجه عام ، امارات مجزأة وقيادات متنوعة ، وهي وان كانت تدين في الظاهر بالطاعة الى اسرة حاكمة معينة ، سواء كانت هذه الاسرة من اهل البلاد ، او من الدولة المتغلبة ، فان السلطة الحقيقية هي بيد البطارقة والقادة المتغلبين والامراء ..

وكان من شأن هذا الوضع المضطرب ان قوى نوازع الطمع في نفوس القادة المغامرين وحفزهم على توسيع رقعة الارض التي بين ايديهم على حساب جيرانهم ، فكان من البديهي ان تنشب الحروب المحلية وتنشط المنازعات الاقليمية ، ويتلظى ابناء الشعب البسطاء وحدهم بالنار التي يشعلها اولئك القادة ...

ولكن ارمينية لم تعدم في يوم من الايام من رجال ابطال يدعون الى وحدتها التامة وكانت محاولات هؤلاء الرجال تحقق نجاحاً في بعض الاحيان ثم ما تلبث ان تنهار امام الخلافات التي يثيرها الطامعون منهم وتعود البلاد ثانية الى التمزق والانفصال ..

يصف البلاذري الحالة في ارمينية خلال تلك الفترة فيقول ان عامل الخليفة حين يصل الى الاقليم ليمارس سلطته لأول مرة فيها يسارع البطارقة والامراء المتغلبون الى عجم عودة وسبر اغوار نفسه ، فعلى ضوء شخصية

هذا الامير لا بد من انتهاج سياسة تتلاءم وما يتمتع به من قوة وصلابة ، او ضعف او تخاذل ، فاذا رأوا منه شدة سطـوة وقـوة بأس بادروا الى اعلان طاعتهم وقدموا له المبالغ المطلوبة من كل منهم باسم الجـزية اما اذا ظهر منه ما يدل على ضعف في الشخصية وجهل في المهمة التي يضطلع بها ، استخفوا شأنه وتهربوا من القيام بالتزاماتهم ، وقد يشقون عصا الطـاعة ويعلنون التمرد والعصيان على الخليفة (١) ...

جاء هرون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ ٧٧٦ ٨٠٩ م .) والحال في تلك المناطق على ما هي عليه ، فبعث بقائده خـزيمة بن خازم التميمي الى ارمينية ، فاقام فيها سنة وشهرين استطاع خلالها ان ينظم امورهـا ، ويقر الاوضاع فيها ، ثم جاء بعده يوسف بن راشد السلمي ، ورأى ان لا قبل له على مجابهة المستوطنين العرب والسكان المحليين هناك الا بالاعتماد على قومه ، فنقل جماعة كبيرة من النزارية ليضعهـا في مواجهة اليمانية التي قويت شوكتهـا في تلك الاصقاع ، وفي عهد يوسف هذا ، نظمت هجرة واسعة للنزارية حتى اصبحت تشكل قوة في ارمينية لهـا خطرها ، وبذلك استطاع يوسف ان يلين من عود اليمانية ويقوي نفوذه عليها ...

ولى الرشيد بعد ذلك فارس العروبة وبطلها العظيم يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني ارمينية ، ورأى يزيد ايضاً انه لكي يتمكن من بسط نفوذه على البلاد لا بد له من ان يتقوى بأهله ، فنقل الى ارمينية جمـاعة من بني ربيعة وتمكن بسيوفهم من ان يشدد قبضتـه ويحـسم الامور الخطيرة في المنطقة . .

بعد ان استتبت الامور عاد يزيد الى بغداد ليقيم الى جانب الرشيد

١ — فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٩٥

بوصفه واحـداً من اعظم القـادة العرب الذين يعتمد عليهم الخليـفة في حـكم البلاد . .

جاء بعده عبد الكبير بن عبد الحميد الخطاب العدوي الذي اتخذ من مدينة حران مقراً لولايته ، فلما قدم الى ارمينية ليشرف على تنظيم احوالها ، صحب معه جماعته من اهل مصر ، وبعد اربعة اشهر من مقامه هناك عزله الرشيد وولى مكانه الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي ، كما اسند اليه مع ارمينية ولاية كل من كـور الجبال وطبرستان ودنباوند وقوس واذربيجان . .

ولكن الامراء العرب المتغلبين على البلاد لم يرضوا ان يولى رجل فارسي عليهم ، فثاروا في وجهه ، وفي المعركة التي نشبت امام قلعة حمزين القريبة من باب الابواب مني الفضل بهزيمة منكرة وعاد جريدة الى العراق ، بعد ان استخلف على البلاد عمر بن ايوب الكناني ...

حين استقر الفضل في العراق واطمأن على حياته من سيوف العرب وجه ابا الصباح على خراج ارمينية وسعيد بن محمد الحراني اللاهي على حربها ، فلما وصل ابو الصباح الى برذعة وثب عليه اهلها وقتلوه ، وعلى الاثر اعلنت ارمينية العصيان ، وقد جاء هذا العصيان في اعقاب ثورة الخوارج التي تزعمها الوليد بن طريف الشاري التغلبي ...

★ ★ ★

كان الشاري قـد اعلن في عام ١٧٨ هـ (٧٩٤ م .) الثورة في ديار ربيعة واحتل مدينة نصيبين ثم اندفع نحو الشـمال فاخضع ارمينية وانضم اليه عدد كبير من بني ربيعة الذين كانوا قد استوطنوا ارمينية ايام ولاية يزيد بن يزيد الاولى ، وبعد ان تعاظمت قوته سار نحو الشـرق

فتوغل في اقليم اذربيجان وجبي الاموال منها ثم واصل زحفه نحـو الجنوب الشرقي حتى مدينة الرقة وبعد ذلك انحدر جنوباً على نهر الفرات تارة وعلى دجلة اخرى وهو يهزم الجيوش التي يبعث بها اليه الرشيد حتى بلغ مدينة « بلدة » الواقعة على بعد عدة فراسخ من بغداد ذاتها . .

اضطر الرشيد اخيراً الى الاستعانة بقائده الاعرابي (كما كان ينادي يزيد بن مزيد) وعهد اليه محاربة الوليد ، اعترض يزيد في البدء على هـــذا الاختيـار لان الوليد هـو من اهله ومن ابناء عشيرته ، وانه لا يجـوز ان تقاتل العشيرة العربية بعضها بعضاً ، الا ان الرشـــيد اصر على هذا الامر ، واضطر يزيد مرغماً الى تنفيذ امر الخليفة ، وبعد ســـلسلة من عمليـــات المناجزة والطراد استطاع ان يوقـع بالوليد ويقتله فبعث برأسـه مع ابنه اسد الى الرشيد مع كتاب الفتح [1] . . .

بعد ان انحسر ظل الخوارج عن ارمينية واستقرت الاوضاع العامة فيها ، اصدر الرشيد امره بتولية موسى بن عيسى الهاشمي الاقليم ، وقد لقي الناس على يدي هذا الامير صنوفاً من الوان الظلم والاضطهاد وانتشرت حركة من التذمر ثم ما لبثت ان ظهرت على شـكل عصيان . . .

بلغت تصرفات موسى وظلامه مسامع الرشيد فعزله وولى يحيى الحرشي مكانه ، ثم عزل الحرشي وولى احمد بن يزيد بن اسيد السلمي . . . ثم سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي .

---

١ — أعتبر المؤرخون العرب الوليـد بن طريف الشـاري التغلبي من اعظم قادة الخوارج الذين ثاروا ضد الحكومات الشـرعية في الدولة العربية ، وكان اتباعه يسمون انفسهم « الشراة » لصبرهم على القتال وجلدهم في الحرب ، وكان اوائلهم يقولون « انا شـــرينا انفسنا في سبيل الله (اي بعناها) بالجنة حين فارقنا الائمـة الجائرة واحلنا الحرب عليهـا » (ضحى الاســـلام ج / ١ / ص ٣٣٩).



بقايا جامع يشرف على اطلال مدينة آني شيد في عهد دولة بني شداد بين ٣٧٥ و ٤٠٩ هـ .

كاتدرائية القـديسة هوريبسيميه في ضواحي ايشميازين

الملك كاكيك الباقرادوني بملابسه الملكية آني حاملا بيده نموذج كاتدرائية



كنيسة ابو غامر واحدة من الكنائس الألف التي كانت تزدهي بها مدينة آني



في زمن ولاية سعيد هذا وقع الحادث التالي :

كان الفضل بن يحيى البرمكي امير الجزيرة قد رغب في الزواج من ابنة الخاقان ملك الخزر رغبة منه في اقامة علاقات المصاهرة بين الاسرة البرمكية الفارسية وبين شعب الخزر ، ووافق الخاقان على هذا الطلب تقرباً من بغداد ، ذلك لأن هذه المصاهرة تجعل طريق الخاقان الى العاصمة العباسية سالكة وآمنة . . .

سارع الخاقان الى تجهيز ابنته الحسناء ، ووجهها في موكب فخم تحرسه حامية من الطراخنة وفرسان الخزر الاشداء وقد حملهم كثيراً من التحف والهدايا ثم خرج لوداعهم حتى ظاهر المدينة . .

في الطريق عرج موكب الاميرة الخزرية على مدينة برذعة للاستراحة ، وفي صباح اليوم التالي وجدت الاميرة العروس في فراشها ميتة ..

اصيب الطراخنة بالذعر وهم يرون اميرتهم الحسناء جثة هامدة ، ولم يستطع احد ان يعرف السبب ، هل كان موتاً طبيعياً ، ام في الامر جريمة ؟...

عاد الطراخنة مسرعين وابلغوا الخاقان ما حدث ، وهمس بعضهم في اذنه من ان ابنته الاميرة قد قتلت غيلة على يد جماعة من اعداء البرامكة ، فاستشاط الوالد المفجوع غضباً واقسم على الانتقام والثأر لدم ابنته ، واخذ من يومه يستعد لغزو ارمينية ... فلما كان عام ١٨٣ هـ (٧٩٩ م) اجتاز الخاقان حدود بلاده من الدربند بعد ان احدث في تحصينات العرب الدفاعية ثلمة ، وانحدر جنوباً نحو ارمينية عاملاً السيف في رقاب الناس من مسلمين وذميين وغيرهم ...

قال ابن الاثير (١) ان مجموع السبي الذي استولى عليه خاقان الخزر بلغ مئة الف شخص من حسان النساء ومن الفتيان صحيحي الابدان، وانه عمد الى اشعال النيران في الغابات والاحراج والمزارع ، حتى اسود وجه السماء بالدخان ، واقبل على القرى والرساتيق يهدمها ويتلف ماويها ، اما من كتبت لهم السلامة فهم الذين لاذوا بالفرار قبل وصول الخاقان ودخلوا شعب الجبال والكهوف واحتموا فيها .

حاول سعيد بن سالم الوقوف في وجه هذا الزحف المدمر ، فلم يقو على ذلك واركن الى الفرار ، ووجد الخاقان ان البلاد قد غدت مفتوحة امامه ، ولم تعد ثمة مقاومة تذكر فامعن في الكيد والنكال ، وظل هكذا سبعين يوماً يقتل ويدمر ويحرق ويسبي ويجمع بين يديه ثروات البلاد وكنوزها وكل ما حوته معابدها .

احس هرون الرشيد وهو يتلقى انباء الخاقان المحزنة ان ما من احد يستطيع الوقوف في وجه هذا الرجل والتنكيل به سوى قائده «الاعرابي» يزيد بن مزيد الشيباني ، فعقد له على ولاية ارمينية واذربيجان ووجهه الى حرب الخاقان ...

استطاع يزيد ان يوقف زحف الخزر ، وان يردهم الى ما وراء حدود بلادهم وان يستخلص منهم الكثير مما وقع في ايديهم من سبي وغنائم ، ثم عهد الى سد الثلمه التي دخلوا منها واوكل عليها جماعة من المقاتلين الاشداء لحمايتها ..

اصبحت ارمينية واذربيجان واران منذ ذلك اليوم تحت امرة يزيد ، فكان ذلك مشجعاً لقبيلته بني ربيعة على الاستيطان في حواضر هذه الاقاليم..

١ — التاريخ الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٤٦٢

اتخذ يزيد من مدينة برذعة عاصمة لأمارته وخلال السنوات التي قضاها هناك ساد الامن ارجاء البلاد ، وعم الرخاء والازدهار ، كما نشطت حركة الهجرة والاستيطان بالنسبة الى مختلف القبائل العربية النازحة من الجنوب ، وبالنسبة كذلك الى ابناء المدن العربية من تجار وصناعيين وحرفيين ممن رأوا في هذه البلاد الغنية بثرواتها الطبيعية والصناعية مجالا للربح والاثراء فجاءوا اليها افراداً وجماعات واتخذوها وطناً وموئلاً ..

في احدى ليالي شتاء عام ١٨٥ هـ (٨٠١ م) الباردة تناول يزيد عشاءه مع ضيوفه وسمر مع صحبه في مجلسه ثم دخل بيت حرمه في دار الامارة ونام .. وفي الصباح عثر عليه ميتاً في فراشه اثر نوبة قلبية مفاجئة (١) . .

كان الرشيد مقيماً في قصر السلام بمدينة الرقة ، فلما بلغه نعي يزيد داهمه حزن شديد ، واعتبر موته خسارة كبرى للعرب ثم بعث الى ابنه اسد يطلب اليه ان يتولى جميع الاعمال التي كانت لوالده ...

مكث اسد بن يزيد في مركز امارته زمنا حتى مرت العاصفة التي اثارتها نكبة البرامكة فاستدعاه الخليفة الرشيد الى الرقة وضمه الى مجموعة قواده وارسله الى الثغور مجاهداً ..

في اواخر حكم الرشيد تحركت العصبية القبلية في الاقاليم الثلاثة ، ونشط اصحاب المطامع من الامراء والقادة العرب ، وكان في مقدمتهم يحيى بن سعيد الملقب كوكب الصباح الذي استولى على مناطق ارمينية واعلن استقلاله فيها ، وكذلك اسماعيل بن شعيب مولى مروان بن محمد الذي بسط نفوذه على مناطق اخرى واعلن انبعاث الحكم الاموي في اقصى الشمال من الدولة العربية .

١ — يزيد بن مزيد ص ٢٥٣

الامين واسد

تولى محمد الامين الخلافة بعد وفاة والده هرون الرشيد (١٩٣ – ١٩٨ هـ ٨٠٩ – ٨١٣ م) وفي عهده بدأ الصراع بين العرب والفرس يظهر بشكله السافر ، وكان من سوء حظ العرب انهم اختاروا جانب الامين الذي لم يقدر خطورة المرحلة التاريخية التي يجتازها الوطن فانصرف الى لهوه تاركاً لأخيه المأمون فرصة التحرك ضمن مخطط سياسي منظم . .

كان اول ما فعله الخليفة الجديد هو تقليده اسد بن يزيد ولاية ارمينية وندبه لسحق حركة الامراء المتغلبين فيها .

توجه اسد الى الاقليم واستطاع ان يبطش بالمتمردين ، وادخل عليه كلا من كوكب الصباح واسماعيل بن شعيب وهما يحجلان في قيود الاسر . فبادرا الى اعلان التوبة ، والبيعة للامين فاطلق سراحهما واعادهما الى مناطقهما بعد ان اخذ منهما الايمان الموثقة .

ولما استفحل الخلاف بين الامين والمأمون دعي اسد بن يزيد الى بغداد ليكون الى جانب الخليفة ، ولكنه اكتشف الحقيقة في هذه المرة ، وهاله الحال الذي عليه الامين ، وتأكد من ان السياسة الرعناء التي ينتهجها ستؤدي بأنصاره الى الموت والهلاك ، فرفض ان يقود جيشاً لمحاربة المأمون ، الا اذا ابعد الخليفة عن بلاطه جماعة المخنثين الخلعاء وحول المال الذي ينفقه بسخاء على هؤلاء الى الجيش والى الرجال الذين يضحون بارواحهم من اجل تثبيت العرش المهتز من تحته . . .

ثار الامين على اسد وامر بسجنه عقاباً له على رفضه اوامره ، وعقد لاسحق بن سليمان على ارمينية ووجهه اليها . . .

ظل اسحق في منصبه هذا حتى ساعة مصرع الامين وهنا اعلن العصيان ورفض البيعة للخليفة الجديد ، واعتصم داخل حدود الاقليم ، فبعث المأمون بقائده طاهر بن محمد الصنعاني فأوقع باسحق ، وألحق بجيشه الهزيمة ، واسر ابنه جعفر وارسله مكبلا بالاغلال الى بغداد مع عدد من جماعة اسحق ، فادخلوا جميعاً السجن . .

اصحاب الاعلام الحمراء

حين تولى عبد الله المأمون (الخلافة ١٩٨ – ٢١٨ هـ / ٨١٣ – ٨٣٣ م) اضطرب حبل الامن في جميع ارجاء البلاد ، وكانت ارمينية واذربيجان في طليعة الاقاليم التي واجهت حالة من الفوضى وعدم الاستقرار ، وكان مبعث ذلك سلوك الخليفة الجديد الظاهر التحيز ضد العرب ، واعتماده الكلي على العنصر الفارسي الذي اخذ ينشط في الدولة ، ويساهم في توجيه سياستها والتحكم بمصيرها .

ثارت القبائل العربية في الاقليمين المذكورين ، فاعلن عبد الملك بن الجحاف السلمي العصيان ووثب مع اهل البيلقان على طاهر الصنعاني الذي كان يقيم في برذعة ، فتحصن طاهر داخل المدينة واحاط رجال عبد الله باسوارها ، وقد استمر هذا الحصار عدة اشهر دون ان يظفر احد الفريقين بخصمه .

ارسل المأمون قائده سليمان بن احمد بن سليمان الهاشمي في قوة كبيرة من الجند ، ففك الحصار عن طاهر وبعث به الى بغداد ، ثم فاوض عبد الملك ورغّبه في السلم ثم اعطاه الامان ولم تكد تخمد حركة عبد الملك حتى وقعت حرب اهلية بين المعتزلة والجماعة العصبية [1] في ارمينية واختل حبل الامن في البلاد من جديد فبعث المأمون بالقائد حاتم

١ — كما يسميها اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٢

بن هرثمه بن اعين لاعادة الامن الى البلاد التي كانت تشهد مجزرة دموية رهيبة بين فئتين كبيرتين كل منها متعصبة لرأيها وتحاول افناء خصومها . .

استطاع حاتم ان يزيل اسباب العداوة وان يعقد الصلح بينهما ، وبعد ايام قلائل جاءه خبر مصرع والده هرثمة ، فثار هو الآخر على الظلم الذي وقع على والده وغضب للدم الذي سفك هدراً فاعلن الثورة على المأمون ، وغادر برذعة متوجهاً مع مجموعة كبيرة من قواته ، الى مكان يسمى « كسال » فوجد معقلاً حصيناً فابتنى في اعلاه قلعة نزل فيها ، واخذ في توجيه الكتب الى بطارقة الارمن في المقاطعات الجبلية يحرضهم فيها على العصيان ويضع سيفه في خدمة اهدافهم الوطنية . وهكذا تحول حاتم من قائد يفرض النظام الى متمرد يدعو الى تحدي النظام .

رأى بطارقة الارمن في دعوة حاتم بادرة مشجعة للانقضاض على الحاميات العربية في البلاد واعلان انفصالهم عن بغداد . .

وما لبثت الاقاليم الثلاثة ان القت رداء المسالمة والطاعة واعلنت العصيان .

في غمرة هذه الاحداث ظهرت الحركة الخرمية التي تزعمها بابك الخرمي (٢٠١ هـ - ٨١٦ م) [1] .

اتصل حاتم ببابك وعرض عليه مساعدته وتقديم المعونات العسكرية اليه ، ليقوي بذلك من عزيمته ويشجعه على المضي في ثورته ويدفعه الى

—— ١ كان منطاق الثورة الخرمية في كورة البذ الواقعة على الحدود بين اذربيجان واران ، وقد انضم اليها في البدء جماعات كبيرة من ابناء الاقليم الجبلي الواسع الذي يمتد بين اذربيجان والديلم الى همذان والدينور ، وكان رجال بابك يسمون ايضاً المحمرة لأنهم كانوا يرفعون الاعلام الحمراء ويلبسون الثياب الحمراء تميزاً لهم عن اصحاب المذاهب الاخرى .

الخروج من معاقله والتوسع في فتوحاته وتأسيس الدولة الخرمية العتيدة التي يبشر بها .

استغل بابك هذه الدعوة واقتحم بقواته اذربيجان [1] فتغلب عليه ورفع فوق روابيه اعلامه الحمراء .

اخذت نيران الثورة تتسع وتمتد في كل من اران واذربيجان وارمينية ، واقبل الرجال من مغامرين وطامحين ومرتزقة وعيارين يعلنون انضمامهم الى حركة بابك ويرتدون الملابس الحمراء ويضعون سيوفهم في خدمة الدعوة التي يجاهر بها الخرمي . . .

اكتوت ارمينية بنار هذه الحركة ، لا سيما سكان الحواضر من ارمن وهاجرين (عرب) واجناس اخرى ، بعد ان اختل حبل الامن وسادت الفوضى ارجاء الاقليم ، نظراً لانشغال جميع الحاميات العربية في حرب بابك ومحاولة سحق حركته التي ما تزال تزداد شدة وتفاقماً . .

وجه المأمون يحيى بن معاذ بن سلمة مولى بني ذهل الى اذربيجان وارمينية لمحاربة بابك والقضاء عليه واعادة الامن والاستقرار الى الاقليمين المضطربين ، ولكن يحيى واجه الهزيمة والكسرة امام قوات بابك ، فوجه المأمون عيسى بن محمد بن ابي خالد القائد المحارب ، فلاقى عيسى على يد بابك المصير الذي لاقاه يحيى ، الا انه استطاع آخر الامر ان يفلت من يد قوات بابك ويبلغ ارمينية فحارب سوادة بن عبد الحميد الجحافي الذي سبق ان اعلن العصيان واستقل بالاقليم ، فأوقع به ، وبطش بقواته ، وتسلم مهام عمله اميراً على ارمينية . .

كلف المأمون القائد علي بن صدقة المعروف باسم زريق (٢٠٩ هـ ٨٢٤ م) بمحاربة بابك على ان يتولى بعد الانتهاء منه امارة اذربيجان

١ —— تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٢

وارمينية . . . خرج زريق من بغداد على رأس جيش كبير ، وقد بيت في نفسه امراً خيل اليه انه سيجني منه ربحاً عظيماً ، فبعث بأحد قادته (احمد بن الجنيد الاسكافي) على رأس عدة سرايا من الجيش وكلفه بفض جموع بابك وقطع رأسه مع افراد عصابته والعودة سريعاً ومعه رؤوس العصاة ، وكان الذي حدث ان الاسكافي نفسه وقع في اسر بابك وان سيوف الخرمية هي التي اطاحت برؤوس معظم افراد السرايا التي صحبت الاسكافي ، وبدلاً من ان يثني زريق بهجوم ساحق ينتقم فيه لقائده الاسير وللدماء التي سفكت من جنده ، انحدر نحو الموصل فقتل اميرها السيد بن انس الازدي واعلن استقلاله فيها .

كلف المأمون قائده محمد بن حميد الطوسي بتأديب زريق ومحاربة بابك ، فاوقع الطوسي بزريق وبعث به الى المأمون يحجل باغلال الاسر ، ثم دخل ارمينية عن طريق الموصل وقضى على حركات التمرد التي نشطت فيها ، ولما تم له ذلك تقدم لمحاربة بابك ، وكان هدفه هذه المرة منطقة البذ حيث مركز الحركة الخرمية ، واستطاع الطوسي ان يحقق النصر في جميع المعارك التي خاضها حتى استطاع ان يفت من عضد الخرميين ، ويدفعهم الى ما وراء حصونهم الاساسية ومعاقلهم في الجبال . .

وذات يوم بينما كان محمد الطوسي في نفر قليل من جنده يقوم باحدى الغارات الاستطلاعية اغلق عليه جماعة من الخرمية منافذ احد الشعاب وضيقوا عليه الحصار ثم رماه احدهم بسهم مسموم فقتله وكان ذلك في مطلع عام ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) .

بعد مصرع الطوسي ولى المأمون عبد الله بن طاهر كور الجبال وارمينية واذربيجان ، فتوجه عبد الله الى الدينور ، وجعلها قاعدة لامارته ، ثم كتب الى المهدي بن اصرم الذي تولى قيادة الجيش العربي خلفاً لمحمد الطوسي

كما كتب الى محمد بن يوسف وعبد الرحمن بن حبيب ، وهما من قواد جيش الطوسي ومساعدي المهدي ، يطلب اليهما البقاء في مراكزهما .

ولم يفعل عبد الله بن طاهر اكثر من هذا ، ذلك لانه لم يكن راغباً في حرب بابك ، بل لم يكن يريد ان يشهد معركة واحدة ، وان ما كان يبتغيه حقاً هو تولية البلدان ، والتنعم بملاذ الامارة . .

نقل المأمون ابن طاهر الى خراسان وولى ابن هشام اذربيجان ومحاربة بابك ، كما ولى عبد الاعلى بن احمد بن يزيد بن اسيد السلمي ارمينية .

حين وصل عبد الاعلى الى ارمينية ليباشر مهام عمله الجديد ، اضطر الى الدخول في معركة مع محمد بن عتاب الذي كان قد تغلب على جرزان وضم اليه الصنارية ، وانجلت المعركة عن هزيمة عبد الاعلى .

رأي المأمون انه لابد من ندب قائد بطل قوي الشكيمة شديد المراس فلم يجد عنده غير خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، فكلفه بهذه المهمة .

كان اول شيء فعله خالد ، هو اخراجه ابناء عشيرته من سجون العراق ، بالاتفاق مع الخليفة ، وضمهم الى جيشه ، ثم توجه الى الجزيرة فالتف حوله خلق كثير من ابناء ربيعة ودخلوا جميعاً ارمينية .

وصل خالد الى مدينة خلاط فخرج اليه اميرها سوادة بن عبدالحميد الجحافي بالامان فأمنه ، ثم سار الى النشوى وكان المتغلب عليها يزيد بن حصن مولى بني محارب ، فلما اقترب خالد من المدينة خرج منها يزيد هارباً وتوارى عن الانظار .

تابع خالد طريقه الى حصن كسال الذي سبق ان بناه حاتم بن

هرثمة واعتصم فيه ، فدخله ، واستدعى اليه محمد بن عتاب الذي بطش
بجيش عبد الاعلى ، ورأى ابن عتاب انه مجبر على الامتثال لأمر خالد ، لانه مثل
غيره من الامراء يعرف شدة بطش هذا القائد العربي وقوة شكيمته ،
فاقبل عليه طالباً الامان ، معتذراً عما صدر عنه من افعال ، فامنه خالد
ثم سأله عن حال الصنارية الذين حاربوا عبد الاعلى الى جانبه فقال انهم
بعد تلك الموقعة قد خرجوا عن طاعته ، فزحف اليهم خالد ، وكانوا قد
تحصنوا في اقليم جرزان فواقعهم والحق بهم الهزيمة ، ثم دعاهم الى الصلح
فوافقوا على ان يدفعوا ثلاثة آلاف رمكة وعشرين الف شلة (1) وبعد ان
رفع السيف عنهم عادوا فلموا شعثهم وانضم اليهم جماعة من بني قيس الذين
كانوا يحقدون على عشيرة خالد ، فكانت وقعة بين الفريقين ، وكان النصر
فيها لخالد . . .

كان بين الرجال الذين وقعوا في اسر خالد ، الامير علي بن يحيى
الارمني ، وهو من مواليد ارمينية ، رأى خالد في ابن يحيى ملامح القوة
والنجابة فبعث به الى بغداد ، وهناك دخل علي في طاعة الخليفة وانضم
الى الجيش الذي كان يقوده محمد المعتصم ... وكان هذا بدء ظهور هذا
القائد البطل واسهامه في مسيرة حركة التاريخ العربي .

بعد ان انتهى خالد من اخضاع ارمينية عاد الى بغداد ، وانضم
بدوره الى جيش محمد المعتصم . . .

ولى المأمون عبد الله بن مصاد الاسدي ارمينية ، الا ان الاسدي
لم يعمر طويلاً فقد وافته المنية بعد ايام ، فولى الخليفة مكان ابنه علي ،
الا ان هذا لم يحسن ادارة البلاد وامعن في الاساءة الى السكان ،
والاضرار بهم ، فاضطرب حبل الامن واطلت الفتنة بوجهها البشع ، فسارع

١ — تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٤

المأمون الى عزله وتولية الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالمأموني . .

اتخذ الحسن بن علي سياسة اللين والموادعة بالنسبة الى البطارقة
والامراء المتغلبين ، كما حاول ان يقيم العدل بين الناس وان لا يفرق بين
سيد ومسود ، ورفيع ووضيع ، وابيض واسود ، فامتدح الناس له هذه
السياسة الحكيمة الراشدة ..

ولكن اللين اذا لم يصاحبه قوة ورهبة ، والمهادنة اذا لم يواكبها حزم
وشدة ، فانها تغدوان ظاهرة ضعف وخور واستسلام ..

وهكذا كان الحال بالنسبة الى الامير الحسن بن علي فقد استغل
عدد من البطارقة والامراء المتغلبين ضعف الامير وجنوحه للسلم والمهادنة ،
فوثب اسحق بن اسماعيل بن شعيب مولى بني امية على جرزان واستولى
عليها كما اعلن عدد من المذكورين استقلالهم في المناطق التي يتزعمونها ..
ومات المأمون ..

الافشين يطوي اعلام الخرمية

حين ولي ابو اسحق محمد المعتصم الخلافة (٢١٨ - ٢٢٣ هـ
٨٣٣ - ٨٤٢ م) كان اول ما فعله هو ان اقصى عنه العرب والفرس
واعتمد جيشاً من الاتراك متأثراً بذلك بامه التركية الاصل ، وكان قد
جلبهم مما وراء النهر ، وانشأ الى جانبهم جيشاً من المغاربة الاشداء الذين
استقدمهم من اليمن ومصر وشمال افريقيا ، واسقط اسماء العرب والفرس
من ديوان الجند ولم يبق في بلاطه من رجالات العرب غير بعض القادة
الذين يقاتلون بقبائلهم المتطوعة وفي مقدمتهم خالد بن يزيد الشيباني الابن
الاصغر ليزيد بن مزيد ، وكان اخواه اسد ومحمد قد توفيا في زمن خلافة
المأمون بعد ان اقصيا عن الجيش .

كان عهد المعتصم بمثابة انعطاف حاد في مسيرة التاريخ العربي بوجه عام وتاريخ الخلافة العباسية بوجه خاص ، فان العنصر التركي بدأ منذ ذلك التاريخ يتدخل في شؤون البلاد ، ويفرض سيطرته على الشعب أولا ، ثم وسع من نطاق هذه السيطرة حتى شملت الخلفاء انفسهم .

في العام الأول من تولي المعتصم الخلافة اراد ان يحسم الأمر فيما يتعلق بحركة بابك الخرمي فوجه القائد اسحق بن ابراهيم بن مصعب لحربه بعد ان عقد له على الجبال ، ومضى اسحاق يجتاح المناطق التي يسيطر عليها الخرميون يقتل ويأسر ويدمر ويحرق ، وكان من الرجال الشديدي البأس ، فانحسرت امامه الموجات الحمراء ، وانكمشت على نفسها في اقصى الجبال ، وقيل انه قتل في هذه الحملة ما يزيد عن ٦٠ الفاً من انصار بابك من أهل الجبال في همذان واصبهان وماسبذان وغيرهم ، فلما رأى الناس ما حل بهم ، ولاحت امام اعينهم بوادر الهزيمة الساحقة ، جمعوا فلولهم وتوجه عدد كبير منهم (١) الى بلاد الروم وكان على رأسهم القائد الفارسي نصر (٢) وفي القسطنطينية اعلنوا للامبراطور تيوفيل خضوعهم له ففرح الامبراطور بهم وجعلهم من رعايا بيزنطة وسمح لهم بالتزوج من روميات ثم اوكل اليهم العمل مع الجيش البيزنطي وشن الغارات على العرب .

في عام ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) عقد المعتصم لقائده الافشين حيدر بن كاوس التركي على الجبال واذربيجان وارمينية واران ، ووجهه لحرب بابك والعمل على وأد حركته .

وكان لا بد للافشين ان يحقق سيطرته اولا على الاقاليم التي يتولاها ، فبعث الى ارمينية بمحمد بن سليمان الازدي السمرقندي نائباً عنه ، وهناك

١ — تقدره بعض المصادر التاريخية بمئة الف مقاتل .

٢ — تسميه المصادر اليونانية « تيوفوب »

وثب عليه أسحق بن اسماعيل الذي كان قد تغلب على جرزان ، كما وثب عليه الامير سهل بن سنباط بطريق الارمن في المنطقة فأعلن العصيان وتحصن في مدينة ورثان ...

حين تلقى الافشين انباء هزيمة السمرقندي وجه احد قادته الاتراك ويدعى منكجور لحرب محمد الورثاني ، وكادت الدائرة تدور على الاخير ، ويقع بين يدي منكجور اسيرا لولا تدخل الامير ابو الحسن علي بن يحيى الارمني وشفاعته عند الخليفة المعتصم ، ونظراً للمكانة الكبيرة التي كان يحتلها الامير علي في قلب المعتصم ، فقد قبل شفاعته واستدعى اليه محمد الورثاني وامنه وجعله من رجاله .

وجه الافشين ، وهو في طريقه لمحاربة بابك محمد بن خالد بخارخذاه لاقرار الامور في ارمينية ، فلما وصل اليها بدأ بمحاربة الصنارية وانتهى الى تفليس وكان الافشين قد انشغل في مناجزة بابك عدوه الرهيب، وسد المنافذ في وجهه والعمل بتؤدة في تضييق الحصار حوله ثم اسدال الستار الاخير على هذه الحركة التي عاثت في المنطقة طوال عشرين عاماً .

* * *

لا بد من ان نتوقف قليلاً عند الساعات الاخيرة لمعركة الافشين مع الخرمية ، ذلك لأن هذه المعركة تتصل اتصالاً مباشراً بمسيرة التاريخ في اقليم ارمينية نفسه بل تكاد تحدث أثراً بارزاً في هذه المسيرة ..

استمرت الحملة التي شنها الافشين على الخرمية مدة عامين ، بدأت عام ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) وانتهت عام ٢٢٢ هجرية .

حين رأى بابك ان حركته توشك ان تندحر ، وانه هو نفسه يوشك على الهلاك ، بعد ان حاصره الافشين في آخر معقل من معاقله ،

وهو حصن البذ المنيع ، اراد ان يطلق آخر سهم في جعبته ، فبعث الى الامبراطور تيوفيل يقول له ان عدوه المعتصم قد عبأ جميع قواته وسيرها لحربه ، وان حدود البلاد مفتوحة امام الروم ، وان الامبراطور باستطاعته ان يدخل بلاد العرب ويقتل ويسبي ويدمر ويهلك دون ان يصادف في طريقه اية مقاومة تذكر ، ومبالغة في التأثير على الامبراطور تظاهر بابك بانه مسيحي ويدين بالنصرانية [1] ووعد بأن ينصر اتباعه اذا جاءوا..

سارع الامبراطور لاغتنام هذه الفرصة ، فعبأ جيوشه وهاجم الثغور العربية بقوات تقدرها المصادر التاريخية بمئة الف رجل ، تضم البلغار والسلاف والفرس من اتباع بابك الذين سبق ان لجأوا الى الروم مع قائدهم نصر .

استطاع تيوفيل في هذه الحملة ان يدمر حصن زبطرة المنيع ، ومن بين آلاف النساء العربيات اللواتي اقتادهم الروم سبايا انطلق صوت تلك المرأة العربية تستغيث « وامعتصماه .. وامعتصماه ... » فتبلغ استغاثاتها مسامع المعتصم ، وتكون سبباً ـ كما يقول الكثير من المؤرخين ـ في حملته الكبرى على بلاد الروم وتدميره عمورية ..

اما تيوفيل فانه بعد ان انتهى من أمر زبطرة توجه الى شمال الفرات لعبور الاراضي الارمينية والانتقال منها الى اذربيجان والانضمام الى بابك في محاولة لانقاذه ونجدته .

ارسل تيوفيل الى بطارقة ارمينية وامرائها مطالباً بالجزية فاذعنوا له جميعاً وقدموا لرسله الاموال التي فرضها عليهم وتعهدوا بتأمين سلامة جيشه اثناء عبوره البلاد وتقديم جميع الخدمات المتوجبة عليهم لذلك ...

---

١ ـ العرب والروم ص ١٢٤

قبل ان يبدأ تيوفيل مسيرته اراد ان يدمر جميع العواصم والثغور الواقعة على حدود بلاده ليضمن خطة التراجع ، وكان يحسب ان بابك يستطيع ان يثبت بضعة ايام اخرى ريثما يوافيه بجنده .

بعد ان انتهى تيوفيل من زبطرة توجه الى شمشاط فقوض اركانها وطمس معالمها ، وحولها الى كتلة من رماد ... اما ملطية فانها سارعت الى الاستسلام وفتحت له ابوابها ، واطلقت من فيها من اسرى الروم ...واطلق رجال تيوفيل وجماعة نصر ايديهم في المدينة فكانوا يحرقون البيوت باصحابها ويقتلون الذكور من الناس ويبقرون بطون الحبالى ويذبحون الاطفال في حجر امهاتهم ، كل هذا كان يجري في الثغور والافشين يشدد الحصار على بابك ويمضي باتجاه هدفه خطوة خطوة .

اما ارمينية فانها عاشت لحظة هي من اخطر لحظاتها التاريخية ، وكان الناس في حالة من القلق والذعر ، والخوف من المستقبل الذي يبدو شديد القتامة .

ترى ماذا يحمل الغد ؟ . . هل ينجح تيوفيل في الوصول الى اذربيجان وينقذ بابك ويبطش بجيش الافشين الذي يعتبر جيش الدولة العربية الرئيسي ؟.. ان هزيمة الافشين تعني ان طريق بغداد اصبحت مفتوحة امام جيش الامبراطور وعند ذلك لن تسقط ارمينية وحدها بل ستسقط الدولة العربية بأسرها ...

ام يتأخر جيش تيوفيل عن نجدة حليفه فيبطش الافشين بعدوه ، ثم يتحول الى جيش تيوفيل نفسه ويثأر للمذابح الوحشية التي وقعت على الحدود ؟ ...

وصحى الناس يوماً على نبأ يقول ان بابك قد خسر المعركة ووقع في اسر الافشين ، واقتيد الى العاصمة ليمثل امام الخليفة وينفذ فيه حكم الموت ..

حين علم تيوفيل بما حدث لحليفه بابك قنع بما حققه من انتصار وقفل راجعاً الى بلاده ، فدخل عاصمة ملكه في موكب رائع ، وصف بأنه كان من اعظم مواكب النصر في التاريخ ، وقد مشى امام الموكب آلاف الاسرى العرب من فتيان وبنات وصبايا حسان .

* * *

الآن ، وقد سقط بابك وعلق رأسه على خشبة العصاة الموضوعة على احد ابواب مدينة سرمن رأى (سامراء) عاصمة الخلافة الجديدة فان الوقت قد حان ليرد المعتصم لعدوه الامبراطور الضربة باشد منها ، فكانت حملته المشهورة التي انتهت بفتح عمورية وتدميرها وقد اعتبرها المؤرخون اكبر ضربة وجهت الى الاسرة الحاكمة في بيزنطة لأن عمورية هي مسقط رأس هذه الاسرة والمدينة التي يجلها ويحترمها جميع الروم ..

قيل ان المعتصم امضى عدة سنوات باحثاً عن تلك المرأة العربية (الزبطرية) التي اطلقت تلك الاستغاثة الملوعة ، ولكنه لم يتمكن من العثور عليها ، وقيل انها ذبحت في ذلك اليوم على يد رجال نصر الذين فعلوا الاعاجيب في المدينة الشهيدة .

* * *

ظل الافشين حيدر بن كاوس متقلداً أمارة اذربيجان وارمينية واران بعد سحقه الحركة الخرمية ومقتل بابك ، فولى قريبه منكجور القائد التركي اقليم اذربيجان ، كما وجه الى ارمينية عدداً من الامراء الخاملي الذكر لكي يقوموا بجباية الجزية والخراج ، وفرض نوع من الاتاوة على الاهالي باسم هدايا للافشين القائد المظفر ، وكانت هذه الاموال تذهب الى منكجور المقيم باردبيل وهذا بدوره يبعث بها الى اشروسنة بلد الافشين وموطنه الاول .

في عام ٢٢٥ هـ (٨٣٩ م) غضب المعتصم على قائده الكبير بعد حادث هرب منكجور بالثروة الكبيرة التي اكتشفها سرا فى مقر قيادة بابك ، وبعد حركة المازيار واسره وافتضاح سر الافشين على يد جماعته .

وضع الخليفة يده على جميع الاقاليم التي كان قد عهد بها الى الافشين ، ومن بينها ارمينية ، وكانت الاخيرة قد استغلت الاوضاع المتردية في سامراء فاعلنت العصيان وامتنع عدد من البطارقة عن دفع الجزية واعتبر كل منهم نفسه مستقلا داخل حدود بلاده الصغيرة ، وانه لم يعد ثمة ما يربطه بالعاصمة العربية الكبرى . .

امام هذه التطورات الخطيرة التي نشأت في البلاد ، استدعى المعتصم قائده العربي خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وعقد له على ولاية ارمينية مضافاً اليها المناطق التي يقيم فيها أهله وابناء عشيرته في ديار ربيعة وندبه لقمع حركات العصيان فيها . . وما كاد نبأ هذا التعيين ينتشر في ارمينية حتى اجتاحتها موجة من الرعب والهلع ذلك لأن الناس هناك يعرفون الكثير عن خالد وعن شدة بطشه وقوة شكيمته . وهرع البطارقة والامراء المتغلبون الى منصور بن عيسى السبيعي صاحب بريد ارمينية يناشدونه العمل على اقصاء هذا الرجل عن البلاد ، فكتب السبيعي الى الخليفة يخبره بالامر ، ويؤكد له بان الوضع في الاقليم بعد تلك الاحداث الدامية لا يتطلب وجود قائد شديد الحزم مثل خالد ، وان الناس بحاجة الى ولاة يتصفون باللين والمهادنة وحسن السياسة ... "

اقتنع الخليفة بما جاء في كتاب السبيعي ورد خالداً عن البلاد ، وعقد لعلي بن الحسين بن سباع القيسي ، فلما وصل هذا الى برذعة اقبل عليه الجند يطالبونه بارزاقهم ، لاسيما وان الولاة السابقين كانوا قد قبضوا عنهم هذه الارزاق ودفعوها الى منكجور بامر الافشين ، ولكن ، من اين

لعلي ان يجيء بالمال ، وهو ما يزال حديث عهد بالولاية ، ولما حاول تحصيلها من اهل البلد ، ثار هؤلاء في وجهه ورفضوا طاعته ، لقد دفعوا بدورهم الكثير من الضرائب والاموال في عهد الاشروسني ، وليس من العدل ان يدفعوا هذه الاموال ثانية للقيسي ، واسقط بيد الرجل ورفع امره الى الخليفة ، فامر بعزله وولى مكانه حمدويه بن علي بن الفضل ولكن حال الاخير لم يكن باحسن من حال من سبقه ..

أوضاع متأرجحة

حين مات المعتصم اعلنت ارمينية العصيان وتحرك من فيها من قبائل العرب وبطارقة الارمن والقادة المتغلبين واستقل كل منهم في مقاطعته وامتنع عن دفع الجزية مهدداً بقتال كل من يحاول الانتقاص من سيادته ..

فلما تولى الواثق بالله هرون بن المعتصم الخلافة (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ ٨٤٢ - ٨٤٧ م) عقد لخالد بن يزيد بن مزيد على ولاية ارمينية وضم اليه ناحية ديار ربيعة وامره بالتوجه حالا لاقرار الوضع في البلاد ، فلما بلغ المتمردون والعصاة نبأ تولية خالد كتبوا الى الواثق يؤكدون بانهم ما يزالون على الطاعة ، وبعثوا الى خالد وهو في طريقه اليهم بالكثير من الهدايا ، الا ان خالداً رفض ان يقبل اية هدية ، وقال للذين قدموا عليه بها ، انه لا يقبل هدية الا من يد صاحبها ، فلما بلغهم ذلك ، شعروا بأن ابن يزيد القائد الاعرابي يبيت لهم امراً خطيراً ...

حين وصل خالد الى ارمينية كتب الى اسحق بن اسماعيل الذي كان ما يزال متغلبا على منطقة جرزان يأمره بالمثول بين يديه ، فخشي اسحق ورفض تنفيذ امر خالد ، فامر هذا جيشه بالزحف نحو جرزان ، وحين بلغ الجيش مشارف مدينة دبيل داهم المرض خالدا ، وبعد

ايام فارق الحياة فحمل في تابوت ودفن في المدينة المذكورة بموكب حافل ، وكان ذلك عام ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) وهكذا شاء القدر ان يموت خالد في ارمينية ويدفن في مكان قريب من برذعة البلد الذي دفن فيه والده فارس بني شيبان يزيد بن مزيد ..

على اثر وفاة خالد تفرق اصحابه من بني ربيعة الذين هم بمثابة مركز القوة والصلابة في جيشه ، فبسيوفهم كان يضرب ، وبشجاعتهم الفائقة كان يحقق النصر بعد النصر ، فلما مات وتفرق الرجال ، نضى المتمردون والعصاة عن اكتافهم ثوب المسالمة والخضوع وعادوا الى سيرتهم الاولى ، فبعث الخليفة الى محمد بن خالد الذي ظل في دبيل يقضي فيها ايام حزنه بجانب قبر ابيه ، فولاه ارمينية وعهد اليه بتنفيذ الخطة التي وضعها والده البطل ..

تلفت محمد حوله فلم يجد اثراً لاصحاب ابيه بعد ان توجه كل منهم الى مواضع سكن قبيلته وافراد عشيرته ، ولما كان محمد كأبيه واعمامه وجده يزيد لا يستطيع ان يدخل معركة ضد عدو الا بسيوف ابناء قومه من بني وائل وشيبان وتغلب وربيعة فقد كتب الى الخليفة الواثق يطلب اليه رد اصحاب ابيه اليه .. وامر الواثق من رجع من الرجال بالعودة ، مهددا من يمتنع منهم بالويل ، فعادوا جميعاً ، وهنا واصل محمد الحملة التي بدأها والده ، فحارب اسحق بن اسماعيل واعوانه من الصنارية فهزمهم ، واعاد الامور في البلاد الى مجراها الطبيعي وقبض بيد من حديد على السلطة فساد الامن والاستقرار ، وانصرف الناس الى اعمالهم مطمئنين على ارواحهم واموالهم وبيوتهم ...

بعد عامين أي في عام ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) مات الواثق ، وطويت بموته صفحة زاهية من تاريخ الخلافة العباسية ...

في العصر العباسي الثاني

اعتبر المؤرخون العرب خلافـــة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م) بداية عهد التفكك والاضمحلال بالنسبة الى الخلافة العباسية ، بعد ان غدت الدولة العربية كلها فريسة سهلة المنال بيد عدد من كبار القادة الاتراك الذين جاء بهم المعتصم ليكـــونوا سيوفاً يشهرها ضد اعدائه ، والخارجين عليه ، فاذا بهم في عهـد المتوكل قد تحولوا الى سيوف تعمل في سبيـل تحقيـق اطماع اصحابهـــا ، وهي مشهرة دائمـــاً ، في وجه كل من يقف ضد هذه الاطماع حتى ولو كان الخليفة نفسه ..

بعد اعوام قلائل من تولية المتوكل الخـــلافة أي في عام ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م) عقد البيعة لأبنائه الثلاثة الأول محمد واطلق عليه لقب المنتصر والثاني الزبير ولقبه بالمعتز والثالث ابراهيم واسماه المؤيـد ، وكانت ارمينيـة واذربيجان واعمال فارس وخراسان من نصيب المعتز الفتى الوسيم ابن الجارية الرومية الفائقة الجمال التي كان المتوكل يتعشقها ولا يستطيع مفارقتها حتى انه اطلق عليها اسم قبيحة من قبيل تسمية الشيء بضده ..

منذ ذلك التاريخ انقسمت البلاد الى احزاب وعصبيـــات وشيع

وأقبل الرجال المغامرون أصحاب المطامع يلتفون حول هذا الابن وحول ذاك وكل منهم يسعى لدى صاحبه ويوغر صدره على اخويه ويدفعه الى الاستئثار بالخلافة لنفسه ، حتى رأينا المنتصر يقدم على قتل ابيه المتوكل بالاتفاق مع جماعة من الاتراك وعلى رأسهم بغا الشرابي ، وينتزع السلطة من اخويه ويلقي بالخلافه كلها وبالدولة بين يدي هؤلاء القادة الذين ارتكبوا باسمه هذه الجريمة البشعة . .

والمتوكل هو الذي وضع للخلفاء الذين تبعوه مبدأ القبض على الوزراء وكبار رجال الدولة ومصادرة اموالهم واملاكهم او ارغامهم عن طريق التنكيل والتعذيب على دفع قدر كبير من مال يفتدون به انفسهم ، وقد ادى هذا الامر الى تفشي اعمال الابتزاز والتهديد والرشوة ، واصبح الناس المقربون من الخليفة يحصلون على اموال طائلة رشوة من الرجال الطامحين الى المناصب والى الثروات ، فلا يلبث الخليفة ان يوليهم المناصب التي طلبوها دون ان تكون لهم فيها اية دراية او خبرة . . .

والامثلة على ذلك كثيرة ، ولكن ليس هنا مجال تعدادها . . .

الاعاصير تزحف

في عام ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) تمكن بغا الشرابي وهو من القادة الاتراك ان يوقع بالثأر محمد بن البعيث الذي هرب الى اذربيجان واعتصم فيها ، فولاه المتوكل اذربيجان وارمينية ، وعهد بغا الى ابنه « فارس » بولاية هذه الاقاليم نيابة عنه . . .

كان المتوكل قد استقدم اليه محمد بن خالد الشيباني ليكون الى جانبه في سامراء ، فخلت ارمينية من قائد حازم يعرف كيف يسوسها ويبسط نفوذه عليها فما لبثت حركات التمرد ان نشطت من جديد ، ولكن

الامر ما كان يعني بغا الشرابي ولا ابنه فارس ، حتى ولا المعتز الامير المدلل الذي يعتبر الملك غير المتوج على هذه الولاية . .

جاءت سنة ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م وقد تفاقمت الامور في ارمينية ، واخذت الرياح تهب قوية عاتية ، ورأى فارس ان يحسم هذا الامر ، فعقد لأبي سعيد محمد بن يوسف المروزي وهو مولى طيء على اذربيجان وارمينية ، وغادر ابو سعيد سامراء متوجهاً الى مقر ولايته وفي الطريق نزل في موضع يسمى كرخ فيروز ، وهناك فاجأته المنية ، وقد قيل انه لبس احد خفيه ومد الآخر ليلبسه فسقط ميتا .

وافق المتوكل على تولية يوسف ابن ابي سعيد الاقليمين واضاف اليه الخراج والحرب ، اي انه بات مكلفاً بجباية ضريبة الخراج والجزية من السكان ، ودفعها الى الخليفة ، هذا الى جانب قيامه باخماد الفتن والقضاء على حركات التمرد واعادة الامن والاستقرار الى البلاد . .

اراد يوسف ، قبل ان يستقر في حاضرة ولايته ، ان يعرج على خلاط ، ليقابل هناك بطريق البطارقة في ارمينية الامير باقراط باقرادونيان، الذي يعهد اليه الخلفاء بجباية الضريبة السنوية من جميع البطارقة وتقديمها الى بيت مال الدولة في العاصمة ، وكان يشاركه في تحمل اعباء هذه المسؤولية الخطيرة زميله البطريق اشود الارزوني امير البسفرجان . .

بلغ يوسف مع جيشه مشارف مدينة خلاط وعسكر في احد ارباضها ، وقدم عليه الاميران الارمنيان يرافقهما قائد الحامية العربية في المدينة وعدد من رجالاتها المعروفين . .

لا بد ان شؤونا كثيرة جليلة الخطر قد طرحت في هذا الاجتماع ، ولا بد ان نقاشا حادا قد قام بين الحاضرين ، ولا بد ان اموراً قد حدثت فجأة مما اثار غضب يوسف فامر بالقاء القبض على الاميرين

وارسالها الى سامراء ، ليمثلا امام الخليفة المتوكل ، ثم وزع رجاله على عدد من المقاطعات والامارات في ارمينية ، وطلب اليهم مراقبة الاوضاع فيها ، وابلاغه عن كل حركة تصدر عن الامراء المتغلبين عليها ..وبعد ان اطمأن الى سفر الرجال ، جمع ما تبقى من قوات وتوجه بها الى بلدة موش (١) للاقامة فيها ريثما يجيء الربيع .

توالت بعد ذلك الاحداث في زخم وعنف ، فقد كان ذلك الاجتماع التاريخي الذي لا نعلم ما دار فيه من مناقشات بمثابة نقطة البدء في خروج امر ارمينية واذربيجان واران من سلطة الخليفة مباشرة ووقوعها تحت سيطرة الامراء المتغلبين عليها الذين اصبحوا هذه المرة يفرضون وجودهم على الخليفة نفسه بالقوة فيضطر هذا تحت ضغط الظروف الى الموافقة على اعمالهم فيها ، كما ان الاحداث الرهيبة التي اسفرت عن ذلك الاجتماع كانت ايضاً بمثابة دقات المسرح التقليدية التي قرعت ايذانا بانفراج الستار عن ميلاد الدولة الباقرادونية في البلاد .

نمضي الآن مع الاحداث ...

كان شتاء ذلك العام قاسياً والثلوج الكثيفة تغطي المناطق الواقعة بين خلاط ودبيل حتى بلغت في بعض المواضع عشرين ذراعاً (٢) ، واتفق في تلك الايام ان احد اصحاب يوسف الذين وجههم الى المقاطعات واسمه العلاء بن احمد دخل ديراً في مدينة السيسجان يعرف بدير الاقداح فاضطهد الرهبان الموجودين فيه وسامهم العذاب ، بعد ان صادر ماكان فيه من نفائس من الكنوز والمعادن الكريمة ...

انتشر الخبر بين الناس انتشار النار في الهشيم ، فزاد من نقمتهم على

---

١ — تسميها المصادر العربية طرون

٢ — تاريخ الطبري ، احداث عام ٢٣٧ هجرية

يوسف الذي اهان كرامتهم باعتقاله ذلك الرجل الصالح والزعيم الكبير الامير بقراط ..

وشاءت الاقدار ، ان يجد الامير آشود الارزوني وهو في الطريق الى سامراء من ساعده على الهرب من اسره ، فعاد ادراجه الى ارمينية ..

ما كاد يصل آشود الى ولايته ، ويعلم البطارقة بأمر هربه حتى بدأوا في التحرك ، وأخذت الكتب والرسائل تنتقل سراً فيما بينهم لترسم في النهاية الخطوط الاساسية للحركة الخطيرة التي قرروا القيام بها ...

كان على رأس الناقمين الامير موسى بن زرارة امير بدليس ، فقد كان متزوجاً من ابنة بقراط ، ومن المعجبين باخلاق هذا الرجل النبيل ، فلما وضع يوسف القيد في يديه شعر موسى ان يوسف قد اهان بفعله هذا جميع افراد الشعب الذين يعيشون في ارمينية بلا استثناء ...

بعد سلسلة من الاتصالات والمناقشات اتفق الجميع على وجوب قتل يوسف وجماعته ، لاعتقادهم انهم بقتلهم هذه المجموعة من الرجال انما يجنبون ارمينية كلها مجزرة رهيبة ينوي هذا الرجل تنفيذها بعد انقضاء فصل الشتاء .

اما يوسف فقد حط رحاله في مدينة موش – كما قلنا – منتظراً ذوبان الثلوج لكي يبدأ حملة تأديب واسعة تتناول جميع مقاطعات الاقليم ، ثم ينتقل الى اذربيجان ليقوم بالعمل نفسه ..

جاء الى يوسف ذات يوم سوادة الجحافي الذي اطلع بطريقة ما على خطط البطارقة ، ونصحه ان يترك موش وينتقل الى بلد آخر ، او حصن منيع يعتصم فيه ، ثم يستدعي الرجال الذين فرقهم ليتقوى بهم اذا ما داهمه الخطر على حين غرة ... الا ان يوسف ضحك من حديث سوادة

وسخر من مخاوفه ، معتقداً أن ما من أحد في أرمينية يجسر على الوقوف في وجهه ..

كان الاتفاق يقضي باشتراك جميع البطارقة في قتل يوسف ورجاله ، وبذلك يتحمل كل منهم جانباً من المسؤولية ، فكتبوا الى « الخويثية » وهم علوج يعرفون بالارطان [1] وطلبوا اليهم مهاجمة يوسف وقتله ، ثم بعث كل منهم بفرقة من الفرسان للانضمام الى الخويثية ..

قدم الخويثيون الى موش فحاصروها .. وبادر يوسف الى الخروج مع عدد من رجاله لرفع الحصار ، واشتبك في معركة قصيرة انتهت بصرعه والرجال الذين خرجوا معه ..

دخل الخويثيون المدينة وجمعوا من بقي من رجال يوسف وطلبوا اليهم نزع ثيابهم ، فلما اصبحوا عرايا امروهم بالخروج من المدينة والتوجه الى حيث يريدون ... واضطر هؤلاء الى الامتثال فمشوا حفاة عراة وسط زمهرير الشتاء وفوق طبقات الثلوج ، فتجمدت اطراف بعضهم وسقطت ، ومات الآخرون من شدة البرد ..

في اللحظة التي وصل فيها نبأ مصرع يوسف الى البطارقة كان هؤلاء قد وجهوا قوات من قبلهم الى المناطق التي يرابط فيها الرجال الذين سبق ان وجههم ابن المروزي اليها فقتلوهم عن آخرهم ..

وهكذا .. لم يسلم في هذه الموقعة من جيش يوسف أحد ..

حملة بغا الشرابي

وصلت الانباء المحزنة الى سامراء ، وكان لا بد لبغا الشرابي الذي يتولى هذه الاقاليم باسم الخليفة ان يحسم الامور فوراً ، ويثأر لدم يوسف والرجال

١ — فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٩٧

الذين ماتوا عرايا وسط زمهرير الشتاء وبرده القارس .. فقام بحملته المعروفة على ارمينية والتي استغرقت طوال عامي ٢٣٧ و ٢٣٨ هـ (٨٥١-٨٥٢ م) ..

وصل بغا الى ارزن ، الواقعة جنوب مقاطعة خلاط ، فجاءه الامير موسى بن زراره طالباً الامان ، فقيده وارسله الى المتوكل ، ثم بدأ بمطاردة علوج الخويثيين والفتك بهم . وقيل انه قتل منهم زهاء ثلاثين الف رجل ، وسبى خلقا كثيرا عمد الى بيعهم في اسواق النخاسة في ارمينية نفسها ..

بعد ان انتهى بغا من امر الخويثيين توجه الى البسفرجان ، للانتقام من آشود الارزوني الذي تجاسر وهرب من الاسر ، ولم يكتف بذلك بل ألب على السلطة العربية زعماء البلاد وقادتها الوطنيين .

لجأ آشود الى قلعة حصينة تسمى « نكان » ليتقي الخطر القادم من الجنوب ، ولكنه ما لبث ان شعر بعقم المقاومة ، فغادر القلعة معلناً استسلامه ، وضع بغا السلاسل في يديه وبعث به الى سامراء مع عدد من افراد اسرته ، بينهم ابنه الامير كريكور ، وواهان الارزوني وابنه كاكيك وموشيغ ، والاميرة الحسناء هرانوش ، وعدد من نبلاء الارمن في المقاطعة المذكورة .

بعد ان انتهى بغا من امر آشود توجه الى مقاطعة جرزان حيث ما يزال اسحق بن اسماعيل متغلباً عليها ومقيما في مدينة تفليس ، فلما اقترب من المدينة بعث يطلب من اسحق المجيء اليه ، فامتنع هذا خوفاً من بطش بغا ، وعمد الى اغلاق المدينة وتحصن في داخلها .

زحف بغا الى المدينة وحاصرها ثم وجه قائده زيرك التركي والامير ابو العباس الوارثي (سمباط بن آشود) وكان بغا قد ولاه ارمينية على

عربها وعجمها ، وبدأ كل منهما يهاجم الأسوار من جهة ، ووقف بغا فوق مرتفع يراقب عملية الهجوم ، فلما رأى قوة الاسوار ومناعتها امر النفاطين ان يبدأوا بقذف المدينة بكرات من النفط المشتعل ، وكانت تفليس مشيدة من خشب الصنوبر ، فاندلعت فيها النيران والتهمت حوالي خمسين الف انسان (١) .

اضطر اسحق الى الهرب من المدينة المشتعلة فقبض عليه مع ابنه عمر وجيء به الى بغا فضرب عنقه وبعث برأسه الى المتوكل فعلق على خشبة بابك في سامراء .

توجه بغا بعد ذلك الى البيلقان واسر عيسى بن يوسف الامير المتغلب عليها ، كما صحب معه ابو العباس الوارثي (سنباط بن آشود) ومعاوية بن سهل بن سنباط بطريق اران وهناك ظهرت امام بغا قوات الصنارية التي ما انفكت تقاوم العرب وتهدد امن البلاد ، فلما نشب القتال بين الفريقين ، ظهر تفوق الصنارية ، وحاقت بجيش بغا الهزيمة ، فولى الرجل هارباً .

وصل بغا الشرابي الى سامراء بعد ان فقد الكثير من رجاله واضاع ثمار انتصاراته الاولى ، وتسلل من بين يديه جميع الامراء المتغلبين وبطارقة الارمن الذين سبق ان ابقاهم معه اسرى ليدخل بهم سامراء دخول الظافرين .. ولكنه بعد الكسرة التي مني بها امام الصنارية اضطر ان يدخل سامراء خفية ، وان يتلمس طريقه الى قصر الخليفة لينقل اليه همساً تفصيل ما حدث ..

لم يجد المتوكل رجلا يحسم هذا الموقف سوى قائده العربي محمد

---

١ — مختصر تاريخ الدول لابن العبري ص ١٤٣ والكامل لابن الاثير احداث ٢٣٨ هجرية

بن خالد الشيباني فولاه ارمينية ووجهه على حربها وخراجها ..

لما بلغ البطارقة نبأ تولية الشيباني بادر كل منهم يعلن الطاعة ويدفع ما عليه من اموال ، وهكذا هدأت العاصفة ، واستقرت الامور ، وعاد الامن والنظام ..

الارمن في قصر المتوكل

نتوقف الآن قليلاً في سامراء ، وندخل قصر المختار الذي يعيش فيه الخليفة المتوكل لنرى كيف كانت تجري الحياة داخل هذا القصر ، وهدفنا من ذلك هو معرفة المكانة التي كان يحتلها امراء الارمن ، الذين قيل انهم اسرى عند الخليفة ، في هذا القصر بالذات .

نفهم من حادثة رواها الطبري في حوادث عام ٢٤٧ هـ ان هؤلاء الامراء لم يدخلوا سجون سامراء ، ولم تغلق عليهم ابواب « المطبق » كما هو متبع بالنسبة الى امثالهم من الامراء والقادة العرب الذين يخرجون عن طاعة الخليفة ، فقد كان الامير آشوط مثلاً من اقرب المقربين الى الخليفة ومن بين الصفوة المختارة الذين يؤثرهم بمجالسته والاستئناس بآرائهم .

يقول سلمة بن سعيد النصراني وهو ايضاً من رجال قصر المتوكل ان الخليفة رأى ذات يوم من ايامه الاخيرة آشوط بن حمزة الارمني فأبدى استياءه ، فقيل له يا أمير المؤمنين ، ألست انت الذي تحب خدمته وتؤثر مجالسته ؟ . فقال بلى ولكنني رأيت في المنام منذ ليال كأنني قد ركبت على ظهره فالتفت إليّ وقال لي الى متى تؤذينا ؟ . . انما بقي من اجلك تمام خمسة عشرة سنة غير أيام . .

ويقول سلمة ان ما رآه الخليفة قد حدث فعلاً فانه مات وهو في

الاربعين من عمره وكانت مدة خلافته اربع عشرة سنـــة وعشرة اشهر وثلاثة ايام .

ويقول الطبري في احداث ذلك العام نفسه انه لما قتل المتوكل على يد ابنه المنتصر ، اجتمع الى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وهو من رجال المعتز جماعة من الانبار والعجم والارمن وغيرهم وكانوا زهاء عشرة آلاف فارس فقالوا له ، انما كنت تصطنعنا لهذا اليوم فأمر بأمرك وآذن لنا نميل على القوم ميلة نقتل المنتصر ومن معه من الاتراك وغيرهم ، فأبى ابن خاقان ذلك وقال ليس في هـذا حيـــلة والرجل ـ اي المعـتز ـ هو الآن في ايديهم ...

ومن قبل ، حين دخل الخليفة المعتصم أرض الروم لهـدم عمورية ثأراً لزبطرة كان من ضمن القوات التي قادها في هذه الحمـــلة جيش من الارمن بقيادة امير مقاطعة البسفرجان (فاسبوركان) الذي سبق ان وقف الى جانب العرب ضد منافسه امير الامراء بقراط الباقرادوني ، وقد وضع هذا الجيش مع غيره من جيوش الترك والديلم تحت قيادة اشناس التركي[1] .

هذه القصص الثلاث تعطينـا الدليـل على ان الامراء الارمن كانوا من المترددين على الخليفة ومن الرجال القلائل الذين يقربهم اليـــه ويرتاح لمجالستهم ، كما كان في الجيش العربي المشترك الذي يدعم عرش الخـــلافة عدد كبير من فرسان الارمن ومقـاتليهم الاشداء .. وان جيشا ارمينيـا قد ساهم في حملة المعتصم ، في الوقت الذى كان فيه نصر الفارسي ورجال الخرمية يحاربون مع الامبراطور تيوفيل ..

فلا غرو ان رأينـا الامـير ابا الحسن علي بن يحيى الارمني الذي

١ ـــ العرب والروم ص ١٣٣ (حاشية) .

كان في تلك الايام يتولى الثغور الشامية ويقوم بغزو الروم في الصـوائف والشواتي ، حتى كانت له في كل سنة اكثر من غزوة وكان يعود في كل منها بالغنائم والاسلاب ، لا غرو اذا رأينا هذا القائـد المظفر يتقـدم من الخليفة ويشفع عنده لأسرة ارزوني فيعفو الخليفة عنهم جميعاً ، ويعيد من اراد منهم الى بلده معززاً مكرماً ..

ساعة الخلاص

ننتقل الآن الى ارمينية ، الى المنطقـة الوسطى ، حيث تقع مدينـة آني التي ستلعب منذ الآن دوراً بطولياً خالداً يستمر زهاء قرنين من الزمن ، ففي هذه المنطقة تعيش الاسرة الباقرادونية ، ويتولى عميـد هـذه الاسرة البطريق آشود بن سمباط امرة هذه المنطقة .

والاسرة الباقرادونية عرفت منـــذ سنوات الفتح العربي بوقـوفها المشرف من قضايا ارمينية العامة ومن الدفاع عـن كرامـة الشعب الارمني وتحقيق سيادته الكاملة ، وكان سبيلها في ذلك الاتفاقيات السلمية والمعاهدات التي تصون حقوق الجانبين ، فلا تفرط بكرامة الوطن ولا تبخس حقوق الوافدين الجدد ، الذين سيصبحون بعد قليل جزءاً من هذا الشعب ..

كان الولاة العرب يقدرون مواقف زعماء هذه الاسرة المشرفـة ، فكانوا يستعينون بهم في تسيير امور البلاد ، وفي رأب الصـدع ، ودفـع الاخطار ، وتلافي المذابح .. فلما غدر يوسف المروزي ببطريق البطـارقة بقراط الباقرادوني وجد الامراء في سلوك يوسف هذا شيئاً معيبــاً ، اذ ليس من شيمة القائد العادل ان يغدر بعدوه ، ناهيك بصديق مثل بقراط ..

وهكذا رأينا كيف ان الامير علي بن يحيى الارمني يهتم للاحداث التي وقعت في ارمينية على يد يوسف اولا ثم على يد بغا الشرابي ثانيا ،

وبدخل على الخليفة طالباً رفع الاذى عن هؤلاء السادة النبـــلاء واكرام وفادتهم وجعلهم احراراً طلقاء ... فينزل الخليفة عند رغبة قائـده البطـل ويفتح لهم قصره كما يفتح لامرائهم قلبه ..

ولم يكتف ابو الحسن بذلك بل سعى لأن يولي بطريقاً من الارمن شؤون ارمينية على ان يتحمل بنفسه مسؤولية جبـــاية الخراج والجـزية وتقديمها الى بيت مال الخلافة . ولكن اين هو البطريق الذي يحظى باحترام جميع البطارقة والامراء المتغلبين حتى والولاة العرب ويستطيع بالتـالي ان يقوم بهذه المهمة بنجاح دون ان تصادفه الخيبة ؟..

وهنا برز الى الميدان اسم الامير آشود بن سمباط الباقرادوني ، فهو رجل محبوب من الناس كافة ، ويمتاز بالحكمة والتعقل ، فكان ان وقـع عليه الاختيار ..

وبناء على مساعي علي بن يحيى ونزولاً عند رغبـة الارمن جميعـاً اصدر الخليفة امره بتسمية البطريق آشود اميراً للامراء وتوليتـــه ولاية ارمينية وجعله المسؤول الأول عن امراء وبطارقة الاقليم امام ولاة الخليفة واعتبر عام ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) الذي صدر فيه هـــذا القرار بالنسبة الى ارمينية بداية تاريخ جديد ..

نهاية بطل وصديق

بعد ان اصبح آشود أميراً للامراء وجد ان الفرصة سانحـة امامه لاقالة ارمينية من عثرتها ووضعها في طريق التطـور والاصـلاح ، فضبط امورها ، وتقرب من الامراء المحليين فيها ، ومنح كلا منهم استقلالا يكاد يكون تاماً ، شريطة ان يؤدوا له ما عليهم من مال ، وكان تقيـاً ورعـاً ورجلاً صالحاً فاكتسب عطف مواطنيه وتأييـدهم ، فاجتمعت حـوله قلوب رجال الدين الذين وجدوا فيه منقذاً للشعب الارمني ..



خارطة ارمينية واران واذربيجـان كما وضعها الجيوغرافي العربي الرحالة الا صطخري في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري

وفي العام نفسه قتل المتوكل على يد جماعة ابنه المنتصر برئاسة بغا الشرابي ، وولي الابن القاتل الخلافة (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ / ٨٦١ - ٨٦٢ م) الا انه ما لبث ان مات فولي الخلافة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٩ م) .

كان اول ما فعله المستعين ان صرف الامير ابو الحسن علي بن يحيى الارمني عن الثغور وولاه ارمينية مضافا اليها اذربيجان واران ومراقبة الاوضاع على الحدود الرومية . .

ولكن القدر شاء ان يحرم ابناء الاقليم من وجود هذا البطل الصديق ، فانه في العام التالي (٢٤٩ هـ ٨٦٣ م) بينما كان ابو الحسن منحدراً الى ميافارقين بلغه ان عمر بن عبيد الله الاقطع احد ابطال العرب وقادتهم المعدودين قد قتل على يد الروم في معركة داخل اراضيهم ، كما قتل جميع الرجال الذين كانوا في صحبته ، فاندفع ابو الحسن نحو الحدود مع عدد من ابناء ميافارقين طالباً الثأر لصديقه الشهيد ، الا انه وجد نفسه امام جيش كبير ، يفوقه عدة وعدداً ، فسقط البطل شهيداً ودارت الدائرة على الرجال الذين كانوا معه .

لبست بغداد ثوب الحداد على بطليها العظيمين اللذين قتلا في سنة واحدة ، وكانا شوكة ما تنفك تدمي جسد الامبراطورية الرومية، وخرجت جموع الشعب وهي تبكي عمر الاقطع وابا الحسن الارمني [1] .

الامارة تصبح مملكة

استقامت الامور في ارمينية بعد ذلك ، وكان الولاة العرب لا يبرحون دار الامارة ، في حين كان امير الامراء آشود الباقرادوني

---

١ — الطبري وابن الاثير احداث عام ٢٤٩ هجرية

يمارس صلاحياته الرسمية في جميع مناطق الاقليم ، وقد استطاع خلال فترة وجيزة ان يعيد تنظيم جيش ارمينية الوطني ، وان يمده بأسباب القوة ، فغدا هذا الجيش سندا للامير الصالح وعونا له في ضبط الامور وفرض النظام داخل البلاد . .

مضت الايام بعد ذلك هادئة وادعة ، واختفت الاحداث المعكرة لصفو الامن ، وخلال تلك الفترة كانت مكانة الامير آشود قد توطدت في عاصمة الخلافة وغدت كلمته نافذة عند الخليفة وكبار رجال الدولة العربية ، وذلك بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها في كسب مودة حلفائه العرب دون ان يؤثر ذلك على صداقته التقليدية للعرش البيزنطي .

وفي عام ٢٧٢ هـ (٨٨٥ م) وجد الخليفة المعتمد على الله بن المتوكل (٢٥٦/ – ٢٧٩ هـ ٨٧٠ – ٨٩٢ م) ان افضل هدية يقدمها للخليفه القوي آشود هي تحقيق رغبة الشعب الارمني والموافقة على تسميته ملكا على ارمينية ، فارسل اليه التاج مع الخلعة . .

في احتفال ديني كبير وضع آشود التاج على رأسه وارتقى عرش آبائه واجداده .

وبادر الامبراطور واسيل ارشاكوني الى تهنئة صديقه الملك آشود وبعث اليه بهدايا نفيسة (١) .

منذ ذلك العام دخلت ارمينية في حكم الاسرة الباقرادونية وقامت فيها مملكة عظيمة ، عاشت أكثر من مئتي سنة كانت من ازهى عهود تاريخ ارمينية في العصر الوسيط .

---

١ ـ تاريخ الامة الارمنية ص ١٧١

مملكة ابناء السّاج

حين تشتد الصراعات الداخلية في دولة ما ، ويتسع الخرق ، وتمزق الخلافات وحدة الشعب والارض يكون ذلك ايذانا باقتراب ساعة النهاية .

وفي مثل هذه اللحظات المتأزمة ينشط عادة المغامرون واصحاب الاطماع من الرجال ، ويصبح الطريق ممهدة امام كل منهم لتحقيق مكاسب فردية محدودة ، على حساب سلامة الشعب وكرامة الوطن .

وها هو ذا محمد بن ابي الساج الملقب بالافشين واحد من اولئك الرجال الذين لعبوا ادواراً خطيرة في تاريخ الدولة العربية ، وخاصة في عصري اضمحلال الخلافة العباسية ، وسقوطها . . .

ان لقب الافشين يعني ان الرجل ينتمي الى اشروسنه البلد الذي جاء منه حيدر بن كاوس التركي قاهر بابك الخرمي ، وقد يكون ابن الساج قد صحب ابن كاوس حين وفد الى دار الخلافة ووضع نفسه في خدمتها . . .

كان اول ظهور محمد بن ابي الساج على مسرح الاحداث في عام ٢٦٦ هـ (٨٧٩ م) حين حارب المخزومي في يوم التورية بمكة المكرمة وهزمه وكان في ذلك العام والياً على تلك المدينة المقدسة . .

وفي عامي ٢٦٧ و ٢٦٨ هـ حارب الهيصم العجلي وهزمه وقتل محمد بن علي بن حبيب اليشكري في منطقة واسط وبعث برأسه الى بغداد ، وكان في ذلك الوقت اميراً على الاحداث والطرق ..

وفي العام التالي (٢٦٩ هـ ٨٨٣ م) بطش بجماعات من الاعراب كانوا يهاجمون قوافل الحجاج وبعث الى بغداد برؤوس عدد كبير منهم وبعدد آخر من الاسرى .

في العام نفسه هرب الخليفة المعتمد من اخيه الموفق الذي كان يستبد بالحكم دونه الا ان ابن كنداج عامل الموفق على الموصل والجزيرة قبض على المعتمد واعاده الى اخيه .

في عام ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) كان محمد بن ابي الساج قد عزل عن الاحداث والطرق واصبح اميراً على قنسرين واخذ يتصل بابن كنداج وينظم معه خطة تهدف الى تحقيق بعض المكاسب مستغلين بذلك الخلاف القائم بين الدولة الفاطمية التي تحكم مصر والشام حتى طرسوس وبين الدولة العباسية التي ما تزال تبسط نفوذها على بقية مناطق الشرق ..

اعلنا في البدء انضمامها الى العباسيين وحاربا ابا الجيوش خمارويه ابن احمد بن طولون ، ولما حدثت موقعة الطواحين في العام نفسه وانتصر ابن طولون ، شق ابن ابي الساج عصا الطاعة واعلن انضمامه الى الجانب المنتصر ، وبعث ابنه ديوداد الى خمارويه رهينة وابلغه انه قد قطع اسم الخليفة عن الخطبة وجعلها للطولونيين ، فأرسل اليه خمارويه مالا جزيلا وهدايا نفيسة وظل محتفظاً بابنه ديوداد رهينة ..

كانت الخطوة التالية لابن ابي الساج هي الوثوب على حليفه القديم ابن كنداج وانتزاع الجزيرة والموصل من يده ، وبفضل المساعدة التي قدمها اليه خمارويه استطاع ان يهزم خصمه ويستولي على البلدين ، ويخطب

فيها لخليفة مصر مدة من زمن ، ثم جعل الخطبة لنفسه ..

خلال السنوات الثلاث التالية خاض ابن ابي الساج سلسلة من المعارك ضد ابن كنداج الذي جاء محاولاً استرجاع ملكه ، وكان خمارويه يقف هذه المرة الى جانب ابن كنداج بعد ان فقد الثقة بحليفه السابق .

لم ينس ابن ابي الساج موقف خمارويه المعادي منه ، بل حفظه في نفسه ، لذلك فانه ماكاد يبطش بابن كنداج في عام ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) حتى سارع الى الاتصال بالموفق وبذل له الطاعة وطلب منه الموافقة على محاربة خمارويه ، فبعث اليه الموفق بكتاب يشكره فيه ويعده بارسال الامدادات اللازمة من العتاد والجند .

ولكن ابن ابي الساج ما لبث ان تراجع عن رأيه في محاربة خمارويه ، وبدلاً من ان ينحدر جنوباً باتجاه الشام سار الى بغداد وعمل على توطيد صداقته للموفق .

ويجيء عام ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م)فيولي الموفق صديقه محمد بن ابي الساج اذربيجان ، وكان المتغلب على الاقليم عبد الله بن الحسن الهمذاني فرفض هذا ان يسلم ما بيده الى رجل من اصحاب الموفق ، وما لبث القتال ان نشب بين الرجلين .

خلال هذه الاحداث مات الملك آشود الأول وخلفه ابنه سمباط الأول (٨٩٠ - ٩١٤ م) الذي انشغل في استعادة العرش من عمه العباس القائد العام للجيش الارمني بعد ان اعلن نفسه صاحب الحق الشرعي في الملك .. واستطاع الملك الشاب ان يوقع بعمه ويحتفظ بالملك لنفسه ..

في عام ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) احتل محمد بن ابي الساج مدينة المراغة وبطش بجيش الهمذاني واخذه اسيراً ، وبعد ان صادر امواله وثرواته قطع رأسه ليضمن بذلك ولاية اذربيجان لنفسه ..

بعد عامين (٢٨٢ هـ ٨٩٥ م) وجه المعتضد يوسف بن ابي الساج (اخو محمد) وكان من قادة جيشه الموثوق بهم الى الصيمرة مددا لفتح القلانسي غلام الموفق، وفي الطريق استطاع يوسف ان يغرى رجاله ثم استولى على كمية كبيرة من الاموال التي تعود للخليفه نفسه وهرب بها الى اذربيجان .

فرح محمد بمجيء اخيه يوسف واعتبر ذلك دعما لقوته العسكرية فقد كان يوسف من المحاربين الاشداء ...

كان الامير محمد يرنو الى ارمينية ويتشوق الى اليوم الذي يضع فيه يده عليها ويجعلها تحت نفوذه القوي ، ولكن الخليفة العباسي كان قد منح الملك سمباط الاول ثقته واطمأن الى صداقته ، كما كانت اموال الجباية تصل من ارمينية الى بيت مال الخليفة في مواعيدها المقررة دون ان ينقص منها اي شيء ، فما هي الحجة التي يمكن ان يتذرع بها الافشين لدى الخليفة اذا ما سولت له نفسه مهاجمة جيرانه ؟..

انه يعلم الكثير عن قوة الجيش الارمني الذي استطاع ان يعده الملك الراحل آشوط الاول ، ويعلم كذلك ان جيش بغداد ما يزال يمتلك قوة الردع ايضاً ، فاذا ماقام محمد بمحاولته هذه فانه سيجد نفسه فجأة بين فكي كماشة قوية ، احد طرفيها جيش سمباط وثانيها جيش المعتضد ..

ومع ذلك ، فللاقدار تصرفات عجيبة ، لقد شاءت هذه الاقدار ان تضع بين يدي الافشين الحجة التي اعطته حق التدخل في شؤون ارمينية واطلاق يده فيها ..

في عام ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) كان الملك سمباط الاول قد انتهى من توطيد دعائم ملكه واستأنف السير في الطريق التي اختطها والده من قبل، وهي التقرب اكثر من بيزنطة ، ومحاولة ايجاد نوع من العلاقات

الودية تجعل التعاون بين البلدين قائماً على أساس المساواة ومعاملة الند للند ، ثم ربط الدولتين بمعاهدة تضعهما معا في صف واحد تجاه الاخطار التي تهدد سلامة اراضيها ..

كانت الانباء ترد الى الافشين من ارمينية تباعاً وكلها تروي شتى القصص والحكايات عن هذا التقارب « المشبوه » بين الملك سمباط والامبراطور ، وكان الافشين يبادر الى نقل هذه الانباء الى بغداد ووضعها بين يدي الخليفة ، الا ان هذا ما كان ليعطي الامر اهمية تذكر ، فان الملك سمباط ملك حر والارض التي يبسط سلطانه عليها تتمتع باستقلال حر ومن شأن الاحرار ان يتخذوا لأنفسهم اكثر من صديق ، وما دام سمباط راغباً في صداقة خليفة بغداد فليرغب ايضاً في صداقة امبراطور الروم ، فهذا امر يعنيه هو – أي سمباط – ولا يعني احد غيره .

وهنا لعب القدر لعبته ، وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير .
نشب خلاف بين الملك سمباط وبين الحامية العربية التي ترابط في مدينة دبيل ، التي تعتبر دار الامارة والادارة والمال لأرمينية كلها ، وقبض الملك على قائد الحامية العربية ومعاونه وقيدهما بالاغلال ، وارسلها الى الامبراطور ليون ، ثم اقبل بجيشه على دبيل فاعمل فيها معول الهدم والدمار حتى ابادها عن آخرها .

جاء دمار دبيل بداية حركة توسع عسكري كبيرة قام بها الملك سمباط ، فانطلقت جيوشه تغزو المناطق المجاورة للمملكة ، فاحتلت سفوح جبال القفقاس شمالاً ، حتى حدود اذربيجان وبحر الخزر شرقاً وعبرت نهر الكر وواديه العظيم وانتهت الى مدينة تفليس فقضت على الحاميات العربية في تلك المناطق ورفعت العلم الارمني على روابي تلك الاقاليم ...

توارد الانباء على الافشين سريعة ومتلاحقة فبعث بها الى الخليفة

مصحوبة برأيه في هذا الخطر الذي بدأ يتهدد حياة العرب الذين يعيشون في هذه الاقاليم ناهيك عن ارمينية نفسها .

خيل الى الخليفة ان صديقه سمباط قد غدر به ، وكان حادث اعتقال قائد حامية دبيل العربية ومساعده وارسالها الى القسطنطينية مما لا يسعه حلم خليفة مهما كان حليماً واسع الصدر ، وكان ابن ابي الساج قد ابلغ الخليفة استعداده لكسر شوكة الملك سمباط واستخلاص البلدان التي فتحها من يده شريطة ان يتولى امارة ارمينية الى جانب ولاية اذربيجان . وجاءته موافقة الخليفة مع تمنياته له بالنصر .

بدأ الافشين في حشد قواته واتخاذ الاهبة للزحف على مدينة آني عاصمة سمباط وتدميرها انتقاماً لمدينة دبيل البائسة ، ووصل النبأ الى الملك سمباط وكان هذا يعتقد انه لم يرتكب أي خطأ بحق حليفه المعتضد ، ذلك لانه في احتلاله دبيل كان يهدف الى القضاء على خصمه بطريق الارمن المتغلب على المدينة وانه ما فعل بقائد الحامية العربية ذلك الا لانه وقف الى جانب خصمه وعلى هذا فقد قرر ان يبادر الى الاتصال بالخليفة ويشرح له وجهة نظره في هذا الموضوع ، ولكن عليه اولا ان يعالج الامر مع الافشين ..

طلب من الجاثليق كيورك التوسط لدى الافشين والعمل على عقد اتفاق مؤقت يجنب الفريقين خوض غمار الحرب وسفك الكثير من الدماء ريثما يعرض الامر كله على الخليفة .

حين دخل الجاثليق على الافشين وعرض عليه الامر ، تظاهر هذا بالموافقة على الدخول في المفاوضات شريطة ان تجري في المراغة التي كانت دار الامارة والحرب في اذربيجان ..

شعر سمباط ان الافشين يخفي وراء هذا الطلب غاية مبيتة ، وانه

ينوي الخديعة ، اذ ليس مستبعداً ان يعتقل سمباط حين يدخل المراغة ويرسله الى بغداد ، ثأراً لقائد الحامية الذي ارسله سمباط الى القسطنطينية ، لذلك رفض العرض واقترح ان يكون الاجتماع على حدود الاقليمين ..

عاد الجاثليق الى اذربيجان لينقل الى ابن ابي الساج جواب سمباط فأمر الافشين باعتقال الجاثليق ، ثم اعطى الاوامر لجيشه بالزحف فوراً نحو ارمينية .

نشب القتال حامياً بين الجيشين وكادت الدائرة تدور على جيش الافشين لولم تصله امدادات كبيرة من الجزير وديار ربيعة ، فحلت الهزيمة بجيش سمباط فانسحب بجيشه الى الشمال والافشين في اعقابه ..

وجد الملك سمباط ان الاصرار على القتال لن يجديه نفعاً ، فلجأ الى المهادنة ، فاعلن الطاعة للافشين ، وبرهانا على حسن نيته في السلم وفي صداقة هذا الرجل ابلغه رغبته في ان يزوجه احدى اميرات العائلةالمالكة ، لكي تقوم بينهما صلة مصاهرة ونسب ، تمشياً مع التقاليد التي كانت سائدة في ذلك العصر .

وافق الافشين على ذلك ، ثم عمد الى اطلاق سراح الجاثليق وجميع الرهائن الذين اخذهم اثناء حملته الاخيرة ، ليؤكد للملك سمباط نياته الطيبة ورغبته الصادقة في فتح صفحة جديدة من التعاون والتقارب .

وفي احتفال ديني ورسمي زفت اليه الاميرة ابنة شابوه شقيق الملك سمباط ، ثم غادر الافشين ارمينية عائداً الى عاصمة الامارة تصحبه عروسه الاميرة الجميلة وكتائب جيشه ..

صدر امر الخليفة المعتضد بتولية محمد بن ابي الساج امارة الاقليمين تنفيذاً لاتفاقها السابق ، وارسل اليه الخلعة المعتادة في مثل هذه المناسبة ..

بعد عام واحد ، لا اكثر بدأ الافشين يرسم الخطط لتوسيع نفوذه والتغلب على اقاليم اخرى ، وتوسيع حدود بلاده الى اقصى ما يستطيع .

كان الافشين يعتمد اعتمادا كليا على غلام له اسمه وصيف ، كان يثق به ويأتمنه على كل شيء حتى انه ولاه امارة برذعة عاصمة اران نيابة عنه لثقته الكاملة به ولكن الذي حدث في ذلك العام ، ان وصيفاً ثار على الافشين واعلن مخالفته له ، ثم توجه الى ملطية لاجئاً وكتب الى المعتضد يسأله ان يوليه الثغور ، احس المعتضد وهو يستمع الى الرسل التي وجهها اليه وصيف ان ثمة امراً غير طبيعي يجري في الخفاء ، فهو يعلم ان وصيفا يكن لمولاه الافشين مودة عظيمة ، ويعلم ايضاً ان الافشين يعتمد عليه اعتماداً كبيراً ، ويسند اليه الجليل من الاعمال وان خروجه عن طاعته لا بد ان يثير في نفس مولاه الغضب ، ويدفعه الى مطاردة غلامه والاقتصاص منه ، ومع ذلك فان ابن ابي الساج لم يحرك ساكنا وكأن الامر لا يعنيه اطلاقاً . .

امر الخليفة بالقبض على رسل وصيف ، واجراء التحقيق معهم ، وما ان رفع الجلادون مقارعهم وهموا بهم ، حتى انفكت عقدة لسانهم واخذوا يدلون باعترافاتهم الخطيرة .

كان ابن الساج قد اتفق مع غلامه وصيف سراً على ان يتظاهر الاخير بالخروج عن طاعته ويسافر الى ملطية ، ثم يتصل باعوان مولاه في مدينة طرسوس ويتفق معهم على خطة ما ، ثم يتقدم من الخليفة يطلب توليته الثغور حتى اذا وافق الخليفة على ذلك ، سار الافشين الى ملطية وطرسوس وشكل مع غلامه جيشاً كبيراً يتألف من رجال الحاميات العربية القوية المرابطة على الحدود ثم يزحف بهذا الجيش القوي الى الجزيرة وديار مضر وربيعة فيحتلها ويعلن ضم هذه الاقاليم كلها الى ما لديه من اعمال وسيجد الخليفة نفسه امام قوة كبيرة جداً ، لا قدرة له على مجابهتها

فيذعن للامر الواقع ، وعند ذلك يكمل الافشين طريقه باتجاه بغداد فيحتل العاصمة ويبسط سلطانه على الخليفة نفسه .

اثارت هذه المعلومات غضب المعتضد فأمر جيشه بالاستعداد ، ثم سار الى ملطية فالقى القبض على وصيف ، واستأنف طريقه الى طرسوس ، فقبض على جميع الرجال الذين وردت اسماؤهم في التحقيق وقطع رقابهم فوراً ، ثم امر باحراق جميع المراكب والسفن الحربية الرابضة في ميناء المدينة .

يقول ابن الاثير في احداث عام ٢٨٧ هـ . ان من بين المراكب التي احرقها المعتضد خمسين مركباً قد انفق عليها من الاموال مالا يحصى ولا يمكن عمل مثلها مما اوقع بالمسلمين ابلغ الضرر وفت في عضدهم واعجزهم فيما بعد عن مجابهة قوات الروم واساطيلهم

رجع الخليفة الى بغداد ، ودخل قصره وامر ان يؤتى بوصيف ، فلما مثل امامه احضر النطع واحتز رقبته ثم صلب جثته على الجسر . .

كان الخليفة ينوي ان يتوجه الى اذربيجان ليفعل بابن ابي الساج ما فعل بغلامه ، الا ان عام ٢٨٨ هـ (٩٠٠ م) كان قد اقبل ، واقبل معه وباء الطاعون الذي انتشر في اذربيجان وقضى على عدد كبير من السكان ، وكان محمد بن ابي الساج نفسه واحداً ممن حصده منجل الطاعون . .

اراد اصحاب محمد ان يولوا ديوداد الامارة خلفاً لأبيه ، الا ان يوسف وثب على ابن اخيه وانتزع الولاية لنفسه ، ولم يجد ديوداد بداً من الرحيل والتوجه الى بغداد للاقامة فيها .

منذ ذلك العام طويت صفحة في تاريخ ارمينية ، ونشرت صفحة ..



حين ولى المكتفي بالله بن المعتضد الخـلافة (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ ٩٠٢ – ٩٠٨ م) اراد الملك سمباط ان يتحرر من سيطرة ابناء الساج فارسل الى الخليفة الجديد يقترح عليه ارسال الجزية السنوية المترتبة على ارمينية الى بيت مال الخلافة مباشرة دون وساطة الامير يوسف مضافاً اليها النسبة (العمولة) التي يتقاضاها امير اذربيجان لقاء ذلك .

لقي هذا الاقتراح هوى في نفس الخليفة فأرسل الى سمباط تاجاً من الذهب تقديراً له واشعاراً بالعطف وحسن القبول .

وجد يوسف نفسه فجأة مجرداً من مـورد كبير كان يأتيه من ارمينية ويساعده على دعم قواته ومضاعفة جيشه واحكام الامور في الاقاليم التي يتولاها ..

ولكن الملك سمباط عرف كيف يستغل بذكاء نقطـة الضعف في نفس الخليفة ، فان تحقيق زيادة كبيرة في نسبة العائدات من الاقليم ليست بالامر الذي يمكن تجاهله ... فاذا ما ابدى يوسف اعتراضاً على هـذا التدبير فان الخليفة لن يعدم الوسيلة التي يجرده بها من امارة ارمينية كليا ، وحصر نفوذه في اذربيجان وحـدها ، ومن يعلم ربما يمضي الخليفة في اجراءاته الى ابعد من ذلك فيجرده من كل الاعمال التي بين يديه ويعيده الى بغداد ، مجرد قائد يجلس في ديوان الجنـد ويتلقى الاوامر ممن هم اعلى منه مرتبة .

بينما كان يوسف غارقاً في حيرته ، دخل عليه كاتبه النصراني اللامع ابن دليل وكان من ابرع الرجال في علم الحساب وتدبير الامور الماليه ، وبعد ان تدارس الرجلان الامر وقلباه على جميع وجوهه ، لمعت في رأسيهما فكرة رائعة ..

في اليوم التالي ، جهز ابن دليل نفسه وسار الى بغداد ، وحين

اجتمع بالخليفة ، ابلغه ان مولاه يوسف قد رغب في ان يزيد نسبة العائدات من اقليم ارمينية وان يرفع الرقم الى الضعف ، وانه على استعداد لبذل الجهد ، في تحصيل ضريبتي الجزية والخراج بوسائله الخـاصة ، هذا اذا كان الخليفة راغباً حقاً في الحصول على قدر اكبر من المـال ..

سر الخليفة مما سمع ، وانهال على ابن دليل يطري مواهبه وعبقريته واعطاه كتابا الى يوسف بالموافقة على هذا العرض العظيم .

بعد ايام كان رسول يوسف يدخل مدينة آني ويطلب مقابلة الملك سمباط ويعرض عليه الاتفاق الذي تم بين الخليفة وسيده ، ويخيره بـين امرين اما ان يستمر الملك في اعماله وفي تعهده بجبـاية الاموال وارسالهـا الى يوسف واما ان يتولى يوسف هذا الامر نيـابة عنه ، وهو قادر على جباية مبالغ تزيد عما عرضه على الخليفة .

اسقط في يد الملك سمباط ، واحتار اي طريق يسلك ، فهو ان رفض قبول الاتفاق الاخير اعطى امير اذربيجان حق التدخل ، لقد جاء يوسف هذه المرة مدعوماً بتأييد الخليفة وتشجيعه ، وان مجرد تدخـل يوسف في امور الاقليم سيؤدي الى انتزاع السلطة وضياع الاستقلال .

اما اذا وافق الملك على هذا الاتفاق فانه سيضطر الى رفـع نسبة الضرائب المفروضة على الشعب وسيغدو في نظر شعبـه ملكاً جائراً مستبداً غير عادل ..

واخيراً ، قرر ان يجتمع بأمراء المقاطعات والبطارقة ويعرض عليهم الامر ويطلب اليهم مؤازرته والوقوف الى جانبه ... الا ان هؤلاء رفضوا تأييده وراحوا يدبرون الخطط لعزله عن العرش وتولية امير الكرج ادرنرسيه المقيم في تفليس خلفاً له ...

اضطر الملك سمباط ان يمضي في تنفيذ خطتـه بمفرده فاعلن زيادة

نسبة الضرائب خمسة اضعاف عما كانت عليه وبدأ في جبـــايتها (١) وعلى الاثر اجتاحت البلاد موجة من القلاقل والاضطرابات رداً على هذا الاجراء القاسي .

هل اكتفى يوسف بما توصل اليه مع كاتبه ابن دليل ؟.

كلا ، فانه بادر الى الاستعـــانة بالامير كاكيك الارزوني بطريق مقاطعة البسفرجان على خلق حالة من الفوضى وعدم الاستقرار في البلاد واعداً اياه بمساعـــدته على تحقيـق آماله في التحـرر من سيطرة الاسرة الباقرادونية الحاكمة واعلان استقلال مقاطعته وتنصيبه ملكا عليها .

رأى الامير كاكيك الفرصة سانحة لتحقيق آماله الواسعـة ، فاعلن عصيانه على الملك وفي الوقت نفسه كان عدد من امراء المقاطعات الاخرى والبطارقة يجتمعون في منطقة جبلية تقع بين بلاد الكرج وارمينية ويضعون خطة تهدف الى اعلان الثورة والاطاحة بالعرش الباقرادوني ونقله الى الاسرة الكرجية .

بادر الملك سمباط الى حشد قواته ومحاربة القوات الثائرة وبعد عدة مواقع تمكن الملك من البطش بها ، والقاء القبض على مدبريها ، فاستصحبهم معه الى مدينة آني وهناك سمل عيونهم واودعهم السجون .

في زحمة هذه الاحداث مات المكتفي وتولى الخلافة المقتـــدر بالله (٢٩٥ ٣٢٠ هـ/٩٠٢ – ٩٣٢ م) وكان له من العمر ثلاث عشرة سنة فوضعت امه السيدة ، يدها على مقاليد الامور ، واصبحت الآمرة الناهية في الدولة كلها .

كان يوسف اسبق من غيره الى خطب ود السيدة فعمد الى الوساطة

١ — صفحات من تاريخ الامة الارمنية ص ١١٧

وبذل المـال حتى صدر امر الخليفة الجديد بتقليده امارة اذربيجان وارمينية على الحرب والصلاة والاحكام ، ومعنى هذا انه قد اصبح الحـاكم المطلق الصلاحية في الاقليمين المذكورين .

* * *

الآن وقد اطمأن يوسف الى موقف بغداد المؤيد له اصبح الطريق امامه ممهدة للمضي في تنفيذ خطته السابقة .

بدأ بحليفه الامير كاكيك الارزوني ، فمنحـــه لقب ملك على مقاطعة البسفرجان ووضع التاج المرصع الذي وصل اليـــه من بغداد على رأسه في احتفال كبير اقيم في مدينة وان التي غدت منذ ذلك التـــاريخ عاصمة المقاطعة المذكورة .

ثم توجه مع حليفه للايقاع بالملك سمباط الذي وقف في وجه هذه العاصفة العاتية وحيداً بعد ان تخلى عنه البطارقة والانصـــار ، واستمر القتال محتدماً بين الجانبين حتى عام ٣٠١ (٩١٣ م) حيث تمكن يوسف من اسر غريمه وعدد من افراد الاسرة المـالكة والبطـارقـة والامراء . وبعد ان اطمأن يوسف الى نتيجة المعركة اخرج الملك سمباط من السجن وامر بقتله صلباً ..

بعد مصرع الملك سمباط الاول توج ابنه الامير آشود الثـاني ملـكا على عرش ارمينية(٩١٤ – ٩٢٩ م) . وكانت الحالة في البلاد قد تدنت الى الحضيـــض من السوء والفوضى والفساد ، فقد رفض عـدد كبـير من الامراء الارمن الاعتراف بالملك الجديد ، واستقل كل منهم في مقـاطعته ، وفي الوقت نفسه ظهرت مملكة جديدة في مقاطعة البسفرجان وراح ملكها الارزوني يعلن منافسته للاسرة الباقرادونية في حـكم البـلاد . وفي اثنـاء ذلك كان يوسف يعيد ترميم الحصون والمراكز الحربية الموجودة في عدد

من المناطق الاستراتيجية ويضع فيها حاميات من القوات العربية ، لرصد نشاط البطارقة وامراء المقاطعات والتصدي لكل حركة يشتم منها روح المقاومة والثورة .. معيداً بذلك ارمينية الى الاوضاع القديمة التي كانت سائدة فيها قبل مولد المملكة الباقرادونية .

كان على الملك آشود الثاني ان يعمل في هذا الجو المضطرب ، ويحاول رأب الصدع وجمع الشتات في ظروف اقل ما يقال فيها انها ليست في صالحه ...

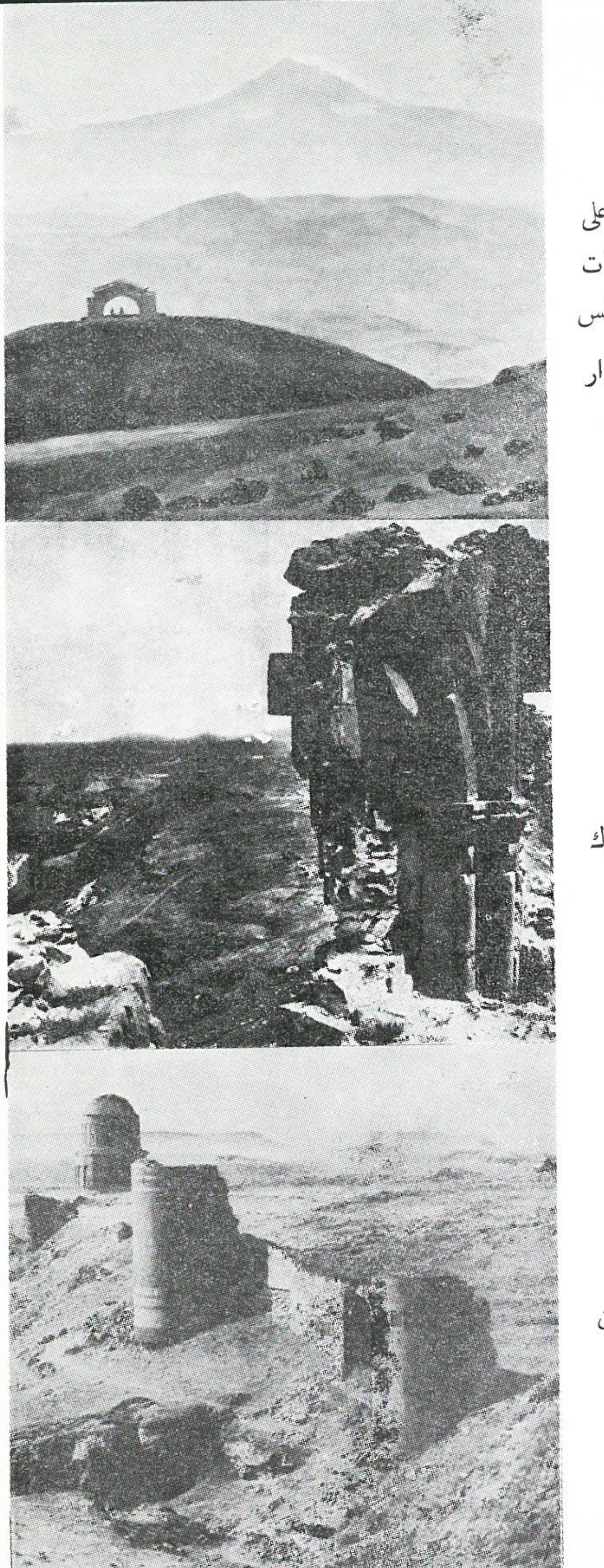
ومع ذلك فقد مضى الملك الشاب في تنفيذ مخططاته متحدياً بذلك المصاعب والاهوال وكان المعروف عن هذا الملك انه بالغ الشجاعة قوي الارادة بعيد النظر ، اذا عزم على امر لم يثنه عنه احد ، حتى ان معاصريه اطلقوا عليه لقب آشود الحديدي .

وجد كاكيك الارزوني ان لا قبل له على مواجهة آشود الحديدي ، وانه هالك لا محالة اذا ما اصر على موقفه العدائي ، فسارع يعلن طاعته للملك الشجاع ويضع نفسه وجيشه في خدمته ، وبذلك انتهت اسطورة المملكتين الارمنيتين اللتين حاول يوسف ان يقيمها ليشغلها بعضهما ويصرفهما عنه .. ثم اخذ الامراء والبطارقة يتقدمون بالطاعة للملك الحديدي واحداً بعد آخر .

★ ★ ★

بعد ان استتب ليوسف الامر في المناطق الغربية ودان له الحكم في ارمينية ولى وجهه شطر الشرق ، واخذ يتحين الفرص للوثوب على اقليم الري واحتلاله .

كان يوسف يقوم بارسال الاموال المترتبة عليه الى بيت مال الخلية



النصب التذكاري الذي شيد على مرتفع غير بعيد عن جبال ارارات للشاعر الارمني النابغة يغيشيه تشارنس

والى هذا النصب يحج آلاف الزوار والسياح كل عام .

ما تبقى من قصور الملوك الباقرادونيين في مدينة آني

بقايا الأسوار الحصينة التي كانت تحمي آني عاصمة الباقرادونيين

طوال فترة وزارة علي ابو الحسن بن الفرات الاولى ، فلما انتقلت الوزارة الى ابي علي محمد بن يحيى الخاقاني اضطربت احوال البلاد ، وتحكم اولاده في الامور كلها ، واخذ كل منهم يعمل وسيطا لمن يدفع الرشوة ، وكان الخاقاني يولي في الايام القليلة عدة اشخاص على عمل واحد ، حتى انه ولى الكوفة في مدة عشرين يوماً سبعة من العمال فاجتمعوا في الطريق وعرضوا على بعضهم التواقيع التي يحملها كل منهم ، فسار ذلك الذي كان يحمل آخر توقيع وعاد الباقون ليطالبوا ابناء الوزير بما اخذوا منهم ..

اراد يوسف ان يستغل هذا الوضع المضطرب لصالحه ، لاسيما وهو يمتلك قوة ذات بأس ورهبة ، فامتنع عن دفع الاموال المترتبة عليـــه ، واعلن استقلاله في البلاد ، ثم اخذ يستعد للوثوب على الري وغيرهـا من الاقاليم الشرقية وضمها الى امارته ..

ولكن كيف يستطيع ان يأمن جانب خصمه الملك الحديدي اذا ما ادار له ظهره ووجه جميع قواته الى الري ؟.. ومن يضمن له ان آشود لن يقتحم المناطق المجاورة التي يحتلها الساجيون ويعمد الى احتلالهـا وضمها الى مملكته المتزايدة النمو والاتساع ؟ ..

هنا وجد يوسف ان اتخاذ سياسة المهادنة والسلم اجدى في مثل هذه الظروف ... فبعث الى آشود بمن يسعى الى اقامة صلح دائم بينهما ، وفض المنازعات الطارئة ، وكان الملك آشود نفسه بأمس الحاجة الى مثل هذا الوضع ، حتى يستطيع ان ينصرف الى معالجة اوضاع مملكته الداخلية والقضاء نهائياً على جيوب المعارضة التي ما تزال تنشط في بعض المقاطعات النائية والاطراف .

وبعد ان تم الاتفاق بين الرجلـــين بعث الامير يوسف الى الملك

آشود بالتاج الملكي معرباً فيه عن اعترافه الكلي باستقلال ارمينية وبحليفه الملك العظيم ... وكان ذلك حوالي عام ٩١٧ م . [١] ..

اطمأن يوسف الى سلامة الاوضاع على الجبهة الغربية واستتباب الامن فيها ، واصبح باستطاعته الآن المضي في تحقيق مشاريعه التوسعية بهدوء واناة ..

لم يعمر الخاقاني طويلاً في الوزارة ، فلما جاء بعده علي بن عيسى ، وكان من انزه الرجال واكثرهم عدلاً وحكمة وحزماً ، قطع دابر الرشوة وبعث الى امراء الاقاليم الذين توقفوا عن ارسال الاموال يطالبهم بارسال ما عليهم ، وكان يوسف واحداً منهم ، ولكنه رفض النزول على حكم الوزير ، وبعث الى السيدة يرجوها ان تتوسط لدى الخليفة لاعفائه من جباية السنوات الماضية والاكتفاء بضريبة العام الاخير ، مع اقراره على ما بين يديه من اعمال ..

اعطت هذه الوساطة المشفوعة بالهدايا ثمارها المرجوة ووافق المقتدر على طلب ابن ابي الساج .

انقضى عهد وزارة علي بن عيسى ودخل الرجل السجن واوكل به الى احدى قهرمانات السيدة الوالدة ، وجاء ابو الحسن علي بن الفرات ليتولى الوزارة للمرة الثانية .

هنا جاءت الفرصة المواتية لابن ابي الساج فاسرع يقتحم حدود الري ويتوغل فيها ، فلما رأى عاملها محمد بن علي صعلوك الخطر زاحفاً نحوه سارع الى الامير نصر بن احمد الساماني امير خراسان وصاحب الري يبلغه الخبر .

---

١ — دائرة المعاف الاسلامية (مادة ارمينية)

تابع يوسف زحفه فاحتل قزوين وزنجان وأبهر ، مدعياً بأنه قد قوطع على هذه الاقاليم بمال يحمله الى الخليفة في عهد وزارة علي بن عيسى ثم اخذ من ساعته يجبي الضرائب والخراج من الاهلين ..

اتصل الامير نصر الساماني بالخليفة ، واطلعه على الامر ، فطلب هذا من وزيره ابن الفرات استدعاء علي بن عيسى والتأكد من صحة ادعاء يوسف ، الا ان علياً انكر ان يكون قد اصدر مثل هذا الامر ، وظهرت للخليفة الخدعة التي قام بها يوسف في غفلة منه للتغلب على هذه الاقاليم الواسعة ، فاصدر الامر الى وزيره بمعاقبة يوسف ..

جهز ابن الفرات جيشاً بقيادة خاقان المفلحي وارسله الى محاربة ابن ابي الساج ولكن يوسف تمكن من إلحاق الهزيمة بجيش الخليفة وأسر عدداً من قادته ادخلهم الري مشهورين على الجمال .

زاد غضب المقتدر فارسل جيشاً كبيراً واسند القيادة فيه الى قائد جيوشه العام مؤنس الخادم ، فبادر يوسف يلتمس العفو من الخليفة ويعلن عن استعداده لضمان اعمال الري وما يليها على مال مقطوع قدره / ٧٠٠ / الف دينار لبيت المال سوى ما يحتاج اليه الجند وغيرهم ، ولكن الخليفة رفض ذلك وابى الا معاقبة هذا الرجل الذي بلغت به الجرأة حد الكذب والتلاعب والبطش بجيش يحمل اعلام الخليفة .

هنا اضطر يوسف الى الانسحاب من الري والعودة الى اذربيجان ولكنه لم ينس قبل ان يتراجع من جباية الخراج ، وفي غضون عشرة ايام تمكن رجاله من الجباية بعد ان انزلوا بالاهلين اقسى انواع الظلم والبطش والطغيان .

بعد ان استقر يوسف في اردبيل ، وكان قد جعلها دار الامارة والحرب لاذربيجان بدلا من المراغة ، عرض على الخليفة ان يقاطع على ماين يديه

من اعمال وهي اذربيجان وارمينية ، فوافق الخليفة على ذلك شريطة ان يحضر ابن ابي الساج بنفسه الى خدمته ويطأ بساطه ، ولكن يوسف احس بسيف الجلاد يلامس عنقه فأبى ، مفضلا في ذلك الموت في ساحة القتال على الموت فوق النطع بين يدي الخليفة .

* * *

لم يكن الملك آشود الثاني غائباً عن هذه الاحداث ، بل كان يراقب تطور الامور بيقظة وانتباه . فلما رأى مسيرة جيش الخليفة بقيادة مؤنس وتوجهه الى اذربيجان بعث بالرسل الى القائد العام يعرض عليه خدماته .

ولكن حملة مؤنس هذه لم تحقق أي نجاح ، وفر جيش الخليفة بعد ان وقع في اسر يوسف عدد من القواد بينهم سيما بن بويه ، فادخلهم ابن ابي الساج مدينة اردبيل مشهورين على الجمال .. اما مؤنس فقد هرب الى زنجان ، واخذ في اعادة تنظيم قواته والاستعداد للمعركة التالية . .

شعر مؤنس انه بحاجة ماسة الى مساعدة الجيش الوطني في ارمينية المستقلة ، ومؤازرة الملك آشود الحديدي فبعث اليه بالرسل ، وبادر الملك الى الموافقة على دخول الحرب الى جانب مؤنس والقضاء على حكم بني الساج نهائياً ..

جاء عام ٣٠٧ هـ . (٩١٩ م .) والوزارة يومئذ بيد حامد بن العباس ، وكان مؤنس قد انتهى من حشد قواته واتخاذ جميع التدابير اللازمة لاستئناف القتال ، وبناء على الخطة المشتركة التي وضعها مع حليفه الملك آشود زحف جيش الخليفة باتجاه اردبيل واشتبك مع قوات يوسف في معركة حاسمة ، كان النصر فيها حليف جبهة الاتحاد العربي الارمني ووقع يوسف وعدد من رجاله اسرى بيد مؤنس ..

خرج اهل العاصمة العربية يشاهدون موكب الجيش الظافر ، والرجل الكبير الذي وقع في الاسر ، وكان مؤنس قد اركب يوسف جملا والبسه برنسا طويلا بشفاشج وجلاجل واذناب الثعالب امعانا في تحقيره واذلاله ، فدخل الموكب من باب خراسان وانتهى الى دار الخليفة حيث اودع السجن عند زيدان القهرمانه ..

ومكافأة لما قدمه الملك آشود الثاني من مساعدات فقد خلع عليه المقتدر لقب شاهنشاه (١) واعطاه الحق في السيادة على الامارات النصرانية الصغيرة التي كانت تجاور مملكته وهي البسفرجان والكرج وابخازا (٢) واعفاه من الجزية التي كان يدفعها سنويا لبيت مال الخلافة (٣) فبادر آشود الى اجلاء الحاميات العربية عن مراكزها واعادة سيطرته الكاملة على البلاد .

* * *

ما كاد جيش مؤنس المنتصر يطويه الافق حتى ظهر الامير سبك غلام يوسف ابن ابي الساج في قوة كبيرة من الفرسان فاستولى على ما كان بين يدي مولاه من اعمال .

وسبك هذا هو مدبر جيش ابن ابي الساج والنائب الاول عنه ، فلما وضع يده على اقليم اذربيجان ، اخذ في اعادة تنظيم قواته ، واستكمال عدته وجلس يرقب تطور الاحداث .

استدعى مؤنس اسيره اليه وطلب ان يكتب الى غلامه سبك بالقدوم الى بغداد مع جميع اصحابه ، واضطر يوسف تحت الضغط الشديد الى

١ ـ شاهنشاه هو لقب فارسي معناه ملك الملوك
٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية (مادة ارمينية) .
٣ ـ تاريخ الامة الارمنية ص ١٨١

الامتثال ، فلما تسلم سبك كتاب مولاه رفض ان يمتثل للأمر ، وقال لن أجيء الى بغداد إلا بعد ان اتأكد مما سيفعله الخليفة بمولاي .

استدعى مؤنس محمد بن عبيد الله الفارقي وعهد اليه بولاية اذربيجان وارمينية وارسله على رأس جيش كبير لتسلم مهام عمله ، إلا ان الفارقي انهزم امام سبك ، واضطر المقتدر ان يوافق على تقليد سبك الاعمال التي بين يديه شريطة ان يدفع / ٢٢٠ / الف دينار سنوياً لبيت المال .. ثم ارسل اليه الخلع والعهد .

كان أول ما فعله سبك ، بعد ان استقر في الولاية ، ان سارع الى تنفيذ خطة انتقامية من الملك آشود الذي اعان جيش الخليفة وقضى على مملكة ابن ابي الساج ...

كان الامير آشود بن شابوه (ابن عم الملك آشود الحديدي) احد الرهائن الذين اخذهم يوسف بعد الموقعة الحاسمة مع الملك سمباط الاول ، وكان ابن شابوه هذا من الطامحين الى الملك والسلطان ، فوجد سبك في هذا الرجل ضالته التي يبحث عنها ..

استدعاه اليه ورغبه في الملك ، فلما رأى منه استجابة وضع على رأسه تاجاً من الذهب ومنحه لقب « شاهنشاه » وهو اللقب الذي يحمله آشود الحديدي بأمر الخليفة ، ووجهه الى مدينة دبيل فاتخذ منها عاصمة لمملكته الصغيرة .

ولكن الملك الحديدي رفض وجود من ينازعه الملك كما رفض ان تقوم دولتان ارمينيتان في وطن واحد ، فبعث الى ابن عمه بمن ينصحه بالعدول عن خطته ولكن الرجل كان قد تأثر بابهاء الملك ومظاهر السلطان ، فرفض ، واضطر الملك آشود الى اعلان الحرب عليه .

اكتوت المنطقة بنار الحرب مدة عامين كاملين وكان سبك قد استغل هذه الحرب في تثبيت اقدامه وتقوية نفوذه ، ووضع دبيل نفسها تحت سيطرة الجيش العربي ، وقبل ان تحل الهزيمة بابن شابوه التمس من ابن عمه العفو واعرب له عن ندمه فيما قام به من تصرفات مخطئة ، وقبل الملك آشود التماس ابن شابوه ، فأمر بوقف القتال ، واعلن الصلح معه ، وهنا رأى ابن شابوه انه لن يستطيع البقاء في دبيل التي غدت تحت نفوذ سبك المباشر فآثر الانتقال الى العاصمة الباقرادونية والعيش في كنف ابن عمه الملك العظيم .

امضى يوسف ابن ابي الساج ثلاثة اعوام في سجن زيد القهرمانه داخل قصر الخليفة ، وكان مؤنس الخادم دائم الاتصال به ، محاولاً اقناعه بضرورة التعاون معه ، وضم جماعته الساجية الى الحجرية [1] والمغاربة الذين يعملون تحت قيادة مؤنس .

إلا ان يوسف كان يشترط اولا اعادة نفوذه السابق على الاقاليم التي كانت بين يديه ، ومن ثم يصار الى التعاون الكامل بين الرجلين ..
واخيراً ، توصل الرجلان الى حل وسط ، يرضي غرور يوسف ويحقق اهداف مؤنس ..

يقول عبد الملك الهمذاني [2] .
في محرم سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م . اطلق الخليفة سراح يوسف ابن ابي الساج وحمل اليه مال وخلع ... وقد انزل اولا في دار دينار ، ثم حضر الى دار الخليفة بسواد [3] .

---

١ ـ جماعة من الشباب يقيمون في حجر منفردة وهم فرقة من الحرس الخاص في قصور الخلفاء (تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٣٩)
٢ ـ تكملة تاريخ الطبري ص ٢٩
٣ ـ أي متشحاً بالسواد شعار العباسيين

ولما وصل الى الخليفة قبل البساط وخلع عليه وحمل على فرس بموكب ذهب وذلك يوم الخميس في ٨ محرم .

جلس المقتدر يوم السبت وعقد ليوسف على اعمال الصلاة والمعاون والخراج بالري والجبال واذربيجان وزينت له دار السلطان يومئذ فركب معه مؤنس ومفلح ونصر والقواد واستكتب ابا عبد الله محمد بن خلف النيرماني وقرر ان يحمل الى السلطان في كل سنة ٥٠٠ الف دينار .

غادر يوسف بغداد متوجهاً الى الجزيرة في طريقه الى اذربيجان بعد ان كلفه الخليفة بالنظر في احوال هذا الاقليم وكان يرافقه القائد وصيف البكتمري على رأس قوة كبيرة من جيش الخليفة .

وصل يوسف الى الجزيرة في شهر جمادى الآخرة عام ٣١٠ هـ . فتفقد الحال في ديار ربيعة وحسم الخلافات الناشبة هناك ، ثم استأنف طريقه الى مقر ولايته في اذربيجان فلما اقترب من اردبيل جاءته الانباء بوفاة غلامه سبك .

★ ★ ★

كان على يوسف هذه المرة ان يولي وجهه شطر المشرق ، حيث الاراضي الغنية ، والثروات الطائلة ، والامجاد العظيمة ، فانصرف عن التدخل في شؤون جارته ارمينية ، مما جعل الملك آشود الحديدي يصرف امور مملكته في جو هادىء ، وظروف حسنة .

★ ★ ★

منذ ذلك التاريخ تقلص ظل ابن ابي الساج نهائياً عن ارمينية ، ومع ذلك فمن الامانة التاريخية وقد بدأنا بالتعرض لمراحل نشاط ابناء الساج منذ بداية امرهم ، ان نتابع هذا النشاط حتى نطوي الصفحة الاخيرة منه .

ان السنوات الخمس التي عاشها يوسف بعد خروجه من سجن المقتدر ، كانت حافلة بالحروب والمواقع التي خاضها دفاعا عن تاج الخلافة ، ففي العام التالي لعودته الى الامارة اي في عام ٣١١ هـ . (٩٢٣ م .) دخل الري وحارب اميرها احمد بن علي اخا صعلوك وقتله وبعث برأسه الى بغداد .

في عام ٣١٤ هـ. (٩٢٦ م .) قلد المقتدر ابن ابي الساج نواحي المشرق واذن له بأخذ اموالها وصرفها الى قواده واجناده وامره بالقدوم الى بغداد والمسير الى واسط .. ثم يبدأ بمحاربة ابي طاهر القرمطي ، فامتثل يوسف لأمر الخليفة تنفيذاً لاتفاقه السابق مع مؤنس .. إلا انه لم يستطع الثبات طويلاً امام القرمطي فمني جيشه بالهزيمة ووقع هو نفسه اسيراً .

يقول ابن السبعي الطبيب الذي اشرف على معالجة يوسف في الاسر ، ان ابن ابي الساج كان قد اصيب بطعنة نافذة في جنبه اثناء المعركة ، وان اصحابه حاولوا صرفه عنها ، والهزيمة فأبى ، فلما حمل الى معسكر ابي طاهر ضرب له خيمة وفرشت ووكل به من يحرسه ثم استدعي ابن السبعي هذا ، فوجد ان الدم قد جمد على وجه يوسف واطرافه فطلب ان يجهز له ماء حاراً لغسله فلم يجد في المعسكر ما يوفر له هذا الماء ، فغسله بالماء البارد وبينما كان الطبيب يقوم بمعالجته كان يوسف يوجه الاسئلة الى طبيبه عن اسمه واهله ، فاخبره هذا بأنه من اهل الكوفة فاذا بيوسف يذكر الكثير من المعلومات عن الناس في هذه المدينة ممن اتصل بهم ايام تقلده اياها ..

يقول الطبيب ، لقد تعجبت من فهمه وقلة اكتراثه مما هو فيه (١) .

---

١ ـ تكملة تاريخ الطبري ص ٥٣

وبعد ايام حاول عدد من قادة المقتدر وفي مقدمتهم ابو الهيجـــاء عبد الله بن حمدان انقاذ ابن ابي الساج من اسر القرمطي وكادوا يوقعون بالقرمطي نفسه فبادر هذا الى قتل ابن ابي الساج وجميع الذين كانوا معه في الاسر . وبهذا طويت الصفحة الاخيرة من حياة هذا الرجل الداهية ... وكان ذلك سنة ٣١٥ هـ (٩٢٧ م .) .

* * *

كان يوسف قبل ان يغادر اذربيجان قد ولى عليها غلامه « مفلح » فعمد هذا الى اتخاذ كثير من التدابير والاجراءات الـــتي تؤمن خضوع الاقليم له ، وكان من تلك الاجراءات ندب نصر السبكي للاقامة في مدينة دبيل على رأس قوة عربية مرابطة لتأمين الحماية للمدينة بعد ان تنازل عنها آشود بن شابوه . .

في العام الذي قتل فيه يوسف ، اقتحم جيش الروم اقليم ارمينية ، وتوجـه نحو دبيـل للقضاء على الحاميـة العربيـــة فيها ، وقد ضـــرب (الدمستق)(١) حصاراً شديداً حول المدينة وكان معه دبابات ومناجيق ومزارق تزرق بالنار (٢) فألحقت هـذه المزاريق بالمدينة والأهلـين اضراراً فادحـة .

ولما حمي وطيس القتال جلس (الدمستق) على كرسي فوق مرتفع عال يشرف على المدينة وأخذ يوجه قواته ويدفعهم الى مهـاجمة الاطراف التي يلاحظ فيها ضعفاً في وسائل الدفاع ، وقد تمكن الروم من الوصول الى سور المدينة واحدثوا فيه ثقوباً كثيرة ثم تسللوا منها الى الداخل فقابلهم

---

١ ــ الدمستق كلمة لاتينية تعني قائد الجيش

٢ ــ الكامل لابن الاثير احداث عام ٣١٥ هجرية

الجيش العربي والاهـالي الذين خاضوا المعركة جنبـاً الى جنب مـع القوات العربية ، وانتهت المعركة بهزيمة الدمستق وتراجعه عن دبيل بعد أن اصيب جيشه بخسائر جسيمة .

توجه (الدمستق) الى خلاط في طريق عودته الى بلاده فحاصرها ، ثم صالح اهلها على اموال دفعت له ، ورحـل عنها الى بدليس فصالحـه اهلها على مثل صلح خلاط ، ثم توجه الى مدينة ارزن فوجد ان العرب المقيمين فيها قد غادروها الى بغداد مستنجدين ، فلم يتعرض للمدينة بأذى ثم واصل طريقه عائداً الى بلاده . .

* * *

ضاعت اصوات الناس واستغاثاتهم في فناء قصر الخليفة المقتدر حين وفدوا عليه من ارزن طالبين مساعدتهم على الوقوف في وجه خطر الروم ، ذلك لان الخليفة كان في ذلك الوقت منشغلاً في مصادرة امـوال النـاس والتصدي للحركات الانقلابية التي كانت تدبر له في الخفاء ، والتحرز من قائد جيشه العام مؤنس الخادم الذي عظم امره بعد أن ضم اليه الساجية (جماعة يوسف) الذين حاربوا معه القرمطي وتقوى بهم .

إلا أن مفلحا غلام يوسف تولى بنفسه هـذا الامر ، فانه ما كاد يعلم بما حدث في مدينة دبيل حتى أخذ في حشد القوات وتنظيم الكتائب ، والاستعداد للمجابهة الفعلية مع الروم .

* * *

اقبل عام ٣١٧ هـ . (٩٢٩ م .) حاملاً معـــه احداثاً هامـة وخطيرة ، كان أولها وفاة الملك آشود الحديدي عن غـير ولد يرث الملك من بعده ونجم عن هذا الامر بعض الارتباك في العاصمة الباقرادونية ، إلا

أن الأمير كاكيك الارزوني ملك البسفرجان ، بالاتفاق مع رجال الدولة ، نصب العباس الاول أخا الملك الراحل على العرش ، فقطع بذلك دابر الخلاف وحسم المنازعات التي كانت ستحدث بين الامراء الطامعين بالعرش ، ومع ذلك فان هذا الحل لم يرض على الاقل (بير) ملك الكرج الذي كان يطمع في ضم ارمينية الى مملكته الفتية .

أما الحدث الثاني ، فهو عودة (الدمستق) الى ارمينية في جيش عظيم للثأر من مدينة دبيل التي اذاقته الهزيمة منذ عامين . . . إلا انه ما كاد يتوغل في ارمينية حتى وجد نفسه فجأة وجهاً لوجه مع مفلح الساجي .

لما نشب القتال رأى الدمستق انه لا قدرة له على مجابهة جيش مفلح ، فأخذ في التراجع نحو الحدود وسيوف الساجيين تفتك بجيشه وفي هذه المرة لم يترك مفلح للدمستق الوقت الكافي للعروج على خلاط وبدليس واخذ الاموال المفروضة عليهما .

★ ★ ★

حين ارتقى العباس عرش ارمينية (٩٢٩ - ٩٥٣ م .) وجد ان من اسباب وهن الدولة في عهد الملوك الباقرادونيين السابقين ذلك الصراع الرهيب الذي كان يدور بين الملك من جهة وامراء المقاطعات من جهة ثانية بسبب اصرار الملوك على إقامة دولة مركزية ووضع كافة الصلاحيات والمسؤوليات بيد رجل واحد هو الملك ، وجعل العاصمة هي المصدر الوحيد للتشريعات والقوانين والاجراءات التي تهدف الى تحقيق الصالح العام ، في حين كان الامراء يسعون الى إقامة دولة لا مركزية وتكون لهم بالتالي الصلاحيات المطلقة في المقاطعات التي يتولونها .

وحسماً لهذا الصراع الذي كاد يودي بالمملكة اكثر من مرة ، وافق العباس على اتباع سياسة لا مركزية وإعادة الاساليب والتقاليد القديمة

ومنح الامراء كل الصلاحيات لادارة شؤون مقاطعاتهم محتفظاً لنفسه بالسلطة المعنوية ، وكان هذا الاجراء الحكيم سبباً في ازالة جميع اسباب الخلافات السابقة وعاد الامراء الى الالتفاف حول العرش والتنافس في اعلان الولاء والطاعة للملك الحصيف .

ومضى العباس في تحقيق المنهاج السياسي والاقتصادي الذي وضعه لنفسه فمد يده الى الشعب لاسيما الطبقات الفقيرة واقر الكثير من الاجراءات الضرورية لتحقيق العدالة الاجتماعية في البلاد ، فتعالت اصوات الشعب بالحمد والشكر والثناء .

في عهد العباس ساد الامن وعم الرخاء وارتقت الزراعة والصناعة والتجارة وفاض النعيم [1] .

ثم بدأ خطوته التالية بتعمير البلاد فنقل العاصمة الى قارس وفتح الطرق وعبدها ورصفها بالحجارة ، وشيد الاديرة والقصور الملكية في العاصمة الجديدة وفي عدد كبير من المدن الرئيسية في الوطن ..

اما في السياسة الخارجية فقد اتبع اسلوب المهادنة ومعاملة جيرانه معاملة الند للند ، فعقد معاهدتين مع اميري اذربيجان ودبيل العربيتين واتفق معهما على تبادل الاسرى واقامة علاقات من الصداقة والود وحسن الجوار وكانت المملكة الارمينية المستقلة قد اعفيت من دفع الجزية الى بيت مال الخلافة - كما ذكرنا من قبل - في زمن الملك الحديدي ...

وهكذا غدت ارمينية في عهد العباس دولة مستقلة ذات سيادة تامة يحميها جيش قوي يتألف من حوالي مئة الف مقاتل قد احسن تدريبه على القتال ، واتقن جميع فنون الحرب الهجومية والدفاعية .

---

١ - تاريخ الامة الارمنية ص ١٨٢

ومع ذلك بقي ثمة عقبة ، لم يستطع العباس رغم حنكته ولباقته ان يتغلب عليها ، وهي شعور الطمع الذي يعيش في قلب ملك الكرج (١) ورغبته العارمة في الاستيلاء على جارته ارمينية وضمها الى بلاده .

لقد كان الحافز الذي يدفع ملك الكرج على هـذا العمل هو الخلافات الدينية بين البلدين فان ارمينية كما نعلم منشقة عن كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية في حين ان بلاد الكرج تابعة للكنيسة المذكورة ، فاذا ما تحقق لملك الكرج حلمه الكبير وضم ارمينية الى سلطانه فانه سيتمكن حينئذ من ارغام الارمن على اتباع الكنيسة المذكورة ، وبذلك تزول الخلافات الاساسية التي كانت وما تزال تحول دون تفاهم اباطرة الروم مع الشعب الارمني وقادته وملوكه .

تقول المصادر الارمنية ان ملك الكرج اراد ان يباغت العباس بحرب خاطفة ، يدمر فيها جيش ارمينية ويضع يده على البلاد ، ولكن جواسيس العباس وعيونه في بلاد الكرج ، كانوا اسبق من غيرهم الى اطلاع الملك على مايبيته له عدوه الكرجي .

فلما عبر جيش العدو نهر الكر في قوة عظيمة وجد امامه العباس وقائد جيشه البطل كيورك مارزبدوني وقبل ان ينشب القتال ، اراد العباس ان يستخدم مع نسيبه آخر سهم في جعبته من اجل تجنب القتال واحلال السلام بين البلدين الجارين فأرسل الى الكرجي رسولا بالرجوع عن بلاده والتخلي عن اطماعه التي قد تقوده الى التهلكة ، ولكن الملك بير اصم اذنيه عن سماع كلمة الحق والحكمة والرشاد وقال للرسول بلهجة فيها كثير من الصلف والغرور ..

---

٢ ـ كان الملك بير ملك الكرج شقيق الملكة زوجة العباس ..

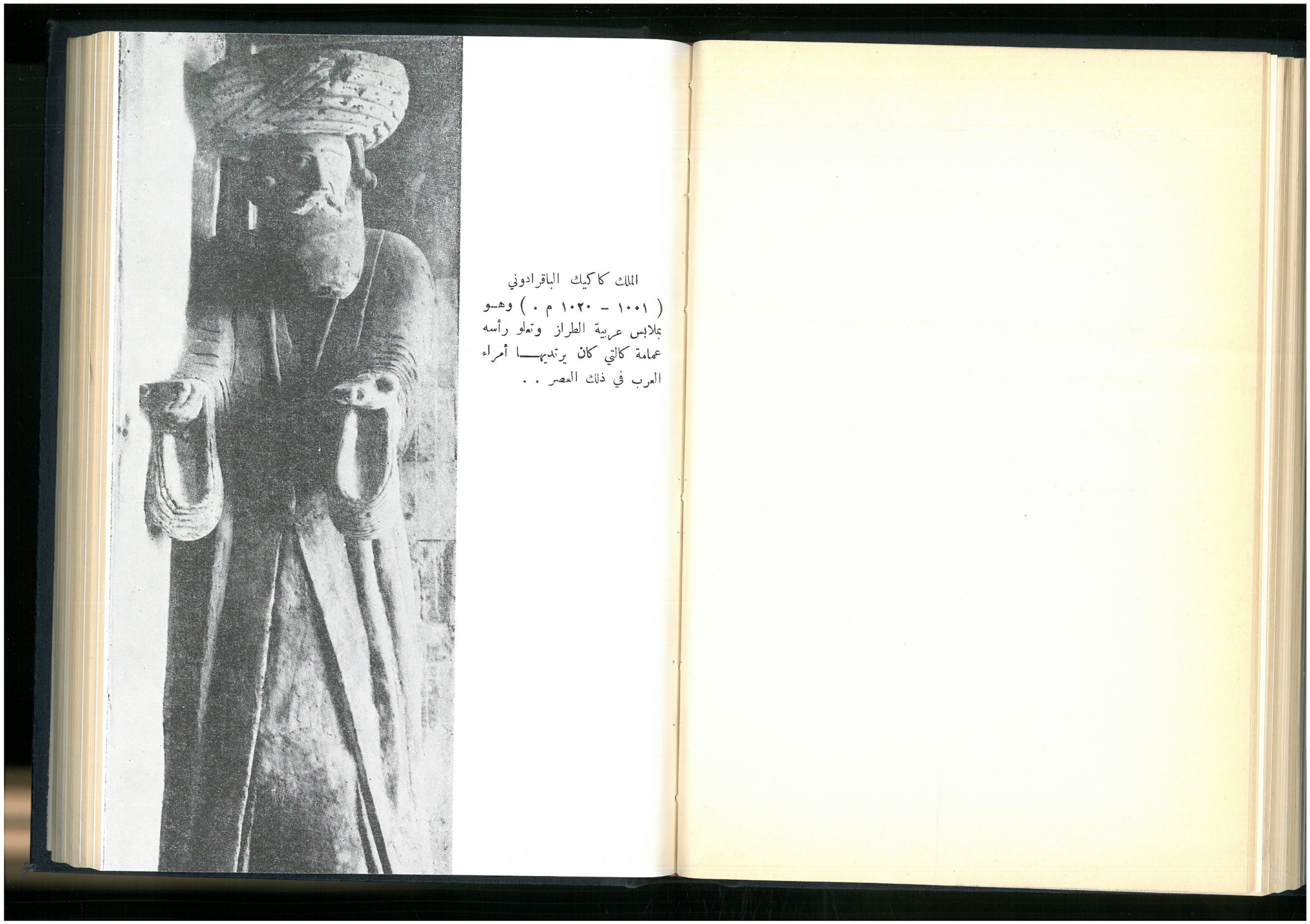
ـ لقد جئت لتكريس الكنيسة التي عمرها العباس حديثاً بحسب المراسيم الدينية الكرجية ..

لما عاد الرسول وابلغ العباس حديث الملك بير ، وجد العباس انه لم يعد ثمة جدوى للسلام ، وانه لا بد من الحرب ، فأعلن في جيشه النفرة وبدأ الهجوم ... وما هي الا كرة او اثنتان حتى كان الجيش الكرجي يفر هارباً ، اما الملك بير نفسه فقد وقع اسيراً في يد زوج اخته العباس ..

دخل الجيش الارمني الظافر عاصمته متوجاً بأكاليل الغار واقيمت مهرجانات الفرح بهذا النصر المؤزر في كل ارجاء البلاد ، وأمر العباس ان يؤتى بأسيره فلما مثل بين يديه ، قاده بنفسه الى الكنيسة الجديدة ، وقال له ...

ـ انظر الى هذه الكنيسة الضخمة الجديدة وتودع من النظر اليها فانك لن ترى بعد اليوم الا الظلام . . .

ثم امر فسملت عيون الملك بير ، واعاده الى بلاده لقاء فدية كبيرة قدمها شعبه .



الملك كاكيك الباقرادوني
(١٠٠١ - ١٠٢٠ م .) وهو
بملابس عربية الطراز وتعلو رأسه
عمامة كالتي كان يرتديها أمراء
العرب في ذلك العصر . .

ممالك وامارات

بدأت مرحلة السقوط والاضمحلال بالنسبة الى الدولة العباسية بعد مصرع المقتدر وخلافة أخيه القاهر بن المعتضد (٣٢٠ - ٣٢٢ ﻫ/ ٩٣٢-٩٣٤ م .) ثم خلافة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ ﻫ/ ٩٣٤ - ٩٤٠ م).

يصف ابن الاثير الدولة العباسية زمن الخليفة الراضي فيقول :

« لم يبق للخليفة غير بغداد واعمالها ، والحكم في جميعها لابن رائق ، وليس للخليفة حكم ، وأما باقي الاطراف ، فكانت البصرة في يد ابن رائق ، وخوزستان في يد البريدى ، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان في يد ابي علي محمد بن الياس ، والري واصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير اخي مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج ، والمغرب وافريقية في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الاموي ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن احمد الساماني ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، والبحرين واليمامة في يد ابي طاهر القرمطي » .

وكان الراضي بالله آخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة خطب

على منبر ، وجالس الجلساء ووصل اليه الندماء ، كما كان آخر خليفة له نفقته وجوائزه وعطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه وأموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين (١) وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والاموال (٢) .

وفي عهد الراضي اصبح في العالم الاسلامي ثلاث خلافات الاولى في بغداد وهي الخلافة العباسية والثانية في بلاد المغرب وهي الخلافة الفاطمية والثالثة في الاندلس ونعني بها الخلافة الاموية (٣) .

* * *

هذا ما انتهى اليه الوضع في حواضر الدولة العربية ، أما في ارمينية ، فان الأمر لم يكن ليختلف في شيء بعد أن تم تقسيم البلاد الى ممالك مستقلة وأخرى شبه مستقلة وولايات صغيرة يتغلب على كل منها امير عربي او بطريق ارمني ، فالمملكة الباقرادونية ، وهي التي تمثل الصورة الحقيقية للحضارة الارمنية في ذلك العهد تحتل اواسط الاقليم وشماليه فقط وعلى جميع الاطراف تقوم ولايات وممالك اخرى ، ففي الشمال مملكة الكرج ذات الاطماع الواسعة في ارمينية ذاتها ، والابخاز المقاطعة الصغيرة القائمة عند اطراف اران ، فاذا اتجهنا الى الشرق نرى ثمة امارات ارمينية تتمتع بحكم ذاتي في النخجوان وفي المناطق المجاورة لها ، وننحدر الى الجنوب لنرى أول امارة عربية تقوم على سهل دبيل الخصيب ثم نمضي الى البسفرجان وقصبتها وان فنرى تلك المملكة الارمينية الصغيرة التي تحكمها الاسرة

١ ـ الكامل لابن الاثير ج ٦ ص ٢٧٧

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير ، احداث عام ٣٢٩ هجرية

٣ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٤٧

الارزونية التي رأيناها في اكثر من مناسبة تتعاون مع الحكم العربي وتعتمد على نفوذ امراء اذربيجان لتثبيت اقدامها وتقوية سلطانها ، فاذا مضينا في الجنوب فاننا نرى دون شك تلك الامارات العربية الصغيرة التي كانت تعرف بامارات بحيرة وان وهي بركرى ومنازكرد وارجيش ثم خلاط التي لعبت فيما بعد دوراً كبيراً وغدت من اكبر الولايات العربية في ارمينية واقواها سلطة ونفوذاً .

ثم نواصل تقدمنا نحو المناطق الغربية لنرى عدة امارات ارمينية تحتل المقاطعات الواقعة في هذا الطرف ، منها ارزن الروم وزنجان وبابرت وغيرها .

* * *

حتى نستطيع ان نتمثل الصورة الواضحة عن وضع ارمينية خلال الاعوام التي سبقت الاحتلال السلجوقي لا بد لنا من ان نعالج كل جزء من اجزاء الاقليم على حدة ، فنتناول الاحداث الهامة التي وقعت في هذا الجزء ، ونشير الى الصدى الذي احدثته في جزء آخر وهكذا ..

ولكننا قبل أن نمضي في تنفيذ هذه الخطة علينا ان نضع بعض اللمسات الصغيرة على الخارطة المبسوطة أمامنا .

لقد خضعت كل الامارات والممالك القائمة في الاطراف لنفوذ خارجي على نحو ما ، فالامارات الواقعة في الجانب الشرقي الشمالي وقعت تحت سيطرة الكرج المباشرة وغير المباشرة ، والامارات الواقعة في الجانب الشرقي والجنوبي بما فيها مملكة البسفرجان كانت تخضع لسيطرة الحكم العربي في اذربيجان ، أما امارات بحيرة وان العربية فقد كانت معرضة بشكل دائم لتدخل امراء الجزيرة والموصل وديار بكر ..

فاذا ما انتقلنا الى المناطق الواقعة على الجانب الغربي من المملكة

الباقرادونية فاننا نرى هذه المناطق قد خضعت بدورهـا للنفوذ البيزنطي خضوعاً تاماً ..

هذه هي ارمينية الطبيعية ، كما تبدو لنا في الحقبة التي نؤرخ لها..

والآن لنمضي مع الاحداث ...

الامارات العربية

ان التفكك والانقسام الذي اصاب الدولة العربية ، وقيام حـكم الامارات والولايات المستقلة في البلاد ، شجع الروم على التوغل في عمق الاراضي العربية ، فرأينا الجيش الرومي يطرق ابواب حلب عـدة مرات ، ويحتل المدينة مرة في عهد سيف الدولة الحمداني ، بل رأيناه مرة يتوغل جنوباً حتى يصل الى دمشق ورأينا هـذا الجيش يمعن في غزو المنـاطق الجزرية وبلاد ما بين النهرين ، ورأيناه ايضاً يزحف نحو الامارات العربية في ارمينية الجنوبية والجنوبية الشرقية ويحاول أكثر من مرة هـدم مدينة دبيل التي يدافع عنها جيش قوي ، ويغزو امارات بحيرة وان اكثر من مرة ويلحق بها خسائر فادحة في الارواح والاملاك والاموال ... « حتى صار للروم الهيبة العظيمة في قلوب المسلمين » [1] .

وتحدثنا مصادر التاريخ العربي في معرض احـداث عام ٣١٩ هـ (٩٣١ م .) عن حمـلة كبيرة قام بها الجيش الرومي بتشجيع ودعم بطريق ارمني اسمه جاجيك بن الديراني ، كان يحكم احدى المقاطعات الارمينية المستقلة ، وقد هاجم الجيش البيزنطي كلاً من بركرى وخـلاط وما جاورهما من قرى ودساكر فخربها وقتل من سكانها العرب جمعاً كبيراً وأسر كثيراً من فتياتها وفتيانها ...

---

١ ــ الكامل لابن الاثير احداث عام ٣٥٨ هجرية

ودخـل مفلـح السـاجي ارمينيـة ، بعد انسحاب الجيش الرومي ، فهاجم مقاطعة ابن الديراني واوقع بهـا خسائر جسيمة ، كما قتل عدداً كبيراً من السكان انتقاماً لما فعله الروم في خلاط ..

[illegible] ديسم بن ابراهيم الكردي (من اصحـاب ابن ابي الساج) على اذربيجان بعد وفاة مفلح ، وكان ديسم يكن لابن الديراني كثيراً من [illegible] فساهم معه في ازالة مظاهر الخراب والدمار الـتي احدثهـا مفلح في مقاطعته ، إلا ان ديسما لم يهنأ طويلا في ولايته ، فقـد هاجمـه السلار المرزيان وهو من اسرة ديلمية تعرف باسم بني مسافر واحتل الاقليم بعد ان طرده منه .

التجأ ديسم اولا الى معز الدولة بن بويه فاستقبله هذا واكرمه ، ولكنه اعتذر عن امداده بالرجال والعتاد لاستعادة ولايته ، فسافر الى ناصر الدولة بن حمدان في الموصل فكان موقف الامير الحمـداني شبيهاً بموقف البويهي ، فمـا كان من ديسم إلا ان التجأ الى سيف الدولة الحمداني .

في عام ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م .) هـاجمت جحـافل كبيرة من الروس شمال اذربيجان ، وتمكنت من احتلال برذعة ، ثم اخـذت تتوغل في الاقليم ، واسرع السلار يصد هذه الجحافل .

هنا رأى ديسم ان الوقت قد حان ليضرب ضربته الحاسمة ويبطش بعدوه الديلمي فابلغ سيف الدولة بمـا عزم عليـه وفاتح سيف الدولة اخاه ناصر الدولة بالامر ، فوافق هذا على ارسال جيش لاحتلال اذربيجان على ان يكون بقيادة سيف الدولة وان ينضم اليه جماعة ديسم من الاكراد .

غادر سيف الدولة الموصل متوجهاً الى اذربيجان عن طريق ارمينية فاحتل مدينة سلماس ثم اجتاز حدود الاقليم .

سمع السلار نبأ الجيش الزاحف من الجنوب فترك بعض الكتائب في وجه الروس وانحدر مع قواته الرئيسية لوقف هذا الخطر الداهم ..

بدأ القتال بين الجيشين في مطلع شتاء ذلك العام فلما زاد تهاطل الثلوج وانخفضت درجة الحرارة تعذر على الرجال مواصلة الحرب ، فقامت بين الجيشين هدنة مؤقتة ..

في هذه الاثناء ورد على سيف الدولة كتاب من اخيه ناصر الدولة يطلب اليه العودة سريعاً الى الموصل ، لأنه ـ أي ناصر الدولة ـ قد عزم على السفر الى بغداد تلبيه لدعوة تلقاها من الخليفة المتقي ليتولى منصب امير الامراء بعد ان خلا المنصب بوفاة توزون .

ابلغ سيف الدولة حليفه ديسم نبأ عودته مع جيشه ، ولما كان ديسم وحده لا يستطيع مواجهة السلار ، جمع اصحابه ومضى بهم الى صديقه جاجيك بن الديراني ..

استقبل جاجيك صديقه ديسم ووعده بمؤازرته في حربه ضد السلار اذا ما انتهى فصل الشتاء وذابت الثلوج ، وتفتحت الازاهير .

عاد السلار الى الشمال ليتابع عمله في صد جحافل الروس ، فلما تم له ذلك ، وجه كتاباً الى جاجيك يطلب اليه تسليم ديسم .

حاول جاجيك في البدء ان يراوغ ولكنه رأى ان السلار جاد في طلبه ، فدفع اليه بصديقه ديسم وجماعته ...

حين قبض السلار على ديسم ، سمل عينيه واودعه السجن ..

مات السلار ، وقام الصراع بين اولاده الثلاثة جستان وابراهيم وناصر من جهة وبين عمهم وهسوذان من جهة ثانية ، وانتهى هذا الصراع بانتصار العم الذي استطاع ان يقتل غدراً ابني اخيه جستان وناصر وامهما .

في زمن وهسوذان هذا نشطت الاضطرابات في عدد من الامارات العربية الارمينية الخاضعة لنفوذ الحاكم الاذربيجاني ، وكان في مقدمة الرجال الذين رفعوا راية العصيان جستان بن شرمزن الذي كان يتولى امارة دبيل وكذلك ابراهيم بن السلار الذي كان قد التجأ الى ارمينية وراح يعد خطة الهجوم على عمه والانتقام لاخويه المغدورين وامه .

في عام ٣٤٩ هـ . (٩٦٠ م .) اندفع ابراهيم على رأس قوات كبيرة من الاكراد والديلم لانتزاع الملك من عمه واستطاع ان يحتل دبيل ويطرد وهسوذان منها ، إلا ان هذا ما لبث ان جمع قواته وعاد يهاجم ابن اخيه ، وانجلت المعركة الاولى عن هزيمة ابراهيم فالتجأ هذا الى صهره ركن الدولة بن بويه وكان متزوجاً من اخته ، فاعاده الى ولايته على رأس جيش كبير ، بعد ان كلف ابا الفضل بن العميد باصلاح وضع الولاية واقرار ابراهيم فيها ، واضطر وهسوذان الى الهرب ، وكان هذا آخر عهد وهسوذان بولاية اذربيجان وارمينية .

المملكة الباقرادونية

خلال هذه الفترة كان العباس الباقرادوني قد توفي بعد ان حكم ارمينية زهاء ربع قرن وتولى بعده آشود الثالث (٩٥٣ - ٩٧٧ م) الذي كان يلقب بالملك الرحيم .

امضى آشود السنوات الاولى من حكمه في مقاومة العصاة والطامعين في الملك ، وفي عام ٩٦١ م . حين كانت المراسم الدينية تقام في العاصمة آني احتفالا بتتويج آشود رسمياً كان اخوه موشيغ يتوج نفسه ملكاً ايضاً في مقاطعة قارس وفي العام التالي تمكن موشيغ من اقامة دولة داخل دولة .. وكان هذا سبباً في تشجيع عدد من البطارقة وامراء المقاطعات

على اعلان استقلالهم الذاتي وعدم الاعتراف بسلطة الباقرادونيين الا بالاسم فقط ..

تقول مصادر التاريخ الارمني انه في زمن آشود الثالث تغلب الامراء على جزء كبير من البلاد فاستولى آشود بن اسحاق احد الامراء على ولاية الاسفرجان (واسبوركان) واستولى أخواه كوركين خاجيك ، واوهانس سينكريم على مقاطعتي انتزيفاستيك ورشدونيك اما منطقة سوني التي تضم بحيرة سيفان فقد اعلنت استقلالها عام ٩٧٠ م وكذلك مقاطعة لوري التي انفصلت عن المملكة عام ٩٨٢ م . وفي ولاية طاييك قامت اسرة جديدة لم يكن اميرها من اصل ارمني بل كان كرجياً واسمه داود كوراناباد الذي خرج بتشجيع من البيزنطيين من معقله في القوقاز وكان قد توارى فيه هرباً من العرب وتوج نفسه ملكاً على تلك المنطقة الشمالية من البلاد .

واقتصر نفوذ آشود الثالث على جزء من ارمينية يضم العاصمة آني [١] ..

ان حال آشود الرحيم في هذا لم يكن يختلف في شيء عن حال الخليفة العباسي المتوارى في قصره ببغداد ، والذي لم تكن سلطته تتجاوز الرقعة التي تضمها أسوار قصره ..

* * *

في هذه الفترة بالذات ، وبينما كان ابناء المسافر منشغلين في الكيد لبعضهم كان احد الامراء العرب يستولى على المناطق الجنوبية في ارمينية ويتخذ من مدينة خلاط قاعدة لأمارته ثم راح يضم اليه بلداً بعد آخر ، فاستولى على منازكر وموش وارتد عن حصن بركري المنيع ولم يفلح

١ — صفحات من تاريخ الامة الارمنية ص ١٣٠

مع أهل ارجيش فاكتفى بما حصل عليه ، كان هذا الامير يعرف بأبي الورد ..

ان التاريخ لم يعترف كثيراً بامارة ابي الورد هذا لانها كانت قصيرة العمر ، فقد حدث ان غلاما لسيف الدولة الحمداني اسمه نجا قد شق على مولاه عصا الطاعة وكان متقلداً ولاية حران فاستولى على ما كان في يده من اموال ودخل ارمينية متحصناً فيها ، فلما تصدى له ابو الورد محاولا دفعه عن امارته ، حاربه نجا وفتك به ثم استولى على جميع بلاده وقلاعه وامواله ..

قرر الامير سيف الدولة تأديب غلامه الآبق ، ولما بلغ ميافارقين في طريقه الى ارمينية لاذ نجا بالفرار فاستولى الامير الحمداني على جميع ما كان في يد غلامه ، ثم اخذ يراسله ويكاتبه داعياً اياه الى الطاعة ونبذ المعصية ويخوفه من سوء العاقبة ، فامتثل نجا لأمر مولاه وجاءه تائباً ، فعفا عنه واحسن استقباله ، ثم اعاده الى مرتبته ، ولكن تصرف سيف الدولة هذا لم يرض بقية غلمانه الذين يتولون الامر في جيشه فوثبوا على نجا ، وهو في دار مولاه بميافارقين ، وامام سيف الدولة طرحوه ارضاً وذبحوه ، وقد غشي على سيف الدولة من هول المشهد ، وكان ذلك في عام ٣٥٤ هـ . (٩٦٥ م .) .

انصرف سيف الدولة ، حين كان اميراً على حلب ، الى غزو الروم والدخول الى بلادهم والتوغل فيها ، كما انصرف ايضاً الى صد جحافلهم التي كانت تهاجم حلب باستمرار ، وقد مني سيف الدولة بأكثر من هزيمة كما حقق الكثير من الانتصارات ومات في شهر صفر من عام ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م .) في مدينة حلب وحمل تابوته الى ميافارقين فدفن فيها ..

بعد ثلاث سنوات من وفاة سيف الدولة الحمداني كانت الحرب قد شبت اوارها بين ابناء اخيه ناصر الدولة ، وانصرف كل منهم الى الفتك باخيه وانتزاع بلده منه ، متناسياً ان هناك عدواً خطيراً ما انفك يتهددهم .

جاء الروم بجيوش كبيرة يريدون احتلال القسم الشمالي من سورية فاضطر سكان حلب وحماه وحمص وكفر طاب والمعرة وافامية وشيزر الى عقد هدنة مع الروم بعد ان اعادوا اليهم الاسرى المحتجزين في هذه البلاد ودفعوا الفدية المفروضة عليهم ..

مضى الروم بعد ذلك الى ارمينية فحاصروا مدينة منازكرد وملكوها عنوة ، يقول ابن الاثير عن احداث عام ٣٥٩ ان شوكة الروم قد عظمت وخافهم المسلمون في اقطار البلاد وصارت كلها سائبة لا تمتنع عليهم يقصدون ايها شاؤوا .

كان الملك آشود الثالث حين دخل جيش الروم ارمينية قد ارسل الى القيصر وكان يدعى اوهانيس جمشكي وهو ارمني الاصل يحذره من عبور المملكة الباقرادونية ، فلما ابلغه القيصر انه آت فقط ليصفي حسابه مع العرب ، سارع الملك الى تقديم المعونات اللازمة وامده بعشرة آلاف مقاتل لمساعدته في عملية الغزو والتدمير واعادة البلاد الى نفوذ البيزنطيين .

* * *

مات الملك آشود الرحيم سنة ٩٧٧ وخلفه ابنه الملك سمباد الثاني (٩٧٧ - ٩٨٩ م .) وقد سار هذا الملك على سياسة ابيه فاهتم بالحركة العمرانية في البلاد ، وحصن حدودها ، وفي عهده توقفت غارات العرب ، لا سيما تلك التي كانت اعاصيرها المدمرة تهب من اذربيجان ، بعد ان مزقت الخلافات والمنازعات الفردية والاطماع الشخصية وحدة الدولة واضاعت سلطانها .

لم يحدث في عهد الملك سمباد الثاني ما يكدر صفو السلام إلا ذلك الحادث العارض الذي جاء من مقاطعة قارس التي يحكمها عمه الامير موشيغ ، فقد اراد هذا الرجل ان يستولي على البلاد ويضع تاج الملك على رأسه ، إلا ان قائد جيش ارمينية البطل واساك باهلادوني بدد من رأسه هذا الحلم وقضى على جيشه الصغير الذي قاده في هذه المغامرة المخفقة .

في عام ٩٨٩ م . مات الملك سمباد ليخلفه اخوه كاكيك الاول العظيم (٩٨٩ - ١٠٢٠ م .) الذي استطاع ان يرقى بوطنه الى اوج العظمة عسكرياً وسياسياً وحضارياً ، وكان عهد هذا الملك من ازهى العهود التي مرت على البلاد خلال حكم الباقرادنيين .

استطاع كاكيك مع قائده وهرام باهلادوني ان يسترد كثيراً من القلاع والحصون التي كان متغلباً عليها بعض الامراء داخل حدود الوطن ، كما تمكن من الاستفادة من الوضع المتردي الذي كان يسود الدولة العربية ، فأجلا القوات العربية المرابطة على الحدود في جنوب البلاد حتى مدينة ارجيش ، وبذلك استعاد الملك جزءاً كبيراً من الاراضي كانت حتى ذلك التاريخ بيد المتغلبين العرب .

اراد كاكيك ان يتبع سنة اجداده ، فلم يشأ ان يقطع خيط العلاقات الودية التي كانت تربط دولة ارمينية المستقلة بخليفة بغداد ، لا سيما وان كاكيك يعرف مدى الهوة التي تفصل بين الخليفة العباسي ورجال الدولة الاغراب الذين جردوه من جميع سلطاته وكانوا هم الحاكمين الحقيقيين للدولة دونه ، فبعث بالرسل الى الخليفة يجدد له عهود المودة والصداقة ، وارسل اليه الخليفة خلعة ومنحه لقب شاهنشاه الارمن .

لم يقتصر نشاط كاكيك على الناحية العسكرية والسياسية فحسب بل تعداها الى الناحية الاقتصادية والعمرانية ، فأكمل بناء الكاتدرائية

الفخمة في العاصمة آني ، واصلح الطرق والمعابر وربط البلاد بشبكة من الطرق ووثق العلاقات التجارية مع البلدان المجاورة ، فارتفع مستوى الحياة العامة واصبحت كل مدينة بمثابة مركز تجاري هام واعلن تخفيض الضرائب فازاح بذلك عن كاهل الشعب كابوساً كان يرهقه ، وكانت الملكة هادراميتيه ساعده الايمن في اعماله هذه .

قيل ان آني حفلت في عهد كاكيك بالبدائع الفنية وشيدت مئات الاديرة والكنائس والابنية الفخمة والمسارح والمؤسسات الخيرية والعلمية والثقافية وبلغ عدد سكانها زهاء مليون نسمة .

* * *

انشغل الاذربيجانيون خلال تلك الفترة في رد طلائع الزحف الكبير الذي قام به الاتراك الغز ، فقد اخذت منه ذلك التاريخ تنداح في البلاد موجات متلاحقة من هذه القبائل آتية من الشرق ، وكانت هذه الموجات تبحث عن منافذ للحياة والعيش والاستقرار بعد ان ضاقت بها الرقعة التي تعيش فيها .

وشيئاً فشيئاً اخذت اليد القوية التي كانت تقبض على زمام الامور في الامارات العربية الارمينية المجاورة ترخي قبضتها ، وتترك البلاد لأهلها . .

* * *

لم يتوقف الجيش الرومي عن مواصلة غاراته على البلاد العربية ، وخاصة في ارمينية ، فبعد ان استولى على منازكرد وضمها الى الامبراطورية بدأ يوجه ضرباته هذه المرة الى امارات بحيرة وان العربية ، وكان امراء هذه المناطق يعتمدون على مساعدة حكام ميافارقين من بني حمدان

اولاً ، ثم بني مروان الذين استولوا على ديار بكر عام ٣٧٠ هـ (٩٩٠ م .)

في عام ٣٨٢ هـ . (٩٩٢ م .) جاء امبراطور الروم على رأس جيش عظيم الى ارمينية وحاصر خلاط وارجيش وبقية الامارات العربية في تلك المنطقة ، واتصل ابو علي الحسن بن مروان بالامبراطور ، وعرض عليه هدنة مدتها عشرة اعوام لقاء مبالغ يدفعها للروم .

لم يقبل الامبراطور ان يفك الحصار إلا بعد ان اخذ العهد من ابناء هذه البلدان ، على ان يدينوا له بالطاعة ، وان يتعهدوا بعدم اعلان الحرب على الروم او الاشتراك في حملات الغزو العربية ضد الاراضي الرومية . .

بعد ان وافق الاهلون على هذه الشروط واعطوا العهود بذلك رفع الروم حصارهم وعادوا الى بلادهم تاركين خلفهم من يراقب الاوضاع .

* * *

كان سمباد هو الابن الاكبر لكاكيك ، فلما مات كاكيك آل اليه الملك بحكم حقه الشرعي (١٠٢٠ – ١٠٤٠ م) في حين كان اخوه آشود اصغر منه سناً ، وقد حاول آشود في البدء ان يخلع اخاه عن العرش ، وزحف بالفعل على رأس قوات كبيرة نحو العاصمة لاحتلالها ، الا ان العقلاء من اهل البلاد سارعوا الى حسم هذا النزاع ، وتم الاتفاق على ان تبقى العاصمة آني وضواحيها تحت امرة الملك سمباد ، ويتولى آشود امرة جميع المناطق المتبقية من المملكة الباقرادونية .

في تلك الاثناء بلغت موجات القبائل التركية اقصى مداها في اذربيجان فعبرت حدود ولايات الاطراف في ارمينية واخذت تهدد الحياة والامن والسلام في المنطقة كلها .

بينما كانت الاعاصير العاتية تهب من الشرق كانت ثمة عاصفة مجنونة

تمرد في الشمال فقد ساءت العلاقات الكرجية ـ الرومية ، واعلنت الحرب بين الدولتين ، وجاء الامبراطور باسيل الثاني على رأس جيش كبير ليؤدب العصاة الكرج ويعيدهم الى نفوذ امبراطوريته .

كان على الملك سمباد ان يتخذ موقفاً محدداً من الصراع الجديد الذي نشب بين الكرج وبيزنطة ، فالحياد لن يجديه نفعاً ، وكان لا بد له ان يقف الى جانب واحد من الفريقين المتنازعين ، ولما كان الكرجيون هم اقرب الى نفسه وقلبه من البيزنطيين فقد آثر الوقوف في صفهم .

وهكذا تحدد الموقف قبل ان ينشب القتال ، وقد بذل الملك سمباد كل عون لحلفائه ، إلا ان الحرب التي قادها الامبراطور باسيل بنفسه قد ادت الى هزيمة الكرجيين وقبولهم شروط الامبراطورالقاسية .

وجد الملك سمباد نفسه في موقف حرج ، فهو لا يملك صديقاً يعتمد عليه ، ولا حليفاً يتقوى به ، كما انه ليس من القوة بحيث يستطيع مواجهة قوات بيزنطة التي ستواصل زحفها لا محالة لتدك عاصمته الجميلة الزاهية .

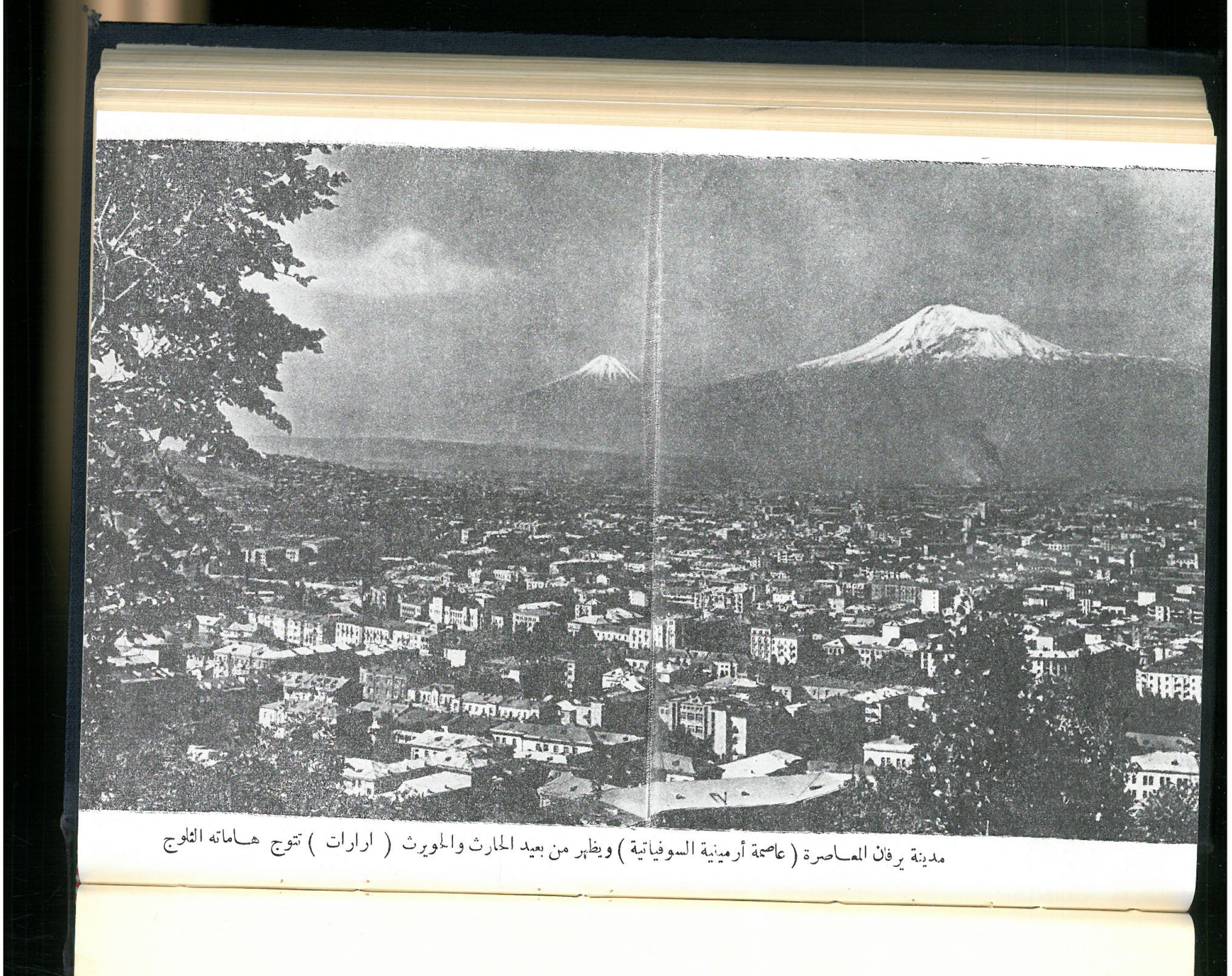
وجد ان لا خيار له الا باتباع طريق واحدة هي الطريق التي سلكها سنكريم ملك الفاسبوراكان من قبل ، وذلك حين تنازل عن عرشه للبيزنطيين في عام ١٠٢١ ميلادية لقاء منحه مقاطعة في كبادوكية ، وقد اضطر الى ان يفعل ذلك خوفاً من الخطر السلجوقي الداهم من الشرق ، والضغط العسكري والسياسي المتواصل من الغرب ، أي من بيزنطة ..

وبعد مفاوضات بين الملك سمباد والامبراطور باسيل تم الاتفاق على تسليم مدينة آني الى بيزنطة مقابل حصول الاول على مقاطعة كبيرة في كيليكيا يقيم عليها دولة ارمينية جديدة .

وهذا ما حصل بالفعل ، وكان ذلك ايذانا بميلاد دولة ارمينية الجديدة في كيليكيا ..

مات آشود في عام ١٠٤٢ م. وبعد عام واحد اي ١٠٤٣ م. مات الملك اوهانيس سمباد .

وبينما كانت البلاد تحتفل بوضع التاج على رأس الوارث الوحيد للعرش الملك الفتى كاكيك الثاني (١٠٤٣ - ١٠٤٥ م .) ابن آشود وهو ابن ستة عشرة ربيعاً ، كانت طلائع القوات السلجوقية الزاحفة من الشرق تقرع ابواب ارمينية الطبيعية بقوة ، وتبدأ في الاستيلاء عليها شبرا فشبرا ، وبلداً فبلدا ..



مدينة يرفان المعاصرة (عاصمة أرمينية السوفياتية) ويظهر من بعيد الحارث والحويرث (ارارات) تتوج هاماته الثلوج

في ظل الحكم السلجوقي

كلمة سلاجقة تعني تلك المجموعة الكبيرة من قبائل الترك التي تعيش في اقصى تركستان وتعرف باسم الغز ، وكانت هذه القبائل خلال القرن الثاني والثالث والرابع من الهجرة تقوم بهجرات على شكل موجات كبيرة تنداح في الارض العربية وتتسع شيئاً فشيئاً .

في اواخر القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) اخذ الناس في الشرق يسمعون عن قوم يدعون بالسلاجقة ، وكانوا حينذاك يعيشون على الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم ، وكذلك الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيجون .

اطلق على هذه القبائل التركية اسم السلاجقة نسبة الى رئيسها سلجوق بن دقاق (والكلمة الاخيرة تعني القوس الجديد) وقد اعتنق هذا الرجل الاسلام ودفع تلك القبائل الى اعتناق الدين الجديد بعد ان كانت تدين بالوثنية ، وسلجوق هو الذي جمع شمل هذه القبائل ووحدها تحت زعامته ثم قادها الى المناطق المجاورة لممتلكات السامانيين والخانيين والغزنويين مما وراء النهر فنسبت اليه وخضعت لحكم ابنائه واحفاده من بعده . .

امضى السلاجقة سنواتهم الاولى في حرب مريرة مـــع الغزنويين وكانوا يحاولون توسيع رقعة الاراضي التي يحتلونها على حـــساب الدولة الغزنوية التي كانت تبسط سلطانها هناك ، واخيراً تمكنوا من التغلب على خصومهم ، والحقوا بالسلطان مسعود الغزنوي هزائم متكررة مما اضطر آخر الامر الى التسليم بقوتهم والموافقة على وجودهم .

في عام ٤٢٩ هـ . (١٠٣٧ م .) تمكن طغرلبك محمد من دحر قوات مسعود واحتلال مدينة نيسابور واعـــلان نفسه سلطاناً على دولة السلاجقه ومنذ ذلك التاريخ اي منذ شهر ذيالقعدة من العام المذكور ، اخذ خطباء المساجد يرددون اسمه ويدعون له بالنصر بوصفه اول سلطان لهذه الدولة الفتية ، وبعد ثلاثة اعوام ، اي في عام ٤٣٢ هـ . (١٠٤٠ م.)

اعلن الخليفه العباسي القائم بأمر الله اعترافه بهذه الدولة ومنحـها الصفة الشرعية (١) . .

حين قامت دولة السلاجقة كانت شمس الدولة العربية تؤذن بالافول ، فالخلافة الفاطمية في مصر تنحدر الى غمر الضعف والفوضى ، والخـلافة العباسية تقتصر على المظاهر الشكلية ، والدولة الامـــوية في الاندلس قد انهارت وقامت مكانها دول الطوائف الضعيفة ، وكانت الامبراطورية البيزنطية قد تمكنت من دفع فتوحاتها نحو الشرق والجنوب ، فأتمت سيطرتها الكاملة على ارمينية وفرضت الجزية على كثير من الامراء العرب في الجزيرة وشمال الشام (٢) .

في عام ٤٠٤ هجرية (١٠٤٨ م .) كان طغرلبك قد وطـــد

١ ـ سلاجقة ايران والعراق ص ١٦ وما يليها

٢ ـ مواقف حاسمة ص ٨٦

حكمه في خراسان وفارس بعد ان سحق سلطان آل بويه وغـدا سيد دولة تمتد من خراسان شرقاً حتى حدود العراق وارمينية غرباً ، عند ذلك فكر في غزو ارمينية وضمها الى مملكته ، وعهد الى اخيه ـ من امه ـ ابراهيم اينال بهذه المهمة .

دخل ابراهيم ارمينية على رأس قوة كبيرة من الاتراك الغز وهاجم المناطق الواقعة على الاطراف ، دون ان يدخل اراضي المملكة الباقرادونية ، لوجود حامية قوية من القوات الوطنية والروم . .

يقول ابن الاثير (١) ان ابراهيم هاجم مع جيشه منازكرد وارزن الروم ثم مضى الى طرابزون ، وهناك التحم مع الكرجيين والابخاز الذين تساندهم قوات رومية ، وكانت كفة الحرب تتأرجح بين هذا الفريق وبين ذاك ، حتى كانت الغلبة اخيراً للسلاجقة (٢) ووقـع في اسرهم عـدد كبير من البطارقة على رأسهم ليبارتيس القائد البيزنطي الكبير ، كما حصـــل ابراهيم على مغانم كبيرة ، حتى قيل انها حملت على عشرة آلاف عربة ،وكان منها تسعة عشر ألف درع والوف الاسرى من النساء والفتيان (٣) .

وتضيف المصادر البيزنطية الى ذلك فتقول ان ابراهـــيم حاول ان يحتل مدينة ارزن الغنية (٤) وكانت يومئذ من اعظم مراكز التجـارة في آسيا الصغرى ، فلما لم يستطع اخذها لمناعتها وصلابة موقف المدافعين عنها، اضرم فيها النيران مما ادى الى نشوب حريق هائل وصف بأنه من اعظم

١ ـ الكامل ج ٨ ص ٤٨

٢ ـ مواقف حاسمة ص ٨٦

٣ ـ الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٤٨

٤ ـ هناك مصادر ارمنية تقول انها مدينة آني العاصمة

الحرائق التي حدثت في التاريخ ، فأتى على المدينة بأسرها ، وجعلها انقاضاً ، ويقال ان عدد الذين لقوا مصرعهم في هذا الحريق بلغ مئة واربعين الف نسمة [1] .

كان امير ديار بكر ناصر الدولة بن مروان مازال يخضع لسيطرة بيزنطة ويدفع الجزية المترتبة على بلاده الى القسطنطينية ، وكان الامبراطور قسطنطين السابع قد ارسل اليه طالباً مؤازرة القوات البيزنطية المتوجهة الى المنطقة لطرد السلاجقة واجلائهم عن ارمينية واستعادة الاسرى ومن بينهم القائد ليبارتيس .

في هذه الاثناء كان ابراهيم اينال قد انسحب من المنطقة كلها بعد ان فكر بالخروج من طاعة اخيه السلطان ، ولكنه عجز امام قوة اخيه وشدة بأسه الذي اكتفى بعزله عن جميع مناصبه العسكرية ..

كان على الامير ناصر ان يتخذ موقفاً من هذا الصراع الدموي الذي نشب فجأة في المنطقة وان يعلن موقفه من احد الفريقين المتخاصمين ، السلاجقة أو الروم ، وكان في الوقت نفسه يعلم ان انحيازه الى احدهما سيثير عليه حفيظة الآخر ، وقد يتعرض له ولبلاده بالسوء ، ورأى اخيراً ان يعلن مهادنته لطغرلبك ، فبذل له الطاعة وامر خطباء المساجد في سائر بلاده ان يذكروا اسمه في الخطبة باعتباره السلطان الشرعي لهذه المناطق كلها ، وفي الوقت نفسه لم يقطع الجزية التي ما يزال يدفعها الى امبراطور الروم .

جاءت رسل الامبراطور تطلب من الامير ناصر الدولة التوسط لدى السلطان السلجوقي لاطلاق سراح القائد ليبارتيس لقاء فدية عظيمة ، ولما عرض

---

١ ـ مواقف حاسمة ص ٨٦

الامير على السلطان رغبة الامبراطور بادر هذا من فوره الى اطلاق سراح الاسير وبعث به الى القسطنطينية معززاً مكرماً ورفض ان يتسلم الفدية واعادها ايضاً الى الامبراطور .

يقول ابن الاثير [1] ان الامبراطور اعجب كثيرا بهذه البادرة الطيبة من السلطان ، ولم يشأ ان يكون اقل منه كرما ، فأمر فوراً باصلاح مسجد القسطنطينية الذي كان قد تهدم ومنعت الصلاة فيه ، فعاد المسجد الى سابق عهده وسمح الامبراطور للمسلمين المقيمين في عاصمة ملكه بأقامة شعائرهم الدينية فيه .

في عام ١٠٤٥ م . قبض الامبراطور على الملك كاكيك الثاني الذي تولى الملك في ارمينية عام ١٠٤٣ م . مستخدماً في ذلك وسائل المكر والخديعة ، فقد تظاهر بمهادنة الاسرة الباقرادونية ورغب في اقامة علاقة طيبة معها ثم وجه دعوة رسمية الى الملك كاكيك لزيارة العاصمة البيزنطية للتوقيع على معاهدة صداقة وحسن جوار ، وصدق الارمن مزاعم الامبراطور ، وجاء الملك كاكيك على رأس وفد كبير من عظماء مملكته وكله رغبة في طي الاحقاد القديمة وافتتاح صفحة جديدة مع بيزنطة . الا ان الامبراطور بدلا من ان ينفذ وعده للملك الشاب قبض عليه وارسله منفيا الى احدى جزر بحر مرمرة ..

لم يكد الشعب الارمني يعلم بالنبأ الصاعق حتى كانت جحافل الروم تجتاح ارمينية وتضع المملكة الباقرادونية تحت السيطرة البيزنطية المباشرة .

تقول المصادر الارمنية انه عندما انتقلت ارمينية مكرهة لحكم بيزنطة ، كانت تتوقع ان تعامل معاملة حسنة الا ان السادة الجدد

---

١ ـ الكامل ج ٨ ص ٥٢

ما كادوا يوطدون اقدامهم في البلاد حتى أخذوا يعاملون الأرمن باحتقار ، ويفرضون عليهم الضرائب الفادحة ثم اخذوا يتآمرون على حياة الاسر الارمنية النبيلة محاولين قتل افرادها والتنكيل بهم ، حتى لم يعد احد من المواطنين واثقاً من انه سيعيش حتى الغد ، هـذا فضلاً عن احتقارهم للأرمن بداعي ان طقوس كنيستهم تختلف عن طقوس الكنيسة البيزنطية ، فما ان جاء عام ١٠٨٠ م . حتى تم القضاء نهائياً على المملكة الباقرادونية ، وكان ذلك بمثابة الستار الاخير الذي اعلن نهاية تلك الحضارة التي دامت حوالي خمسة عشر قرناً من تاريخ الانسانية (١) .

* * *

يقول الدكتور استراجيان في كتابه « تاريخ الامة الارمنية » (٢) ان الملوك الباقرادونيين وامراءهم قد اظهروا جلداً وقوة وارادة تجاه الظروف الصعبة التي واجهوها من الامبراطوريتين العربية والبيزنطية ، فقد عمدوا الى لم شعث الامة الارمنية ، واستعادوا استقلال وطنهم القومي وانشأوا لامتهم كياناً واعادوا اليها شرفاً ومجداً كان مضاعاً ، وبالاضافة الى ذلك فقد ابقوا للأجيال تراثاً من المدنية والثقافة والفن ما تزال آثاره ماثلة الى يومنا .

فاذا ما نظرنا الى الناحية العمرانية نجد ان المدن الاوروبية الكبرى لم تتكون إلا في القرن السادس عشر وما يليه ، في حين نجد ان المدن الارمنية التجارية الكبرى قائمة منذ القرن التاسع والصناعة مزدهرة فيها وقد بلغت غاية الرقي والكمال . .

---

١ ـ صفحات من تاريخ الامة الارمنية ص ١٢٦

٢ ـ ص ٢٠٠

كانت العاصمة آني الجميلة الفاتنة ، مزدحمة بالسكان حتى ليقال ان عدد نفوسها بلغ مليوناً ، ومهما قيل حول هـذا الرقم ، فما لا شك فيه ان آني كانت في ذلك العصر تعتبر كبرى مدن زمانها ، وخير دليل على ذلك كثرة عدد الكنائس فيها فقد بلغت الفاً وواحدة ، وكذلك قصورها الشامخة ومعاهدها الكبيرة ومدارسها العديدة واسواقها المزدهرة بأنفس البضائع وانواع الصناعات ، وتجيء بعد آني من حيث الازدهار التجاري والصناعي والعمراني ارزن الروم (ارضروم) وارزن وباكاران ونخجوان ، ففي هذه المدن تمركزت المهن والصناعات العديدة لا سيما المنسوجات الحريرية ومعاملها والصياغة والحفر على الاواني والاسلحة ، الى غير ذلك من فنون الصناعات الراقية كنسج السجاد الذي يعتبر من احسن انواع السجاد في العالم اجمع .

فاذا انتقلنا الى التجارة وجدنا ان البلاد خطت في عهد الاسرة الباقرادونية اوسع الخطوات وارقاها ، وقد فتحت الدولة العربية اسواقها للتجارة الارمنية فاستفاد الشعب الارمني من جراء ذلك فائدة كبيرة .

اما المدن التي اشتهرت بالتجارة فهي آني ودوفين (دبيل) وقارص وارزن الروم وارزون ووان ونخجوان ، وامتازت ارزون عن غيرها من المدن باعتبارها مخزناً للذهب والفضة ، فقد اشتهرت هذه المدينة بغناها وثرائها ، اما سيواس وبايبرد (بابرت) فقد كانتا من المدن المكتظة بالسكان ، وكانت انواع البضائع والمصنوعات الارمنية النفيسة تحمل من هذه البلدان الى الهند وايران وحواضر الدولة العربية مثل بغداد ودمشق والقاهرة .

اما عن العمران ، فان آني ، بخرائبها لا تزال شاهداً حياً على ما بلغته الريازة الارمنية من شأو وتطور ، فالفن المعماري الارمني يعد من

أعظم مظاهر عبقرية هذا الشعب المجد الدؤوب ، ولقد سجل علماء الآثار في تنقيباتهم الكثيرة اعجابهم الشديد بالآثار الارمنية نظراً لدقتها واتقانها .

فالعالم الفرنسي الاثري تكسييه Texie يصرح بعد دراساته العميقة بأن الفن المعماري القوطي ، هو وليد الفن الارمني .

ويضيف بروسه بأن الريازة الارمينية بديعة للغاية .

ويقول شواغي Shoukhi في كتابه الاثري ان طرز بناء الكنائس في كل من روسيا وبسارابيا ورومانيا والصرب مأخـــوذ او مشتق من الطراز الارمني .

والعالم الاثري الشهير سترجيوفسكي Stert Chekovski بعـد تتبعاته العميقة اثبت ان الريازة الارمنية هي أم الريازتين البيزنطية والقوطية .

ويثبت شارل ديل ان فن العمارة الارمني كان له اثره العظيم على الشرق المسيحي وروسيا والقسطنطينية ، ويخلص من هـــذا الى ان تراث ارمينية المجيد لخير دليل على حيوية هذه الامة العظيمة .

★ ★ ★

اراد طغرلبك قبل ان يدخل بغداد ، ويتصل بالخليفة العباسي ان يوسع رقعة مملكته ، فأتم احتـــلال جميع اجزاء ايران وقضى على دولة الديالمة وغيرها ، ثم توجـه الى اذربيجان لا للغزو هـــذه المرة ، بل للاحتلال وبسط النفوذ .

كانت عاصمة الاقليم قد انتقلت من اردبيل الى تبريز ، وكان الامير ابو منصور وهسوذان بن محمد الروادي هو المتغلب على الاقليم ، فلما دخل طغرل اذربيجان سارع ابو منصور يعلن الطاعة ويخطب له في المساجد ويحمل اليه الكثير من الهدايا وقدم اليه ابنه رهينة ، فرضي طغرل عـن

ابن الروادي واقره على امارته شريطه ان يظل في طاعته ، ثم توجه الى جنزة [١] وكان عليها الامير ابو الاسوار فاعلن له الطاعة وخطب له في المساجـــد وكذلك فعل بقية امراء المقاطعات الشمالية والشرقية المتاخمة لأرمينيـــة ، وكان طغرل يأخذ الرهائن من الامراء ليضمن طاعتهم ويأمن جانبهم .

بعد ان انتهى من اخضاع اذربيجان اقتحم حدود ارمينية وتقدم الى منازكرد فضرب الحصار عليها ، الا ان المدينة استطاعت ان تقاوم ، فابقى على حصارها بعض كتائب جيشه وتقدم مع بقية الكتائب الى ارزن الروم لاحتلالها ، وهناك بلغته الانباء بأن امبراطـور الروم قـد انتهى من حشد قواته ، وانه غادر القسطنطينية في طريقه الى ارمينيـة ، ورأى طغرل ان ما بين يديه من قوات لا تكفي لصد الجيش البيزنطي القوي فعـاد مـع جيشه الى اذربيجان بعد ان فك الحصار عن منازكرد على ان يجيئها في العام التالي .

ولكن طغرل لم يرجع ثانية الى ارمينية ، بل دخل بغداد ، وتقرب من الخليفة القائم بأمر الله العباسي وزوجـه ارسلان خاتون (خديجـة) ابنة اخيه داود جغري بك ومنحه الخليفة لقب السلطـــان ركن الدولة ابا طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل يمين امير المؤمنين ، معترفاً بـه سلطاناً على جميع المناطق التي يبسط يده عليها [٢] وامر ان يذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة مباشرة .

اراد طغرل بعد ان استتب له الامر ان يحقق حلمه الكبير بالاستيلاء على الخلافة العباسية ذاتها ، فبعث الى الخليفة يطلب الزواج من ابنتـــه ،

---

١ ـ جنزه اسم اعظم مدينة باقليم أران وهي بين شروان واذربيجان وتسميها العامة كنجه ، بينها وبين برذعة ستة عشر فرسخاً .

٢ ـ سلاجقة ايران والعراق ص ٣٩

وكان يهدف من وراء هذه المصاهرة ان ينجب ولدا يكون له حق وراثة العرش العباسي باعتباره ابنا لأميرة من بني العباس .

حاول الخليفة في البدء ان يرفض تزويج ابنته من سلجوقي إلا انه ما لبث ان وافق وزفت ابنة القائم بالله الى طغرل في عام ٤٥٥ هـ . (١٠٦٣ م .) وكان طغرل قد بلغ السبعين من عمره ، ولكنه لم ينعم كثيراً بزواجه هذا فانه بعد سبعة اشهر عاوده المرض وفي اليوم الثامن من شهر رمضان من ذلك العام فارق الحياة .

كان اخوه داود جفري بك قد توفي قبله بأربعة اعوام ، وكان لداود هذا عدداً من الابناء اكبرهم آلب ارسلان ، وكان آلب يحكم بأمر عمه طغرل خراسان وبلاد ما وراء النهر يعاونه وزير قوي النفوذ واسع الحيلة يسمى ابا علي حسن بن علي بن اسحق الطوسي ويلقب بنظام الملك .

تاق نظام الملك الى ان يكون وزيراً لسلطان السلاجقة فزين لالب ارسلان انتزاع الملك لنفسه .

إلا ان احدى زوجات ابيه داود ، التي تزوجت عمه طغرل بعد وفاة زوجها ، استطاعت ان تؤثر على السلطان العجوز وتحصل منه على عهد بتولية ابنها الصغير سليمان بن داود العرش خلفاً له .

نشب القتال بين الاخوين ، وكان النصر حليف الاخ الاكبر الب ارسلان ، وفي اواخر شهر محرم من عام ٤٥٦ هـ . (١٠٦٣ م .) دخل الاخ المنتصر الري وانتهت بذلك مشكلة اول نزاع على السلطان بين آل سلجوق .

امضى الب ارسلان عدة اعوام في تفقد احوال مملكته الواسعة الاطراف ، والتأكد من استتباب الأمن في ارجائها ، وبعد ان اطمأن الى

الوضع فيها ، قرر ان يبدأ بدفع الحدود الغربية الى اقصى مدى على حساب المناطق الخاضعة لنفوذ بيزنطة ، فاجتاز اذربيجان ودخل المناطق المتاخمة على الحدود ابتداء من جورجيا في الشمال ، حتى ادنى منطقة في جنوب ارمينية [1] .

وقعت هذه الاحداث الجسام عام ٤٥٦ هـ . (١٠٦٤ م .)
ويقول ابن الاثير [2] ان السلطان الب ارسلان وصل الى مرند عازماً على قتال الروم وغزوهم ، فجاءه امير من امراء التركمان اسمه طغدكين كان يكثر من غزو الروم ، ومعه من عشيرته خلق كثير ، وضمن للسلطان سلوك الطريق المستقيم الى بلاد الروم لمعرفته بجميع دروبها ومسالكها ، فوافق الب ارسلان على مصاحبته ، فاجتاز بهم مضايق جبلية وعرة حتى بلغوا مقاطعة النخجوان ، فصنعوا سفناً عبروا بها نهر الرس وتقدموا الى بلاد الكرج في الشمال ، وقد جعل الب ارسلان مكانه على قيادة الجيش ابنه ملكشاه مع وزيره نظام الملك ، وبعد عدة معارك وحروب تمكنوا من احتلال معظم البلاد الواقعة في تلك المناطق وتدمير بعضها وقتل واسر من فيها ، ثم تقدموا باتجاه مدينة آني وكانت - كما يقول ابن الاثير - مدينة حصينة الامتناع لاترام ثلاثة ارباعها على نهر الرس والربع الآخر على نهر عميق شديد الجريان ، حتى لو انك طرحت فيه الحجارة الكبيرة لدحاها وحملها ، والطريق الى المدينة على خندق عليه سور من الحجارة الصم ، وآني بلدة كبيرة عامرة كثيرة الاهل - الكلام ما يزال لابن الاثير - فيها ما يزيد على خمسمئة بيعة ، فحاصرها الب ارسلان وضيق عليها ، إلا ان جيشه قد آيس من فتحها ، فعمل السلطان برجاً من

١ - سلاجقة ايران والعراق ص ٥٥
٢ - احداث عام ٤٥٦ هجرية

خشب وشحنه بالمقاتلة ونصب عليه المنجنيق ورماة النشاب فكشفوا الروم عن السور ثم تقدموا لينقبوه . .

بعد ان تم فتح آني ارسل السلطان البشارة الى بغداد وقرىء كتاب الفتح في دار الخليفة ، وبعث ملك الكرج ، بعد الضربات القاصمة التي نزلت ببلاده ، يطلب الهدنة فصالحه السلطان على جزية يدفعها كل سنة .

خلال تلك الفترة كانت بيزنطة مشغولة بمتاعبها السياسية وبالاعاصير التي كانت تقصف بالاباطرة حتى انها خلال عشرة اعوام فقط تعاقب على العرش ثمانية منهم ، وكان لهذا الاضطراب اثره في اطلاق يد السلاجقة وخلو الميادين من جيوش رومية كبيرة تدافع عن اراضي الامبراطورية العظيمة وترد جحافل الغزاة .

مات قسطنطين العاشر سنة ١٠٦٧ م . وتولت زوجه الامبراطورة يودوشيا الوصاية على الملك حتى يكبر اولادها ، ولكنها لما رأت اضطرام الدسائس حولها وخشيت ان تفقد العرش ، تزوجت القائد رومانوس ديوجنيس ورفعته الى العرش باسم رومانوس الرابع .

في عام ٤٦١ هـ . (١٠٦٨ م .) استأنف السلطان الب ارسلان غزواته في بلاد الروم ، وكان يهدف هذه المرة الى التوغل داخل حدود الامبراطورية ذاتها .

ولما كانت الخلافة الفاطمية لا تزال تبسط نفوذها على البلاد الشامية ، فقد اراد ان يحرر هذا الاقليم اولاً من نفوذ الفاطميين ويكون بذلك قد اصاب عصفورين بحجر واحد ، فيحقق مزيداً من التوسع في رقعة مملكته الكبيرة ، ويقدم للبيت العباسي في بغداد هدية لا تقدر .

كان السلطان يظن ان الروم قد فقدوا عنصر المبادهة في الحرب ،

نظراً للخلافات التي تهدد من كيانهم ، وان جيشهم لن يغامر بالتصدي لجحافل السلاجقة التي زرعت الخوف والرهبة في النفوس ، لهذا عمد الى تقسيم جيشه الى عدة فرق ، ووضع على كل منها اميراً من آل سلجوق ، ووجهه الى طرف من الاطراف ، مبتدئاً من منطقة طرابزون في اقصى الشمال الى كبادوكية وكيليكيا في اقصى الجنوب ، وترك بين يديه قوة كبيرة من الجند قادها بنفسه لغزو بلاد الشام واعادة الخطبة في جوامعها للخليفة العباسي اولاً ، وللسلطان السلجوقي ثانياً .

كانت حلب في ذلك الوقت كغيرها من مدن الشام تدين بالطاعة للخليفة الفاطمي في مصر فلما علم اميرها محمود بن صالح بن مرداس بنية السلجوقيين دعا اليه وجهاء المدينة وقادتها وعلماءها ، ونصحهم ان يبادروا فوراً بخلع الطاعة للفاطميين واظهار الولاء للخليفة العباسي تجنباً لمذبحة لن يستفيد منها احد ، وبدأ محمود بن مرداس بنفسه فأعلن انضمامه الى الخلافة العباسية ولبس السواد شعار بني العباس ، فلما اقترب جيش السلطان السلجوقي من حلب خرج سكانها لاستقباله بمظاهر الود والحفاوة والترحاب .

أقر السلطان امير حلب على ولايته ومكث هو نفسه في الشهباء ، وبعث ابنه ملكشاه على رأس قوات كبيرة من جيشه لاحتلال بقية المدن الشامية .

لم تنقضي سوى فترة من زمن حتى وردت الى حلب كتب ملكشاه تبشر بالفتح ، فقد استطاع الامير الشاب ان يبلغ في تقدمه بيت القدس بعد ان احتل جميع المدن الواقعة في طريقه باستثناء مدينة دمشق التي استعصت عليه لمناعة حصونها وشدة المقاومة التي اظهرتها .

امر السلطان ابنه ان يكتفي بهذا القدر من الفتح وان يعود

ادراجه بعد ان يولي من يشاء على هذه المدن ويأخذ منهم الرهائن لضمان الطاعة والولاء .

في هذه الاثناء كان الامبراطور رومانوس قد بدأ في تنفيذ خطته الحربية لاجلاء الغزاة السلاجقة عن وطنه فبلغ في تقدمه مناطق الحدود الملتهبة واشتبكت قواته مع السلاجقة في حروب وصفها المؤرخون انها كانت بالغة الشدة في الهول وارتكاب الفظائع .

غادر السلطان الب ارسلان مدينة حلب بعد وصول ابنه وجميع فرق الجيش ، وتوجه الى اذربيجان ليكون قريباً من مناطق الاحداث الدامية .

استمر القتال بين الروم والسلاجقة عامين كاملين ، وكان الامبراطور رومانوس يقود الجيش بنفسه في معظم المعارك حتى تمكن اخيراً من طرد الغزاة في الشمال ، ثم تولى القيادة من بعده مانويل كومنينوس ، وانتهى الامر بانتصار الروم على السلاجقة انتصاراً ساحقاً ، وردوهم الى ما وراء ضفاف نهر الفرات ... وكان ذلك في عام ٤٦٣ ه . (١٠٧٠ م .)[١] .

هذا النصر الكبير الذي حققه الامبراطور شجعه على التفكير جدياً في تحرير جميع المناطق والاقاليم التي انتزعها السلاجقة من بيزنطة ، بما في ذلك ارمينية الكبرى واماراتها الصغرى والجزيرة وبلاد ما بين النهرين والمناطق الشمالية في سورية .. مغتنماً بذلك فرصة تقهقر السلجوقيين الى ما وراء ساحات القتال ، وانتشار الفوضى والبلبلة في صفوفهم .

امر الامبراطور بحشد كل ما كان بين يديه من قوات وسار في اوائل عام ١٠٧١ ميلادية (٤٦٤ ه .) باتجاه ارمينية للبدء بتحريرها اولاً ، ثم ينحدر منها جنوباً وشرقاً وشمالاً لاحتلال بقية المناطق .

---

١ ـ مواقف حاسمة ص ٨٩

كان جيش الروم يتألف هذه المرة من مئة الف مقاتل (حسب تقدير المصادر الفرنجية) او مئتي الف مقاتل (كما تقدره المصادر العربية) وهو يضم الروم والصقالبة وقبائل مولدافيا وبعض طوائف الفرنج ، كما انضم اليه اثناء سيره قوات كبيرة من الارمن والكرج وغيرهم .

حين تلقى السلطان الب ارسلان انباء مسيرة جيش الروم كان ما يزال في مدينة خوى من اعمال اذربيجان ، وتلفت حواليه فوجد ان القوات التي بين يديه لا تزيد عن خمسة عشر الف مقاتل (حسب تقدير المصادر العربية) او اربعين الف مقاتل (كما تقول المصادر الفرنجية) وبالطبع فان هذا العدد اليسير لا يستطيع ان يواجه ضخامة جيش الروم العظيم . ومع ذلك فان السلطان رفض ان يتراجع الى الري ويترك البلاد فريسة في يد الروم ، كما رفض ان يمكث في مكانه ريثما توافيه قوات جديدة من شتى انحاء مملكته ، بل فضل ان يسرع نحو عدوه بما لديه من قوات ، ويضع الامر كله بين يدي الله . .

امر السلطان وزيره نظام الملك ان يحمل الغنائم والاثقال الى داخل المملكة حتى لا تقع بيد الروم اذا ما واجه الهزيمة ، اما هو ، فقد توجه مع رجاله لملاقاتهم . .

اجتاح الامبراطور ولاية غالاتيا (خلاط) فاحتلها سريعاً ، ثم سار الى منازكرد وكانت من بلدان ارمينية الحصينة فضرب حولها حصاراً شديداً ، ثم ما لبث ان سقطت في يده .

حين كان الامبراطور مقيماً على حصار منازكرد وجه طلائع من جيشه على رأسها قائده بازيلكوس لسبر اغوار الطرق والمعابر تمهيداً لمسيرة الجيش الكبير .

وكان الب ارسلان قد وجه امامه طلائع من قواته لتأمين سلامة جيشه الذي يسير طراداً ، في محـاولة لكسب كل دقيقـــة من الوقت ومواجهة الاعداء عند اقصى نقطة ممكنة .

التقت طلائع السلاجقة بطلائع الروم ، وكان لا بد ان يقع الصدام بينهما ، وما هي إلا ساعات حتى كان الســــلاجقة قد قضوا على اعدائهم واسروا القائد بازيلكوس .

وصلت هذه الانبـاء الى الامبراطور ، وقد انتهى من احتـــلال منازكرد ، وهنا وقع خلاف بين بعض الاقوام المشتركة مع الروم ، وعلى اثر هذا الخلاف اعلنت فرق الفرنجة انسحابهـا وأبت مواصلة القتـال ، واظهر الصقالبـة بوادر التمرد ، ومع ذلك فقد رأى الامبراطور ان مـا لديه من قوات ليست كافية للقضـاء على السلاجقة وحسب ، بل لاحتلال بغداد ذاتها . .

يقول المؤرخون العرب ان السلطـان الب ارسـلان رغم شـعوره بنشوة النصر حين هزم الطلائع الرومية إلا انه كان بادي الخوف والجزع لقـلة جيشه وكثرة عدوه لذا رأينـاه يحـاول في البـــدء التقرب من الامبراطور رومانوس ، فحين اقترب الجيشان ، ارسل الب ارسلان يعرض على عدوه هدنة ويعده بأن يعود ادراجه الى بلاده متجنباً في ذلك خوض المعركة الحاسمة كما تعهد بالجلاء عن كثير من المناطق التي سبق ان احتلها لا سيما المناطق التي كانت خاضعة لسيطرة الروم ، إلا ان الامبراطور ما ان استوعب مضمون اقتراح السلطان السلجوقي حتى انفرجت اساريره ، وايقن ان عدوه قد فقد كل امل في النصر ، وان هـــذا العرض يعني شيئاً واحداً فقط هو احساس العدو بالضعف والوهـن ، وهذا ما يعزز امل الامبراطور في سحق الجيش السلجوقي وابادته كلياً ، وعلى هـذا ،

فقد قال لرسول السلطان بلهجة متعالية تليق بمنصبه العظيم : يا هذا ، قل لسيدك لا سلام ولا هدنة إلا بالري . . . وعاد الرسول ليبلـغ سلطـانه جواب الامبراطور .

نتوقـف هنا قليلاً لنصور اللحظات الاخيرة التي سبقت المعركـــة الحاسمة معتمدين في ذلك على ابن الاثير . . .

يقول ابن الاثير ما خلاصته :

حين سار السلطان الى حرب الروم قال لأصحـــابه : انني اقاتل محتسباً صابراً فان سلمت فنعمة من الله تعالى وان كانت الشـهادة فان ابني ملكشاه هو ولي عهدي .

فلما رفض الامبراطور طلب الهدنة وابى ان يكون الصلح إلا في الري ، انزعج السلطان ، ودخل عليه امامه وفقيهه ابو النصر محمد بن عبد الملك البخـــاري الحنفي ، وقال له « انك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره وارجو ان يكون الله قد كتب باسمك هـذا الفتح فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي يكون فيها الخطباء على المنـابر فانهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالاجابة » .

فلما كانت تلك الساعة صلى السلطان برجاله وبكى فبكى النـاس لبكائه ودعا الله فدعوا معه ، وقال لهم بعد ذلك « من اراد الانصراف فلينصرف فما ههنا سلطان يأمر وينهي » .

ثم القى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنط وقال ان قتلت فهذا كفني . ثم أذن الناس بالقتال . .

كان الب ارسلان يعتمد بالاخص على براعـة حمــلة السهام من

فرسانه ، ووقع الاشتباك بين الجيشين في ظاهر منازكرد على ضفاف نهر اراكساس ، وزحف رومانوس في قواته دفعة واحدة ، ولم يلجأ الى نظام القوات المتلاحقة والاحتياطية المأثورة في الخطط الرومانية (١) واستمر القتال حتى مغرب الشمس وثبت السلجوقيون وابدوا منتهى البراعة والجلد .

لاحظ رومانوس ان جيشه قد لحقه الاعياء والتعب فأمر قواته بالتراجع ، والكف عن القتال لكي يتمكن من استئنافه في صباح اليوم الثاني ، وكان الظلام قد بدأ يزحف على ارض المعركة ، فلما شاهد السلاجقة حركة التراجع من الروم شددوا الضغط على القوات المتراجعة فاختل النظام ، وحدثت ثلمة في صفوف الروم ، استطاع ان ينفذ منها الفرسان الترك ، فاذا بهم قد اصبحوا في قلب جيش العدو ، وانهالت السهام المميتة على الروم كأنها الوابل ، وانقض السلاجقة من كل ناحية واخذوا يحصدون الرجال كما تحصد سنابل القمح ، فاختل النظام في المعسكر البيزنطي وضاعت صيحات القادة في هدير المعركة ووسط الدماء الجارية والجثث المتراكمة ، فولى جنود الروم منهزمين وسيوف السلاجقة تضربهم في الظهور .

حاول رومانوس ان يجمع من حوله قواته الممزقة ، ولبث يقاتل بمن بقي معه حتى اصيب بجرح اعاقه عن القتال ، ثم وقع اسيراً .

حدثت هذه المعركة التي تعتبر من معارك التاريخ الفاصلة في اواخر ذي القعدة سنة ٤٦٣ هـ . اي في اليوم السادس والعشرين من شهر آب سنة ١٠٧١ م .

في صباح اليوم التالي جيء بالامبراطور الأسير الى حضرة السلطان

---

١ ـ مواقف حاسمة ص ٩٠

الب ارسلان ، ويقال ان السلطان انبه على مسلكه ورفضه الهدنة التي سبق ان اقترحها عليه ويضيف ابن الاثير الى ان السلطان قد ضربه ثلاث مقارع بيده (١) . .

أما المستشرق جيبون فيقول انه اذا كان السلطان في ساعة الكبرياء قد سار على بعض عاداته القومية ، إلا ان مسلكه بعد ذلك قد أثار مديح اعدائه ، وان في مسلكه لدرساً لأشد العصور مدنية .

لقد انتهى هذا الاجتماع بعقد معاهدة صلح بين العاهلين الكبيرين ، تعهد رومانوس بموجبها ان يدفع فدية قدرها مليون وجزية سنوية قدرها ثلاثمئة وستون الفاً ، وان يزوج بناته من ابناء السلطان ، وان يطلق جميع الاسرى المسلمين في بلاده (٢) .

على اثر توقيع المعاهدة خلع السلطان على الامبراطور واطلق معه سراح عدد من اكابر الاشراف والبطارقة الذين وقعوا معه في الاسر وزوده بمال وحرس لكي يساعده ذلك في الوصول الى عاصمة ملكه (٣) .

ولكن رومانوس ما كاد يدخل بلاده حتى علم ان انقلاباً حدث في العاصمة وان العرش قد انتزعه قيصر جديد هو ميخائيل السابع ، فجمع رومانوس ما استطاع من مال وارسل الى السلطان مئتي الف هي كل ما حصل في يده ، معتذراً عن عجزه وقصوره ، وسأله العون في استرداد عرشه ، فوعده السلطان خيراً ، ولكن رومانوس ما لبث ان هزم في الحرب الاهلية التي نشبت بينه وبين منافسيه وأسر وتوفي في سجنه ،

---

١ ـ احداث عام ٤٦٣ هجرية

٢ ـ مواقف حاسمة ص ٩١

٢ ـ مواقف حاسمة ص ٩١

وذلك لاشهر قلائل فقط من موقعة منازكرد [1] .

* * *

قتل كاكيك الثاني شنقاً في قلعة كزيسترا على يد الروم بعد ان اعلن عليهم حرباً شعواء اعتمد فيها على حرب العصابات ، وبعد ان روع السلطات البيزنطية في عقر دارهم ، وكان مقتله في عام ١٠٧٩ م . وبذلك اسدل الستار الاخير على المملكة الباقرادونية في ارمينية ، وضاع استقلال البلاد نهائياً ، وغدت ارمينية منذ ذلك اليوم نهباً مشاعاً للسلجوقيين ثم الايوبيين والكرجيين والخوارزميين واخيراً التتار المغوليين . .

بعد معركة منازكرد وهزيمة الامبراطور رومانوس ديوجينوس اصبحت اراضي الروم مفتوحة امام السلاجقة الاتراك ، وصحت القسطنطينية فجأة لترى فداحة الخطأ الذي ارتكبته حين تخلت عن نصرة ارمينية التي كانت خلال العصور السابقة تعتبر السد المنيع الذي يقف عقبة دون امتداد نفوذ الحكم العربي الى اراضي الامبراطورية البيزنطية ذاتها. اما اليوم ، فقد مادت الارض الارمينية تحت اقدام الغزاة وغدت طريقاً سالكة الى كبادوكيا والاناضول حتى والقسطنطينية نفسها . وبدأت بيزنطة تفكر بطريقة اكثر جدية وموضوعية ...

انها تعلم الكثير عن شجاعة الجندي الارمني ، وصلابته ، وقوة مراسه ، وصبره في الحرب ، وفي الكفاح ، وفي المواقف السلبية ، وتعلم ايضاً ان الشعب الذي تمرس على النضال خلال آلاف السنين ، وكان دائماً الشجى في حلق المغيرين والغزاة والطامعين يستطيع حتى في احرج الظروف واحلك الساعات ان يثبت وجوده وينطلق من واقع فعالياته ليصنع الاعاجيب .

١ ـ مواقف حاسمة ص ٩١

بعد ان امعنت القسطنطينية النظر في هذا الامر ، رأت ان تستعين بهذا المحارب العنيد في معركتها الكبرى ضد الخطر السلجوقي الجاثم على الصدور ، وان تقوم بآخر محاولة لعرقلة هذا الزحف ، وايقاف تقدمه ، وذلك ريثما تلتقط انفاسها ، وبالتالي ريثما تتدبر امرها مع روما التي تبدو اليوم اقرب الى التفاهم منها عن ذي قبل .

تلفتت بيزنطة حولها ، فاذا بها ترى ثمة حركة نشيطة يقوم بها الارمن في مقاطعة كبيرة على الحدود الشرقية الجنوبية المتاخمة للاراضي العربية ، ونعني بها كيليكيا .

وتساءلت ، لم لا تستغل وجود هذا الشعب الابي لحماية حدودها الشرقية ، وتجعل منه خط المواجهة الاول مع السلجوقيين ؟..

ولكن بيزنطة تعلم ان الارمن لا يرتاحون اليها ، فهي بالنسبة اليهم لا تختلف عن أي غاز جاء بلادهم بقصد الاحتلال والسيطرة ، بل انها في نظرهم لاشد خطراً من الجميع ، فالعرب مثلاً ، رغم انهم جاءوا فاتحين ومهاجرين ومستوطنين الا انهم لم يحاولوا ابداً ان يتدخلوا في شؤون اهل البلاد الدينية ، واعتبروهم جميعاً من اهل الذمة ، بل ان لدى الارمن من المواثيق والعهود التي حصلوا عليها من الفاتحين العرب الاولين ما يجعلهم بمنجاة من كل خطر أو ضيق . اما بيزنطة ، فانها لاتألو جهدا في سعيها لضم الارمن الى كنيستها ، وهذا ما كان يأباه الارمن ويرفضونه ..

ومع ذلك فلا بد لبيزنطة ، وهي تواجه اليوم ساعات مصيرها الحرجة من ان تتشبث بهذا الامل لعله يبعد عنها شبح الكارثة الاليمة ..

وهكذا ، رأينا بيزنطة تغض الطرف عن قيام ارمينية الجديدة في كيليكيا ، وتشجع الارمن على الهجرة اليها .

تقول المصادر الارمينية انه بعد الكارثة التي حلت بمدينة آني

الجميلة ، انقسم الارمن الى فئتين ، احداهما آثرت البقاء تحت النفوذ البيزنطي ، والثانية ابت عليها عزتها القومية ان تعيش تحت سلطة الدولة العدوة الغادرة ، فآثرت الهجرة عن البلاد .

وكان بعض النبلاء الارمن قد هاجروا في أوقات مختلفة الى كيليكيا التي كانت تضم الكثير من المستوطنين الارمن ، سبق ان جاءوا اليها منذ سنوات الفتح العظيم في عهد ديكران الكبير واتخذوها موطناً ..

كان احد نبلاء الارمن واسمه الامير اوشين قد غادر ارمينية في عام ١٠٧٥ م وجاء الى كيليكيا ليقيم عند احد اقربائه ابو الغريب ارزوني حاكم مقاطعة طرسوس ، فاستضافه هذا واعطاه قلعة نمرود ليقيم فيها ، وكان هذا المقر يتمتع بمركز استراتيجي مرموق ، فهو المدخل الرئيسي لمنافذ كيليكيا ويعتبر من امنع المواقع الطبيعية المشرفة على منطقة كبادوكيا .

في عام ١٠٨٠ م . وصل الى كيليكيا الامير روبين واثارت انتباهه تلك المواقع الحصينة ، فاحتل بارتزرابرت التي اصبحت مهد المملكة الجديدة ، واعلن استقلال البلاد عن الحكم البيزنطي ، وسارع الامراء والبطارقة الى الانضواء تحت لوائه معلنين بذلك ميلاد ارمينية الجديدة .

* * *

المعروف ان نظام الملك وزير السلطان الب ارسلان هو اول من وضع النظم الادارية والمالية الثابتة لنظام الاقطاع في الشرق العربي ، فقد اراد هذا الوزير الفطن ان يقضي على نزعة الطمع في نفوس القادة السلجوقيين وامرائهم ، فلجأ الى نظام الاقطاع الذي سبق ان اقره من قبل بعض الخلفاء العباسيين ونفذوه في نطاق ضيق ومحدود ، فأعاد نظام الملك صياغته من جديد ، ووسع في صلاحياته واستعان به في تثبيت قواعد السلطة

السلجوقية وأخذ يوزع على هؤلاء الامراء اقطاعات تتناسب من حيث سعة الاراضي والدخل مع المكانة التي يحتلها هذا الامير أو ذاك .

يقول ابن الاثير في احداث عام ٤٥٨ هـ . (١٠٦٥ م .) أن السلطان الب ارسلان قد اقطع البلاد ، فاعطى ما زندران للامير اينانج بيغو ، وبلخ لأخيه سليمان بن داود جغرى بك ، وخوارزم لأخيه ارسلان ارغو ، ومرو لابنه الآخر ارسلان شاه ، وصغانيان وطخارستان لأخيه الياس وولاية بغشور ونواحيها للمسعود بن ارتاش وهو من أقارب السلطان وولاية اسفزاز لمودود بن ارتاش .

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية انه بعد ان استقر التركمان (السلجوقيون) في ارمينية وكبادوكيا ومعظم ارجاء آسيا الصغرى ، تبلورت الاملاك التي في الوسط والغرب في امارات مختلفة هي :

- دولة خلاط التي اسسها سكمان القطبي وضم اليها فيما بعد ميافارقين واجزاء من ديار بكر وارمينية الوسطى حتى غدت تشكل خمس بلاد ارمينية ، وقد اطلق سكمان على نفسه لقب « شاه ارمن » وكذلك فعل خلفاؤه من بعده .

- دولة آني التي اعطاها السلاجقة لبني شداد .

- دولة ارزن الروم التي حكمها بنو صلتق .

- دولة اذربيجان ، وكان يحكمها بنو منكوجق ، ثم اندمجت اخيراً بديار بكر في دولة بني ارتق .

وبقي ابناء وهسوذان الروادي يحكمون اذربيجان حتى مجيء الدولة

الاتابكية عام ٥٣١ هـ . (١١٣٦ م .) فضمت اليها اقليم اران الشمالي [١] .

وهكذا . . .

منذ بداية الاحتلال السلجوقي غدت منطقة خلاط قطب الرحى ومركز الثقل بالنسبه الى بقية مناطق ارمينية . في عام ٤٩٣ هـ . (١١٠٠ م .) استولى سكمان القطبي على مدينة خلاط ، وكان مملوكاً لقطب الدين اسماعيل الحاكم السلجوقي في مدينة مرند احدى مدن اذربيجان ، واتخذ من خلاط حاضرة لملكه [٢] ولقب نفسه « شاه ارمن » وأخذ يوسع رقعة هذه الدويلة الصغرى حتى شملت خمس مساحة ارمينية الكبرى . واستطاعت هذه الدويلة ان تواجه جحافل الطامعين وتتحدى الاعاصير العاتية التي كانت تهب عليها من كل جانب حتى عام ٦٠٤ هـ . (١٢٠٧ م .) حين استولى عليها الايوبيون ، كما ستأتي الاشارة اليه فيما بعد .

والذين حملوا لقب « شاه ارمن » من ملوك الدولة السكمانية في خلاط ، هم سكمان القطبي (٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م .) ظاهر الدين ابراهيم (٥٠٦ هـ / ١١١٢ م .) احمد بن ابراهيم (٥٢١ هـ / ١١٢٧ م .) ناصر الدين سكمان الثاني (٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م .) سيف الدين بكتمر (٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م .) بدر الدين آقسنقر (٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م .) المنصور محمد (٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م .) واخيراً عز الدين بلبان (٦٠٣ - ٦٠٤ هـ / ١٢٠٦ - ١٢٠٧ م .) [٣] .

* * *

١ ـ دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص ٧٨

٢ ـ الشرق الاسلامي ص ١٠٧

٣ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٤ ص ٨٤

ننتقل الآن الى الشمال ، حيث تقوم دولة الكرج على سفوح جبال القفقاس وشمال اران .

منذ العام الذي مني به الكرجيون بالهزيمة الساحقة امام ابراهيم اينال تقلص نفوذهم وانكمشت قواتهم الى ما وراء حدود بلادهم ، واستراح الناس الذين يعيشون في الجوار من اخطارهم المتلاحقة ، فلما انقضى عهد ملكشاه وانطوى العصر الذهبي لسلاجقة الشرق ومزقت خلافات الزعماء والقادة والامراء وحدة البلاد ، وجد الكرجيون ان الفرصة غدت سانحة امامهم ، لتجاوز واقع الهزيمة واستعادة نفوذهم في المنطقة كلها .

وحين كان الصليبيون يتوغلون جنوباً في اراضي الدولة العربية ويقيمون ممالك لهم هنا وهناك ، في انطاكية والرها وطرطوس وصور وعسقلان وبيت المقدس وغيرها ، وحين كان آل بيت سلجوق يتنازعون الملك فيما بينهم ويشنون الحروب المحلية على بعضهم البعض ، كان الكرجيون في اقصى الشمال يدقون الاسافين ويبسطون ايديهم على المناطق الارمينية المتاخمة لحدود بلادهم ، ثم راحوا يتوغلون شيئاً فشيئاً في عمق البلاد .

في عام ٥١٤ هـ . (١١٢٠ م .) استأنف الكرجيون غاراتهم ، وكانت مدينة تفليس هي هدفهم ، فزحفوا اليها وضربوا الحصار حولها .

وصل الخبر الى امراء المقاطعات القريبة وهم الملك طغرل بن محمد ، واتابكه كنتغدي ، وكان يحكم مقاطعة نخجوان حتى نهر الرس ، فبادر الى محاربة الكرجيين يؤازره الامير ايلغازي ودبيس بن صدقة من امراء مقاطعات اذربيجان وارمينية ، وقد اسفرت الحرب التي دارت بين الفريقين عن هزيمة السلاجقة وانتصار الكرجيين وحلفائهم القفجاق فاحتلوا مدينة تفليس بعد ان دكوا اسوارها ، وذبحوا عدداً كبيراً من سكانها .

واصل الكرجيون بعد ذلك غاراتهم على المناطق المجاورة ، وكان السلاجقة يبادرون الى صدهم فآناً ينتصرون وآناً ينهزمون ، وفي كل مرة كان اسفين الكرج يتوغل في العمق ، ويحدث تصدعاً رهيباً بين الدويلات الصغيرة المتنافرة .

في عام ٥٦٦ هـ . (١١٦٠ م .) جاء دور ارزن الروم التي يملكها الامير صلتق بن علي ، فزحف اليها الكرج في جموع كبيرة ، ووقعت الحرب بين الفريقين انتهت بهزيمة عسكر صلتق ووقوعه هو نفسه اسيراً بيد الكرجيين .

وكانت شاه‌بانوار اخت صلتق متزوجة من شاه ارمن ناصر الدين سكمان بن ابراهيم صاحب خلاط فأرسلت الى ملك الكرج هدية جليلة المقدار وطلبت اليه ان يفاديها بأخيها ، فأجابها الملك الى طلبها واطلق سراح اخيها الذي عاد الى ملكه بعد ان غدت دويلته الصغيرة تحت نفوذ الكرجيين (١) .

في العام نفسه زحف الكرجيون الى مدينة آني وملكوها بعد ان قتلوا خلقاً كثيراً من أهلها فجاءهم صاحب خلاط في جمع كثير من العساكر والمتطوعة ، إلا انه واجه الهزيمة النكراء ، ولم يسلم من جماعته سوى اربعمئة فارس عاد بهم الى مدينته تاركاً وراءه اشلاء القتلى تملأ الارض وجموع الاسرى تكتظ بهم المعتقلات (٢) .

بعد عام واحد جاء الكرجيون الى مدينة دبيل ، وكانت قد ضمت الى اذربيجان فاحتلوها بعد ان حطموا مقاومة المدافعين عنها وقتلوا من

١ ـ الكامل لابن الاثير (احداث عام ٥٥٦ هجرية)
٢ ـ الكامل لابن الاثير (احداث عام ٥٥٦ هجرية)

اهلها نحو عشرة آلاف نسمة واخذوا النساء سبايا بعد ان خلعوا عنهن ملابسهن وقادوهن حفاة عراة (١) . فلما وصلوا الى بلادهم انكرت نساء الكرج هذا الفعل وقلن لرجالهن لقد اتيتم سابقة خطيرة لن تسلموا انتم انفسكم من نتائجها ، فماذا لو جاءنا المسلمون غدا وفعلوا بنا ما فعلتم انتم بنسائهم ؟. وبادرت النساء فوراً الى ايواء السبايا ووزعن عليهن الكساء اللازم واكرمنهن .

وعلى اثر هذا الحادث المروع بادر شمس الدين ايلدكز صاحب اذربيجان والجبل واصفهان فجمع عساكره وحشدها ، وجاءه شاه ارمن صاحب خلاط مددا كما جاءه ابن اقسنقر صاحب مراغة وغيرها ، ثم ساروا الى بلاد الكرج في شهر صفر من عام ٥٥٨ هـ . (١١٦٢ م .) فاعملوا فيها يد النهب والسلب واعمال السبي والتقتيل ، فلما جاءهم الكرجيون في جموع كبيرة ، نشب بينهم قتال شديد استمر اكثر من شهر ، واخيراً حلت الهزيمة بالكرجيين وعاد ايلدكز الى بلاده ومعه جمع كبير من السبايا الكرجيات .

وتمضي الايام متعاقبة ، وتستمر المناوشات بين الكرج وحكام المناطق الارمينية المتاخمة لبلادهم . فنراهم في عام ٥٩٩ هـ . (١٢٠٢ م .) يعودون الى مهاجمة مدينة دبيل بعد ان اطمأنوا الى انصراف اميرها ابي بكر بن البهلوان حاكم اذربيجان عن حمايتها وادمانه الخمر . فلما جاءه وفد المدينة يناشده ان يسارع الى نجدتها ورفع حصار الكرج عنها طردهم وابى ان يترك لهوه ومجونه وخمره وشرابه لينقذ مدينة هي ركن من اركان دولته ، ووجد اهل دبيل انفسهم امام عدو يفوقهم قوة فحاربوا حتى

١ ـ الكامل لابن الاثير (احداث عام ٥٥٧ هجرية .)

كلت ايديهم ، ثم فتحوا ابواب مدينتهم للكرجيين الذين اعملوا السيف في الرقاب ، فلما استقام لهم الامر عادوا فاحسنوا الى من بقي من السكان ، وبقيت دبيل في ايديهم حتى اجلاهم عنها الخوارزمي جلال الدين .

بعد عامين أي في سنة ٦٠١ هـ . (١٢٠٤ م .) استأنف الكرجيون غاراتهم منطلقين هذه المرة من دبيل فتوجهوا الى ناحية خلاط وبلغوا مدينة منازكرد ، فأكثروا من القتل والنهب والسبي دون ان يتصدى لهم احد ، ثم اندفعوا نحو ارجيش وحصن التين المجاور لمدينة ارزن الروم، وهنا نهض طغل شاه بن قلج ارسلان صاحب المدينة لمساعدة شاه ارمن خلاط وتمكنا معاً من صد تقدم الكرجيين والحاق الهزيمة بهم .

عاد الكرجيون في السنة التالية فهاجموا ولاية خلاط وامعنوا في القتل والنهب والسلب وكان صاحب خلاط قد مات وولى الامارة ابنه الصغير ، ولم يكن للاتابك الذي يشرف على تربيته سطوة على الجند ، وهنا نهض الاهلون ، واعلنوا الجهاد ، وجاءت المتطوعة ، فانضافت اليها العساكر ، واعترضوا سبيل الكرج ، وبعد عدة معارك دارت الدائرة على الكرجيين وولوا الادبار .

ما كاد يبتعد الكرجيون عن خلاط ويزول الخطر عن المدينة حتى وثب الجيش على اميرهم الصغير المنصور محمد بن بكتمر شاه ارمن فقبضوا عليه وولوا مكانه عز الدين بلبان مملوك شاه ارمن بن سكمان .

استأنف الكرجيون في العام التالي (٦٠٣ هـ ١٢٠٦ م .) غاراتهم على ولاية خلاط مستغلين المنازعات الداخلية التي وقعت فيها وانقسام الناس بين مؤيد للمنصور الامير الصغير ، ومناصر لعز الدين الشاه الجديد . فجاءوا هذه المرة الى حصن قرس وضيقوا الخناق عليه

ولما امتنعت خلاط عن نجدة سكانه اضطر هؤلاء الى تسليم حصنهم للكرجيين.

اما مدينة خلاط نفسها فقد تفاقمت فيها الاوضاع الداخلية وعظم الخلاف بين الناس حول من يتولى الحكم فيهم ، فلما جاء عام ٦٠٤ هـ - (١٢٠٧ م .) قدم الى خلاط الملك الاوحد نجم الدين ايوب ابن الملك العادل ابي بكر بن ايوب وحارب الامير بلبان وهزمه ، ثم تقدم واحتل مدينة ارجيش ، وقد استغل اهل خلاط فرصة انشغال نجم الدين باحتلال ارجيش فاعلنوا العصيان ونادوا بشعار شاه ارمن فعاد نجم الدين الى خلاط واوقع بسكانها وقضى على التنظيم السري الذي كان يعرف في ذلك العهد باسم تنظيم الفتيان ، وكان هذا التنظيم يفرض جوا من الارهاب على المدينة وامرائها ..

وحين كان الملك الاوحد نجم الدين منشغلا في اخضاع العصاة من ابناء خلاط ، وثب الكرجيون على مدينة ارجيش التي لم تكن راضية عن حكم ابناء ايوب فاحتلوها ونهبوا جميع ماكان فيها من اموال ومتاع ثم اعملوا يد الهدم في بيوتها واسوارها حتى ابادوها تماماً .

لم يجرؤ الملك الاوحد على الخروج لمقاتلة الكرجيين لأنهم كانوا في قوة كبيرة ولأنه لم يكن مطمئناً الى اخلاص الخلاطيين نحوه ، فقد كان يخشى ان هو غادر المدينة ان تغلق في وجهه ابوابها ويقع هو وجيشه لقمة سائغة بيد الكرجيين فيهلكوا عن آخرهم . .

.. واسدل الستار

في عام ٦١٧ هـ . (١٢٢٠ م) كان اول ظهور جحافل التتار في اذربيجان وارمينية ، وكان قد اقبل شتاء ذلك العام مبكراً ، والتتار يقاتلون في همذان وبلاد الجبل ، فلما انتهوا من هذين الاقليمين ارادوا الالتجاء الى مناطق اكثر دفئاً ليقضوا فيها فصل الشتاء على ان يستأنفوا زحفهم في مطلع الربيع ، ولما كانت اذربيجان قد اصبحت قريبة منهم ، فقد آثروا دخولها .

وهكذا اقتحم التتار حدود الاقليم وراحوا يقتلون وينهبون ويحرقون ويدمرون وهم في طريقهم الى العاصمة تبريز .

حين علم اوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان واران بنبأ دخول التتار بلاده ، وكان مثل والده مدمناً على الخمرة واعمال الفسق ، رفض الخروج لقتالهم ، وارسل من عرض عليهم الصلح لقاء مال وثياب ودواب ، فقبلوا منه ذلك وساروا عنه دون ان يتعرضوا للمدينة بأذى .

كانوا يريدون التوجه شمالاً حتى بحر الخزر ليقضوا على شواطئه الدافئة فصل الشتاء ، إلا ان ملك الكرج الذي بلغته انباؤهم سارع الى

الاتصال بأوزبك وبالملك العادل ابن ايوب صاحب خلاط يعرض عليهم الصلح ، ويحثهم على ضرورة التعاون لدفـــع خطر التتار الذي يتهدد أمن الجميع وسلامتهم ، وكان اوزبك في هـــذه الاثناء قد هرب من تبريز ومعه اهله وجواريه ودنان خموره ، تاركاً مكانه شمس الدين الطغرائي فسـارع هذا الى تبني اقتراح ملك الكرج ، وكذلك فعل الملك العـــادل ، وتم الاتفاق بينهم على المضي في حشد الجيوش واتخاذ الاهبة طول فصل الشتاء حتى اذا اقبل الربيع نهضوا في وجه التتار نهضة رجـل واحـد واجلوهم عـن بلادهم .

لما سمع التتار بانباء هذا الاتفاق ، رأوا ان يعاجلوا اعداءهم القتال وان لا يدعوا لهم فرصة الحشد والاستعداد ، فبدأوا زحفهم على مدينـــة مراغة فاحتلوها عنوة وقتلوا جميع من فيها ، وكذلك فعلوا بمدينة اردبيل ، ثم هاجموا مدينة البيلقان وملكوها بالسيف وافنوا جميع سكانها ، ولم يبقوا على اي واحد منهم . وانتقلوا منها الى مدينة كنجة (جنزة) فلمـا تبينوا شدة تحصينها وقوة المدافعين عنها اكتفوا منها بقدر كبير من المال والثياب ثم رحلوا عنها الى بلاد الكرج ، وكان هؤلاء قد استعدوا لاستقبـالهم ، وحشدوا جيشاً عظيماً تم اعداده خلف الحدود ليحول دون دخول التتار الي بلادهم ، إلا ان هذا الجيش مني بهزيمة شنعـاء ، وغدت الطريق الى تفليس العاصمة مفتوحة امام التتار ، وقد قام هؤلاء بأعمال السلب والنهب والقتل والتدمير دون ان يجرأ احد على اعتراضهم ، ولما توغلوا قليـلاً في بلاد الكرج خافوا من كثرة المضايق وتعاريج الجبال وعمـــق الاودية ، فتراجعوا عنها ، واتخذوا طريقهم هذه المرة دربند شروان وتمكنوا بعد عدة معارك رهيبة من تحطيم مقاومة المدافعين عنه وعبوره الى ما وراء جبـال القفجاق وهناك اعملوا السيف في رقاب الناس . وفعلوا كل منكر وقبيح



نقد فضي يظهر على الوجه الاول صورة ملك الملوك ديكران الكبير وعلى الوجه الثاني يظهر نهر العاصي حاملا سنبلة قمح ويرمز الى العطاء والخير والحب والسلام (ضرب هذا النقد في مدينة انطاكية في عهد ديكران الكبير)

نقد عربي ضرب بمدينة ميافارقين في عهد الدولة الايوبية في خلاط كتب على الوجه الاول « الملك الاشرف مظفر الدين ابو الفتح سنة مئتا عشر وستماية » وعلى الوجـــه الثاني « الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب الامام الناصر لدين الله »



وتوغلوا كثيراً في تلك المناطق حتى بلغوا بلاد الروس والبلغار ، وقد اعدت لهم عدة كمائن في بعض المضايق الخطرة مما ادى الى افنـاء معظم قواتهم ، واضطر من بقي منهم الى الجلاء عن تلك المناطق والعودة الى بلادهم .

وكانت هذه الغارة المدمرة بمثابة لحظات التأزم الحادة التي تؤذن باقتراب النهاية .

* * *

كانت غارة التتار الاولى في عامي ٦١٧ و ٦١٨ هـ . مؤذنة بنهاية حكم السلاجقة التركمان في ارمينية وقيام الدولة الايوبيـة التي ورثت الملك من بني سكمان وبني بكتمر في خلاط والمناطق التابعة لها ، وقد توالى على حكم البلاد عدد من الامراء الايوبيين حتى عام ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م .) حين زحف السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي الى اذربيجان واران والكرج وارمينية فاحتلها وبسط نفوذه عليها جميعاً . .

كان مجيء جلال الدين الخوارزمي الى ارمينية سـببـاً في تقويض صرح الدولة الكرجية وتحطيم قوتها ، فقد تمكن جلال الدين من احتلال مدينة تفليس وبعد معارك رهيبة تم القضاء على معظم القوات الكرجية وتحطيم مقاومتها ، ثم جاء الخوارزمي الى مدينة آني فحاصرها هي ومدينة قارس اللتين يحتلها الكرجيون واجلاهم عنها ، وفعل ذلك مع شعب الابخاز في الشمال ، وبقية البلدان الكرجية . ثم جاء الى منازكرد ومنها الى خلاط وبعد ان خاض عدة معارك شديدة تمكن من احتلالها .

حين كان جلال الدين محاصراً مدينـة خلاط هاجم الكرجيون تفليس وتمكنوا من احتلالها ، وقتلوا جميع من وجدوه من جماعـة الخوارزمي ، ولما كانوا يعرفون ان جلال الدين لن يدعهم يعيشون آمنين

فيها امروا اهلها بالجلاء عنها ثم اشعلوا فيها النيران واحرقوها عن آخرها وكان هذا آخر العهد بتلك المدينة العظيمة .

لم يدم حكم جلال الدين في ارمينية كثيراً ، فقد كانت هنالك سحب داكنة تزحف ببطء لتغمر منطقة الشرق كلها بالظلام وتضع النهاية المفجعة للخلافة العباسية التي كانت تعتبر مظهراً للحكم العربي في المنطقة كلها .

جاءت النهاية في مشهد درامي فاجع مثل في صباح يوم الاحد ٤ صفر ٦٥٦ هجرية (١٠ شباط ١٢٥٨ ميلادية) حين طرق هولاكو ابواب بغداد ، وخرج لاستقباله المستعصم بالله آخر خليفة عباسي ومعه اولاده الثلاثة : ابو العباس احمد وهو اكبرهم وابو الفضائل عبد الرحمن اوسطهم وابو المناقب مبارك اصغرهم . كما خرج معه ثلاثة آلاف من القضاة والفقهاء والصوفية والامراء واعيان المدينة .

وتروي كتب التاريخ الكثير عن المقابلة التي تمت بين هولاكو والخليفة ، وما دار فيها من احاديث ومناقشات ، كما تروي الكثير عن المجزرة الرهيبة التي جرت في بغداد خلال الايام التالية ، وعن مصرع الخليفة وابنيه الاكبر والاصغر ، وأسر ابنه الاوسط مبارك مع اخواته الثلاثة فاطمة وخديجة ومريم . وما تبع ذلك من سقوط الشرق العربي كله تحت نفوذ الحكم المغولي باستثناء الاقليم المصري والجزيرة العربية وبلدان المغرب العربي .

كانت ارمينية قد سبقت بغداد في الانضواء تحت السيطرة المغولية بعد ان دمرت مدنها وفني شعبها ، وتعرضت لحرب ابادة لم يسبق لها نظير في التاريخ .. وظلت ارمينية والاقاليم المجاورة لها ضمن النفوذ المغولي حتى جاء الايلخانيون فانتقلت اليهم ، واخيراً جاء دور الاتراك العثمانيين . . .

وهنا اسدل الستار الاخير .

القسم الثاني

مواطنون ورعايا

الارمن والمجتمع العربي

حتى نستطيع ان نكون فكرة صحيحة وموضوعية عن طبيعة الحياة في ارمينية خلال فترة الحكم العربي ، وعن العلاقات الاجتماعية والسياسية التي كانت تربط الاقليم بحاضرة الدولة العربية ، لا بد لنا ، في البدء ، ان نستعرض النظم الادارية والمالية التي كانت تسود المجتمع العربي ككل ، ذلك لأن هذه النظم هي بمثابة السلك الذي تنتظم فيه حبات العقد ، وسنحاول في هذه الالمامة السريعة ان نتناول كل ما من شأنه ان يفيدنا في بلورة الصورة التي سنكونها فيما بعد عن الاقليم ، ويجلو مناحي الفكرة العامة حوله . .

مصادر بيت المال

كان بيت المال في الدولة العربية يمثل وزارة المالية في عصرنا الحاضر ، وكان ثمة موازنة دائمة تحاول ان توفق بين الواردات والنفقات ، وكان بيت المال عرضة لتقلبات كثيرة نتيجة للاوضاع التي كانت تسود الدولة العربية ، فآنا يكون بيت المال مليئاً متخماً ، وآنا ينكمش ويتقلص حتى ليكاد يخلو من الدانق .

يعتمد بيت المال على موارد ثابتة من أهمها :

١ — الخراج

هو مقدار معين من المال او الحاصلات يفرض على الاراض التي فتحها المسلمون عنوة ، هذا اذا امتنع الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، وجعلها وقفاً لمصلحة الدولة فيستمر اصحابها قائمين على العمل فيها لقاء ضريبة سنوية يدفعونها لبيت المال وتسمى « الخراج » .

وهناك ثلاثة انواع من الاراضي المحتلة لا يدفع عنها الخراج ، وانما يدفع عنها اصحابها عشر ثمارها وغلاتها ، وتسمى الاراضي العشرية وهي :

١ ـ الارض التي اسلم اهلها وهم عليها بدون حرب .

٢ ـ الارض التي ملكها المسلمون عنوة اذا قسمت على الفاتحين .

٣ ـ الارض التي كانت تؤخذ عنوة وهذه تعتبر غنيمة بين الفاتحين .

والعشر هنا بمعنى الزكاة .

اما مقدار الخراج فقد اختلف المؤرخون في تقديره ، فبعضهم قصره على جزية الرؤوس التي فرضت على اهل الذمة ، والآخر جعله على ضريبة الارض ، وراعى في تقديره كمية المحصول ومساحة الارض وجودتها ، وكان يؤدى أما نقداً واما حصة معينة من المحصول ، او من كليها ، وقد ساد الدول الاسلامية نظامان لجباية الخراج هما نظام المقاسمة ونظام الالتزام .

وقد حرص الخلفاء العباسيون على عدم ارهاق المزارعين بالضرائب ، فالغى ابو جعفر الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الحنطة والشعير

واحل محلها نظام المقاسمة ، وهو ان يفرض الخراج على الارض بنسبة مواتية من غلتها ، على حين ابقى الضريبة النقدية على المحاصيل الاخرى .

وفي زمن المهدي امر ان تجبى الضرائب تبعاً لما تنتجه الارض من محصول كبير او قليل . فاذا كانت الارض ممتازة الخصب ولا تحتاج الى مجهود كبير كان على الزارع ان يقدم للحكومة نصف غلتها ، اما اذا تعذر عليه ريها دفع الثلث ، او الربع او الخمس تبعاً لطبيعة الارض والجهد المبذول في الانتاج .

٢ — الزكاة

هي الحد المالي الواجب على المسلم شرعاً ، ولا تعد مورداً مالياً للدولة بالمعنى الصحيح ، بل هي مال يؤخذ من الغني ويعطى للفقير ، ولا تنفق الدولة منه على اصلاح مرافقها ، فهي من هذه الوجهة ضريبة لاصلاح المجتمع فقط في حدود معينة .

٣ — الجزية

وجبت الجزية على اهل الكتاب ، كما وجبت الزكاة على المسلمين ، حتى يتكافأ الفريقان وهما رعية لدولة واحدة في المسؤولية ، كما تكافآ في التمتع بالحقوق وتساويا في الانتفاع بالمرافق العامة للدولة .

وهي تشبه الخراج في ان كلاً منهما جزء من الفيء يجبى في اوقات معينة كل سنة ، ولكنهما يختلفان في ان الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بالاسلام ، في حين ان الخراج موضوع على الارض ولا يسقط باسلام المالك .

والجزية تؤدى على قدر طاقة الشخص ، لذلك جرى تقسيم الاشخاص الخاضعين لها الى ثلاثة اقسام :

الاغنياء – ويدفع الشخص منهم ٤٨ درهماً في العام .

الطبقة الوسطى – ويدفع الشخص ٢٤ درهماً .

الفقراء – ويدفعون ١٢ درهماً للشخص الواحد .

وقد رؤي في بعض العهود ان تؤخذ الجزية على اقساط تسهيلا لأمور الناس ، حتى بلغت احياناً ستة او خمسة اقساط في السنة .

ولا تجبى الجزية إلا من الرجال الاحرار ذوي القدرة البدنية والعقلية القادرين على العمل والانتاج ، ولا تؤخذ من مسكين يتصدق عليه ، ولا من لا قدرة له على العمل ، بسبب عاهة ، او شيخوخة او غير ذلك ، ولا من المترهبين ورجال الدين واهل الصوامع ، إلا اذا كان واحداً من هؤلاء غنياً وذا يسار ، وقد جرت العادة بأن يعطى لمن دفع الجزية براءة تثبت اداءه لها .

ويلاحظ ان الشرع لم يفرض الجزية إلا على الاشخاص الذين يجب عليهم الجهاد اذا كانوا مسلمين ، وانه اعفى منها الاشخاص الذين يعفيهم القتال .

أما جباية الجزية فقد اوصى صاحب الشرع وقادة الاسلام بالرفق والانصاف في جبايتها من اهل الكتاب وصيانة ارواحهم واموالهم من العدوان وعبث الجباة والولاة .

وقد رسم الخليفة عثمان بن عفان السياسة التي يسير عليها عماله في هذه العبارة التي رواها الطبري في حوادث سنة ٢٤ هـ . إذ كتب الى عماله يقول :

« اما بعد ، فان الله أمر الأئمة ان يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم ان يكونوا جباة ، وان صدر هذه الامة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن ائمتكم ان يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء ، الا وان اعدل السيرة ان تنظروا في امور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء ... »

وقد علق الدكتور طه حسين على هذا الكتاب فقال : انه قد امر العمال بأن يكونوا رعاة لا جباة ، أي ان تكون غايتهم من الحكم الرفق بالمحكومين لا اغناء الحكومة وارضاء حاجة الحاكمين الى الغنى أما مايتعلق بأهل الذمة فان الكتاب يخص المعاهدين منهم ، فهم كالمسلمين في استحقاقهم للعدل لهم ما للمسلمين من حق ، وعليهم ما على المسلمين من واجب اذا نصحوا واخلصوا واوفوا بما عاهدوا عليه ..

يحدثنا القاضي ابو يوسف يعقوب في كتابه « الخراج » ان عياض ابن غنم حين حاصر مدينة الرها ، وهرب عنها حماتها من الروم بعث اليه اهلها يطلبون الصلح ، فكتب عياض الى ابي عبيدة بن الجراح القائد العام للجيش العربي في المنطقة يسأله الرأي ، وقد اراد ابو عبيدة ان لا ينفرد وحده بالرأي فاستعان بمعاذ بن جبل ، وهذا طلب اليه ان يجعل الصلح على قدر مستطاع ، وقال له « انك ان اعطيتهم الصلح على شيء مسمى فعجزوا عنه لم يكن لك ان تقتلهم ولم تجد بداً من ابطال ما اشترطت عليهم من التسمية ، فاقبل الصلح واعطهم اياه على ان يؤدوا الطاقة ، أيسروا او أعسروا لم يكن لك عليهم الا ما يطيقون وتم لك شرطك ولم

يبطل » فوافق ابو عبيدة على هذا الرأي وكتب به الى عياض .

يقول ابو يوسف ايضاً ان ابا عبيدة حين بلغه نبأ تجمع الروم واستعدادهم لمحاربته في الشام ، وحين رأى ان جيشه قد لا يستطيع الدفاع عن سلامة المدن التي تم له افتتاحها من بلاد الشام والجزيرة ، كتب الى والي كل مدينة يأمره ان يعيد الى اهل المدينة ما جبى منهم من الجزية والخراج وطلب اليه ان يقول لهم « انما رددنا عليكم اموالكم لانه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم اشترطتم علينا ان نمنعكم (أي نحميكم)، وانا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم » .

وقد استغرب اهل المدن ما رأوه من عدل وحلم وانسانية ، وقالوا اننا لم نسمع بمثل ذلك من قبل وان الروم ما كانوا ليردوا علينا اموالنا التي جبوها ، بل انهم لم يتركوا بين ايدينا حين هربوا اي شيء .

٤ ـ الالتزام

يرجع نظام الاقطاع والالتزام في الاسلام الى عهد الرسول الكريم ، وهو يعني في البدء جزء صغير من ارض الخراج يقطعها الخليفة للجندي فتدر غلتها فتصير له رزقا واجراً ، وذلك بعد ان يكون هذا الجندي قد امضى سنوات شبابه في الجيش مقاتلا وغازيا وفاتحاً ، فهو لذلك بحاجة الى نوع من الضمانة تعينه على مواجهة سنوات الشيخوخة والعجز .. فكانت هذه الاقطاعات الصغيرة ، بمثابة الراتب التقاعدي المعروف في هذا العصر .

ثم توسع الخلفاء العباسيون المتأخرون في تفسير مضمون هذا النظام .

ففي القرن الثالث الهجري حين استأثر الاتراك بالسلطة اخذوا يقطعون الولايات على ان يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من مال كل عام .

وفي القرن الرابع الهجري شاع مبدأ منح الموظفين المدنيين اقطاعات بدلا من الرواتب ، وذلك حين استأثر بنو بويه بالسلطة في العراق ، وكان اقطاع الوزير يؤخذ منه اذا عزل ويعطى لمن يخلفه في الوزارة ، واستولى الامراء البويهيون على ضياع الخلافة ، ومنحوا الخلفاء انفسهم اقطاعات خاصه بهم يعيشون من وارداتها

وسار سلاطين السلاجقة على هذا المبدأ ، فكانوا يسندون الى بعض مماليكهم الذين يظهرون كفاءة خاصة او صفة حربية ممتازة حكم اقليم من من اقاليم دولتهم ويعهدون اليه بتنشئة احد ابنائهم ، ولما ضعف البيت السلجوقي رأينا كيف تقاسم هؤلاء الامراء ملك السلاجقة واورثوه ابناءهم ..

فلما جاء عماد الدين زنكي ادرك ضرورة اقطاع قواده بعض الامارات المحلية في الجزيرة والشام وشرقي الموصل وفي الامارات الصليبية وكان يرمي من وراء ذلك الى قيام المقطع بادارة شؤون الولاية باعتباره والياً من قبله ، او لابعاد الشخص الذي يرى في وجوده باحدى الولايات خطراً على نفوذه ، أو مكافأة لأحد المقربين اليه اعترافاً بولائه له وما أداه من خدمات ممتازة لدولته ، او لتشجيع بعض الامراء المناوئين له على تسليم حصونهم مقابل اقطاعهم بعض المناطق .

وهكذا رأينا كيف اسيء فهم نظام الالتزام الذي وضع في صدر الدولة الاسلامية لفائدة المحاربين الذين اوقفوا حياتهم على الجهاد فاصبح سلاحا ذو حدين يستخدمه المسؤول في تحقيق اهدافه وضمان استتباب الامور بين يديه .

ثمة سؤال لا بد من طرحه بهذه المناسبة ، فقد قيل الكثير عن الاساليب التي كانت تستخدم في الحروب ، وضد المدن التي تظهر مقاومة عنيدة .

فالقاعدة المتبعة منذ البدء في الدولة العربية انه اذا تم فتح مدينة ما عنوة فان للفاتحين الحق في ان يقتلوا المحاربين او من يعين على الحرب، فاما المرأة والشيخ الفاني والاعمى والمقعد ونحوهم فلا يجوز قتالهم مالم يكن احدهم ذا رأي في الحرب يوجه قومه ويؤلبهم على قتال المسلمين .

هذه القاعدة لم يوجدها العرب بل هي قاعدة معروفة منذ القديم، وكان الرومان في عصور امجادهم يعطون الحق لأنفسهم بقتل معظم اهل المدينة المفتوحة ، لا فرق في ذلك بين المحاربين والمدنيين .

اما العرب فقد استثنوا غير المحاربين من ذلك واعتبروا وضعهم من الناحية النظرية وضع الاسرى ، وقد اعتبرهم الخليفة عمر بن الخطاب ملكاً للدولة ، واعتقهم ، فاصبحوا موالي للعرب ، وتركهم يعملون في الارض أو في مهنهم على أن يؤدوا الخراج عما يزرعون من الارض والجزية عن رؤوسهم وتسقط الجزية بالاسلام فلا يبقى إلا الخراج .

ولم تجر العادة عند العرب باسترقاق اهل البلد المفتوح عنوة بصورة عامة ، بل الغالب ان هذا كان يجري على المحاربين واهلهم وعبيدهم ، وربما جرى على أهل المدن الذين قاتلوا المسلمين قتالاً عنيفاً ، وفي هذه الحالة فانهم جميعاً يعتبرون رقيقاً ، يؤخذ خمسهم للدولة للتصرف فيهم على انهم فيء ، ويوزع الباقي على الفاتحين .

وعلى هذا فان عمليات الاسترقاق الجماعية لم تكن تجري الا عقب

المعارك أو عقب دخول المسلمين البلد مباشرة ، ثم يعلن الامان ، ويصبح بقية اهل البلد موالي للدولة الاسلامية ، ويتركون احراراً .

الامارة على الاقاليم

عرف العرب في العصر الجاهلي حكومة القبيلة ، وكان شيخ كل قبيلة يجمع رؤساء العشائر للتشاور والفصل في الامور ، وكان لكل قبيلة نظام تمشي عليه وتأخذ به ، وهذا النظام مستوحى من العرف الذي كان سائداً في مجتمعاتهم ، والذي كان عندهم في مقام القانون .

لما ظهر الاسلام احل الوحدة الدينية محل الوحدة القبلية واصبح المسلمون متساوين جميعاً ، ولم تكن حكومة الرسول الكريم حكومة دينية فحسب بل كانت حكومة سياسية ايضاً ، لقد كان النبي محمد (ص) يقود الجيوش ويفصل في المنازعات ويجبي الاموال ويوزع الغنائم ، فلما هاجر الى المدينة وضع نظام الدولة ، فكان ينيب عمالا على القبائل وعلى المدن ، فكان على كل مدينة كبيرة او قبيلة في الحجاز واليمن عامل من قبله ، وكانت وظيفة هؤلاء العمال امامة المسلمين في الصلاة وجمع الزكاة والقضاء ..

لما بدأت الفتوحات الاسلامية اكتشف الفاتحون ان النظام الاداري الفارسي والرومي الذي كان سائداً في الاقاليم المفتوحة انما هو حصيلة حضارة عريقة ومجيدة فابقوا عليه واضافوا اليه بعض التعديلات والاصلاحات بما يتفق مع عقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التي دانت لهم .

بدأ الخليفة ابو بكر بتقسيم بلاد العرب الى عدة ولايات صغيرة ، فلما اتسعت رقعة الدولة العربية في عهد الخليفة عمر اعاد تقسيم البلاد الى ولايات ادارية اكبر قليلا ليسهل حكمها والاشراف عليها وعين لها عمالا

وولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة الذي كان يجمع في يده السلطات التنفيذية والقضائية والتشريعية .

كان امراء الاقاليم يسمون « عمالا » ومعنى عامل يفيد ان صاحبه ليس مطلق السلطة ، ثم استبدلت بكلمة « والي » وهذه الكلمة تشعر بالنفوذ والسلطان ، ثم اطلق عليه لقب « امير » وهذا يدل على السلطة الاستبدادية التي كان يتمتع بها هؤلاء ، لا سيما اذا تذكرنا ان لقب (امير) يطلق عادة على امراء البيت المالك ..

كان يقوم في كل اقليم عامل (او وال او امير) يقوم بامامة الناس في الصلاة والفصل في النزاع وقيادة الجند وجمع المال وما الى ذلك .

وكان يساعده موظف كبير يسمى العامل او صاحب الخراج ، لأن عمله مقصور على جمع الخراج وجميع انواع الضرائب الاخري وارساله الى بيت المال في حاضرة الدولة ، والانفاق على ما تتطلبه الولاية من ضروب الاصلاح ، وكان هذا الموظف لا يقل في المنزلة عن الوالي والامير فيخاطب في المراسلات الخاصة بما يخاطب به الوالي .

هناك ايضاً الى جانب الوالي وصاحب الخراج ، يوجد صاحب البريد، الذي يتولى مراقبة كل من الامير والعامل ويرصد نشاط الاعداء والخارجين على القانون ، واصحاب المطامع والمغامرين ، وهو بذلك يقوم بالدور الذي يقوم به رئيس قلم المخابرات في وزارة الدفاع اليوم .

كانت مهمة صاحب البريد في اول الامر هي توصيل الاخبار الى الخليفة من عماله في الاقاليم ، ثم امتدت سلطته حتى اصبح عينا للخليفة، ينقل اوامره الى ولاته كما ينقل اخبار ولاته اليه .

في العصر العباسي الاول كان النظام الاداري مركزيا ، وتحول ولاة الاقاليم الى عمال بعكس الحال الذى كان عليه في زمن الامويين ، ولم

يكن الذين كانوا يكلفون بالولاية من الشخصيات البارزة بل مجرد عمال وموظفين . وكان من أهم الموظفين في الولايات الاسلامية في العصر المذكور : صاحب بيت المال ، وصاحب البريد ، والقاضي ، اما الوالي فقد اقتصر عمله على الصلاة وقيادة الجند .

وقد استمر هذا النظام المركزي الى زمن الرشيد الذي اطلق يد اعوانه من الرجال الذين ولاهم الاقاليم .

حين ولي الرشيد الخلافة عين مربيه وصديقه يحيى بن خالد البرمكي كبيراً لوزرائه ، وخاطبه قائلا :

« قلدتك امر الرعية ، واخرجته من حقي اليك ، فاحكم ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الامور على ماترى » .

ومنذ ذلك التاريخ ظهر النظام اللامركزي في الدولة وبدأ نشاط اصحاب المطامع والغايات .

وقد صاغ الفقهاء نظرية الامارة على البلدان والاقاليم فجعلوها امارتين ، عامة وخاصة ، وجعلوا العامة على نوعين : امارة استكفاء بعقد عن اختيار وامارة استيلاء بعقد عن اضطرار . فامارة الاستكفاء بعقد عن اختيار هي ان يفوض الخليفة الى الوالي امارة بلد او اقليم .

وامارة الاستيلاء بعقد عن اضطرار ، هي ان يستولي احد الامراء قسراً على ولاية من الولايات فيضطر الخليفة الى اقراره عليها ويفوض اليه تدبيرها وسياستها .

اما الامارة الخاصة فهي ان يقصر الخليفة عمل الوالي على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة والذب عن الحريم دون التعرض للقضاء والاحكام او جباية الخراج والصدقات .

* * *

كانت ولاية الاقاليم من المناصب الرفيعة في الدولة الاسلامية ، ويصف لنا القلقشندي في كتابه صبح الاعشى كيفية تقليد الخلفاء العباسيين ولاة الاقاليم فيقول :

« اذا كان الذي يوليه الخليفة من ملوك النواحي البعيدة عن حضرة الخليفة ، جهز له التشريف من بغداد ، صحبة رسول من جهة الخليفة ، وهو جبة اطلس اسود بطراز مذهب ، وطوق من ذهب يجعل في عنقه ، وسوار من ذهب يجعلان في يديه ، وسيف قرابه ملبس بالذهب ، وفرس بمركب من ذهب ، وعلم اسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ينشر على رأسه .

فاذا وصل ذلك يلبس الوالي الخلعة والعمامة ويتقلد السيف ويركب الفرس ويسير في موكبه الرسمي حتى يصل الى محل ملكه » .

أهل الذمة في الاسلام

اعطى التشريع الاسلامي أهل الذمة كل الحرية في ممارسة حياتهم الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية ، ولم يكن يحول بين الذمي وبين ما كان يريد ، مكتفياً بالجزية اليسيرة التي يأخذها منه كل عام .

وكان الذمي يطرق ابواب العمل فيراها مفتوحة امامه على مصاريعها، فكان هذا دافعاً له الى اختيار نوع من الاعمال او الصناعات تدر عليه الارباح الوفيرة [١] ، فكان منهم الصيارفة والتجار او اصحاب الضياع والاطباء ، بل ان اهل الذمة نظموا انفسهم ، بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلاً من اليهود ، على حين كان اكثر الاطباء والكتبة

١ ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٦٨

من النصارى . وكان رئيس النصارى في بغداد هو طبيب الخليفة ، وكان رؤساء اليهود جهابذتهم عنده [١] .

وقد اعتبر كل من ابي حنيفة وابن حنبل حياة الذمي متكافئة مع حياة المسلم وديته دية المسلم ، أما مالك فيعتبر دية اليهودي او النصراني نصف دية المسلم ، وعند الشافعي ثلثها ، اما المجوسي فديته جزء من خمسة عشر جزءاً من دية المسلم [٢] .

ولم يكن يوجد في المدن الاسلامية احياء مختصة لليهود او للنصارى بحيث لا يتعدونها ، وان آثر أهل كل دين ان يعيشوا متقاربين ، وكانت الاديرة المسيحية منتشرة في كل اجزاء بغداد ، حتي كادت لا تخلو منها ناحية [٣] .

كان اهل الذمة يعاملون في مارستانات بغداد معاملة المسلمين ، وكان موتى المسلمين واهل الذمة يدفنون كل على حدة ، وقد حدث مرة في عام ٣١٩ هـ . (٩٣١ م .) ان داهم تكريت سيل كبير فغمر منها اربعمئة دار واغرق خلقاً كثيراً ، واضطر الناس فيما بعد ان يدفنوا موتاهم مجتمعين لا فرق في ذلك بين المسلمين والنصارى [٤] .

انطلاقاً من مبدأ الحرية الدينية والفكرية والعقائدية التي سادت المجتمع الاسلامي منذ بدء تكوينه ، فقد سمحت الدولة لمختلف اهل الملل

١ ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٦٨

٢ ـ كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي طبعة ليدن ١٨٩٥ ص ٥٥ (الحضارة الاسلامية ٢ ـ ٦٩)

٣ ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٧٥

٤ ـ الكامل لابن الاثير (احداث عام ٣١٩ هـ .)

الاخرى ان يمارسوا اوضاعهم الاجتماعية والحقوقية طبقاً لما في كتبهم المقدسة ، فنشأت المحاكم الروحية الخاصة للنظر في اوضاع غير المسلمين ، وكل حسب العشيرة التي ينتمي اليها ، مع وجود الحكم المدني الذي يضع جميع المواطنين على قدم المساواة امام العدالة .

وعرف الشرق الاسلامي في ازهى عصوره المحاكم الكنسية ، وكان الرؤساء الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة الى جانب واجباتهم الدينية ، ولم تقتصر احكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل ايضاً مسائل الميراث واكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم ، على انه يجوز للذمي – ان اراد – ان يلجأ الى محاكم الدولة الرسمية (١) .

وكما ان الدولة الاسلامية افسحت المجال امام اهل الذمة لأن ينشئوا المحاكم الدينية الخاصة بهم كذلك سمحت لهم باقامة شعائرهم الدينية على اوسع نطاق ، وقد بلغ من بعض الخلفاء انه كان يحضر مواكبهم واعيادهم ويأمر بصيانتهم (٢) ، وفي حالة انحباس المطر كانت الحكومة تأمر بتنظيم مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الاسقف واليهود ومعهم النافخون في الابواق .

هذا في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الرسمية في الدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير حد العداوة والبطش والايذاء ، حتى اننا نجد مؤرخي اليعقوبيين مثلاً يصفون البطارقة الذين عينتهم الدولة في انطاكية بانهم اضل من فرعون واكثر كفراً بالله من بختنصر (٣) ولقد منعت الكنيسة الرسمية نصارى

١ – الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٧٥
٢ – الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٧٥
٣ – الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٧١

ارمينية من استعمال النواقيس (١) وكثيراً ما كان رجال الشرطة العرب يتدخلون بين الفرق النصرانية لمنعهم من المشاجرات حتى عين حاكم انطاكية في القرن الثالث الهجري رجلا يتقاضى ثلاثين ديناراً من النصارى في الشهر وكان مقره قرب المذبح وعمله ان يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضا .

وفي بغداد نفسها كان ثمة تحاسد وتنابذ بين النساطرة واليعاقبة ، حتى بين اهل النفوذ من النصارى الذين كانوا يتولون المناصب الهامة في الدولة ، وهذا عيسى بن شهلا الطبيب لما تولى الطبابة (أي اصبح طبيباً خاصاً للخليفة) اغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والاساقفة بأخذ اموالهم لنفسه ، حتى انه كتب الى مطران نصيبين كتاباً يلتمس منه فيه من آلات البيعة اشياء عظيمة المقدار ويهدده ، ومما جاء في كتابه اليه « ألست تعلم ان أمر الملك بيدي ان شئت امرضته وان شئت عافيته ؟. » فما كان من المطران الا ان بعث بالكتاب الى الربيع صاحب الخليفة فانتقم هذا منه (٢) .

كان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الاساقفة ويجالسونهم، فالهادي كان يستدعي اليه الاسقف تيموثاوس في اكثر الايام ويحاوره في الدين ويبحث معه ويناظره ويطرح عليه كثيراً من المشكلات ، وله معه مباحث طويلة ضمنها كتاباً ألفه الاسقف في هذا الموضوع .

وكذلك كان يفعل هرون الرشيد وغيره ، وكثيراً ما كان الاساقفة يطلبون من الخلفاء ان يثبتوهم في مناصبهم للاعتزاز بذلك على اخصامهم او منازعيهم ، وكان النصارى يهدون الخلفاء ايقونات بعض القديسين فيقبلونها منهم (٣) .

١ – الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٧١
٢ – التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١٣٥
٣ – التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١٣٨

اما عن الوظائف الادارية التي كان أهل الذمة يشغلونها في الدولة الاسلامية فهي كثيرة ومتعددة الاختصاصات ، ويحكى ان الموالي الفرس لما اخذوا في تنظيم الادارة الحكومية وترتيب دواوينها شعروا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من اهل الذمة في العراق والشام ، اذ كانوا من اهل معرفة في الحساب والكتابة واعمال الخراج فضلا عن الطبابة ومختلف انواع العلوم الاخرى . فعرضوا عليهم العمل ، واطمعوهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم اسباب المعيشة وقربوهم واكرموهم ، فأطمأن هؤلاء اليهم وتقاطروا الى بغداد ، وخدموا العباسيين بعقولهم واقلامهم بما انسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين لهم .

وكان ممن تولى ديوان الجيش من النصارى في الدولة العباسية ملاك بن الوليد، قلده اياه المعتصم ، واسرائيل النصراني، قلده اياه الناصر لدين الله ، وادرك بعضهم رتبة الوزارة فتقلد امرها ابو العلاء صاعد بن ثابت في ايام المتقي بالله .

يقول آدم متز في « الحضارة الاسلامية » استناداً الى المقدسي ويحيى بن سعيد .

ان من الامور التي نعجب لها كثرة عدد العمال ، والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، فكان النصارى الذين يحكمون المسلمين في الاسلام هم من الكثرة بحيث اننا نرى من ان الشكوى من تحكيم اهل الذمة في ابشار المسلمين (اجسامهم) واموالهم شكوى قديمة يعود تاريخها الى صدر الاسلام (١) . وكانت الحركات التي يقصد بها مقاومة النصارى موجهة اولا الى محاربة تسلط اهل الذمة على المسلمين ، ومع ذلك فقد كان الكتاب المسيحيون منتشرين في كل مكان .

١ ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٨٧ عن عيون الاخبار لابن قتيبة

وقد اعتمد عدد كبير من الخلفاء والقادة على كتاب مسيحيين في ادارة اعمالهم ، وكانت لهم الحظوة عندهم والكلمة النافذة ، فهذا نصر ابن هرون وزير عضد الدولة البويهي يستأذن سيده في عمارة البيع والديرة وفي اطلاق المال لفقراء النصارى فيأذن له (١) .

وقد افتى بعض فقهاء الاسلام الكبار بأنه يجوز ان يكون الذمي وزير التنفيذ لا وزير التفويض ، لذلك رأينا الخليفة المأمون يولي مدينة بوره بمصر عاملا مسيحياً ، فكان اذا جاء يوم الجمعة لبس العامل السواد، وتقلد بالسيف والمنطقة ، وركب برذونا ومشى قدامه اصحابه ، حتى اذا وافى المسجد توقف ، ودخل خليفته ، وكان مسلما ، فصلى بالناس وخطب للخليفة ثم خرج ليعود الوالي في موكبه الرسمي الى مقر ولايته (٢) .

١ ـ الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٥١٨
٢ ـ الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٩١

ارمينية ولاية عربية

في بدء العصر العباسي ـ اي في زمن المنصور ـ بلغت مساحة المملكة العربية ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، أي ما يساوي مساحة القارة الاوروبية كلها ، وتمتد حدودها من بلاد السند وما وراء نهر بلخ شرقاً حتى سواحل المغرب الاقصى على المحيط الاطلسي غرباً ، وبعض مرتفعات ارمينية والقوقاز شمالاً حتى جنوب الجزيرة العربية واراضي النوبة في افريقيا جنوباً .

وهذه المساحات تشمل في عصرنا الراهن البلاد التالية :

السند ، بلوخستان ، افغانستان ، ايران (مع بلاد اخرى في شرقيها) ، تركستان الروسية ، القوقاز حتى مدينة تفليس ، ارمينية ، الجزيرة العربية ، مصر ، بلاد النوبة ، السودان ، ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، ثم سورية والعراق وفلسطين والاردن ، هذا بالاضافة الى الاندلس ، وعدد من جزر البحر الابيض المتوسط .

وكان سكان المملكة العربية في ذلك العصر يزيدون على مئتي مليون نسمة يمثلون مجموعة من الامم والشعوب ذات اللغات المتباينة والحضارات

القديمة التي تتفاوت بعضها عن بعض في الرقي والتأخر[1] .

وقد استطاعت الحضارة العربية ان تتمثل تلك الحضارات المختلفة ، وتهضمها وتضيفها الى تراثها الفكري والعلمي والروحي ، فاذا بتلك الحضارات تصبح رفداً للحضارة العربية النامية المتطورة ابدا .

في ذلك العصر ، اي في زمن المنصور ، كانت مساحة ارمينيــة تبلغ ٦٢٫٥٠٠ ميل مربع ، على حين ان مساحة العراق والجزيرة مجتمعتين ما كانت لتزيد عن عشرة آلاف و ٢٠٥ اميال[2] .

وكانت المملكة العربية تقسم في ذلك العهد الى اثنتي عشرة ولاية ، وكانت ارمينية والجزيرة واذربيجان تشكل معاً ولاية من تلك الولايات ، ثم فصلت الجزيرة عن الاقليمين ، وجعلت ولاية مستقلة ، في حين بقيت ارمينية في معظم العهود العربية تشكل مع اذربيجان ولاية واحدة ، وكانت امورها تدار من قبل امراء اذربيجان الذين جعلوا عاصمتهم في البدء مدينة المراغة ثم انتقلوا الى اردبيل واخيراً استقروا في مدينة تبريز .

في زمن الخليفة المأمون تم تقسيم المملكه الى / ٢٧ / اقليماً كما جاء في كتب الاصطخري وابن حوقل وابن الفقيه ــ منها سبعة في المغرب و / ٢٠ / في المشرق ، وكانت ارمينية التي انفصلت عن اذربيجان في ذلك العهد تمثل واحـداً من الاقاليم العشرين في المشرق الى جانب العراق والشام والجزيرة وفارس والسند والديلم واذربيجان وغيرها .

★ ★ ★

---

١ ــ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١١٦

٢ ــ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٧٦

في الفترات الاولى التي كانت ارمينية تنفصل فيها عن اذربيجــان كانت تتخذ عاصمة لها مدينة دبيل ، واحياناً كانت تضاف اليها اران وتصبح العاصمة برذعة ، واخيراً ، وفي العهد السلجوقي ، حين قسمت الى دويلات صغيرة ومقاطعات برزت خلاط كعاصمة رئيسية تهيمن على اقسام كبيرة من البلاد بلغت نسبتها خمس مساحة الاقليم .

النشاط الاقتصادي

خلال فترة الحكم العربي كانت ارمينية متفوقة على غيرها من الاقاليم بأنواع خاصة من الصناعات والمنتوجات الزراعية والحيوانية .

فمثلا كانت البسط الارمنية المحفورة والمزهرة تعتبر من اجود انواع البسط في العالم ، وكانت انواع الصباغ المستعملة في هذه البسط من افضل الانواع واشهرها .

يقول الثعالبي في كتابه لطائف المعــارف (ص ٢٣٢) ان الصوف الارمني المستخدم في البسط هو من اجود الانواع في العالم بعد صوف مصر ، وان الخلفاء وكبار رجال الدولة العربيــة والعظماء والاثرياء كانوا يحرصون اشد الحرص على اقتناء البسط الارمنية .

كما كان الجميع ايضاً يحرصون على شراء التكك الابريسيمية الـتي اشتهرت بصنعها مدينة سلماس وغيرها من المدن في ارمينية ، وكانت هذه التكك مدعاة زهو مقتنيها ومباهاتهم بها ، وكانت تباع في اسواق المدن العربية كشيء نادر ونفيس ويتراوح ثمن الواحــدة منها بين دينار واحد وعشرة دنانير من الذهب .

ويتحدث الرحالة العرب [١] عن عيون النفط المتفجرة في مدينة باكويه (باكو) من نواحي الشروان ، وهو على انواع مختلفة .

وقد اشتهرت دبيل بصنع الثياب المرعزية والصوف والوسائد ومادة القرمز (وهي نوع من الصباغ معروف ومشهور) اما مدينة مرند فقد كانت مشهورة كزميلتها مدينة تبريز بصنع المقاعد المحفورة ، وكان الناس يتهافتون على شرائها من جميع انحاء المملكة .

ومن بحيرة وان كانوا يستخرجون سمك الطريخ وهو نوع عجيب من السمك ، يقول ابن الاثير ان هذا السمك يعتبر من عجائب الدنيا لأنه صغير ، ولا يشابهه سمك آخر في لذة الطعم ، ولهذا السمك في كل عام موسم معين ، فهو يخرج من هذه البحيرة في نهر يصب فيها ، بكميات هائلة جداً حتى انه يؤخذ بالايدي ، وبالآلات التي صنعها الاهلون هناك لجمعه ، فليس ثمة حاجة لصيده ، فاذا انقضى الوسم عاد الى الاختفاء حتى لا يكاد يظهر منه اي اثر .

وكان الطريخ مباحاً لجميع الناس ، يأخذون منه حاجتهم ويعمدون الى المتاجرة به ، وتسويقه الى بلاد العالم دون ان يدفعوا فيه شيئاً من المال . فلما استعمل عبد الملك بن مروان اخاه محمد على الجزيرة وارمينية منع الناس من اخذ السمك إلا بثمن ، وجعلها عهدة والتزاماً للراغبين في استثماره ، ومنذ ذلك اليوم اصبح للطريخ المتدفق من البحيرة قيمة ، ويقول ابن الاثير تعليقاً على هذا ، « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة من غير ان ينقص من اوزارهم شيء [٢] .

---

١ – رحلة ابي دلف في القرن العاشر الميلادي ص ٤٥

٢ – الكامل (احداث عام ٧٣ هجرية)

وقد جرت العادة ان يستخرج سمك الطريخ ثم يملح ، ويعبأ في اوعية محكمة ، ثم يصدر الى كثير من الاقاليم كالموصل ونواحي الجزيرة والعراق واصقاع الشام ، وكان الناس يقبلون على تناوله ويفضلونه على جميع انواع السمك المعروفة في مناطقهم .

يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان انه رأى من هذا السمك في مدينة بلخ ، وقيل له انه موجود ايضاً في مدينة غزنه وبين الموضعين مسيرة اربعة اشهر [١] .

في اطراف بحيرة وان كانوا يستخرجون من الارض نوع يسمى « ملح البورق » الذي يستخدمه الخبازون ، وفي جبل واقع الى الجنوب من هذه البحيرة توجد مقالع الزرنيخ ومن المناجم المحدثة في عمق هذا الجبل كانوا يستخرجون اصل مادة الزرنيخ ، ومنها الاحمر والاصفر ، بكميات كبيرة .

وتصدر ارمينية نوعاً من البغال وصف بالصحة وقوة الجلد والفراهة وكانت مدينة الزوزان هي التي تعنى بتربية هذا النوع وتبيعه باثمان فاحشة في اسواق العراق والشام وخراسان .

وبالقرب من منبع نهر دجلة كانت تقوم مدينة اطلق عليها العرب اسم مدينة المعدن ، وكان في هذه المدينة عدد كبير من المناجم التي كانوا يستخرجون منها مادتي النحاس والحديد . وكانت قيادات الجيوش العربية في جميع ولايات المملكة يبذلون الجهد للحصول على حديد هذه المدينة لاستخدامه في صنع الكازغنديات الحمر التي توضع على الجند لتقيهم حراب

---

١ – معجم البلدان (مادة خلاط)

العدو ورماحه وسيوفه ، وذلك بما عرف عن حديد هذه المدينة من القوة والصلابة التي تماثل قوة الفولاذ ..

وكنت ترى في تلك الحقب من التاريخ نهر الفرات يعج بالسفن المنحدرة جنوباً وهي محملة بانواع من الخشب المستخرج من ارمينية والذي يفضل جميع الناس استخدامه في شؤون البناء والصناعات الخشبية كما كانت هذه السفن تحمل الى ارمينية ومنها الى بيزنطة وروسيا وبقية الامم التي تعيش في الشمال زيت الزيتون المستخرج من بلاد الشام (١) .

وكان الناس ، في جميع مناطق الاقليم على حال كبير من سعة الرزق وبسطة العيش والتنعم بملاذ الحياة وكانت اسعار الحاجيات رخيصة وكثيرة ، والمواد الغذائية تباع باثمان زهيدة وبعض انواع ثمار الفاكهة تؤخذ مجانا وبلا قيمة .

يتحدث ابن حوقل عن مشاهداته وانطباعاته حول وضع الاقليم وذلك خلال الرحلة التي قام بها عام ٣٣٠ هجرية (٩٤١ م) وضمنها كتابه « صورة الارض » فيقول عن جبال ارمينية التي تتصل بجبل آرارات من جهة وجبال أهرو ورزقان من جهة ثانية مارة بتفليس متجهة شمالاً حتى جبال القفقاس : « لهذه الجبال ملوك واصحاب لهم نعم ضخمة وضياع وقلاع نفيسة وخيول وكراع الى مدن مضافة اليهم ، ونواح ذات رساتيق واقاليم عامرة ، وبهذه الجبال والنواحي والمدن والبقاع من الرخص والخصب والمراعي والمواشي والسوائم والخيرات والبركات والمتاجر والانهار والفواكه الرطبة واليابسة والخشب على سائر ضروبه مالا يحاط بعلمه ولا يبلغ كنهه .

وملوكها بها من سعة الاحوال وتمتعهم بالنعم والملاذ والترف بالطيب والثياب والخدم والخيول والبغال ذوات المراكب من الفضة والذهب وقنية

٦ ـ تاريخ حضارة الاسلام ص ١٤ والحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٣٤

الجواري الروقة من المغنيات والشهوريات والطباخات والنفقات الدارة السابغة ، وكثرة الآلة من الذهب والفضة والآنية الرفيعة الثقيلة المخرشة بالسواد من الصواني والاطباق والارطال والطسوت والاباريق والاسطال في غرائب الصنعة من اللاجين والمسجد الى ما يشاكل ذلك من الزجاج المحكم والبلور المخروط الثمين والجوهر من الحب والياقوت .

وكان اكثر هؤلاء الملوك عليهم كالضرائب القائمة واللوازم تحمل في كل سنة الى ملوك اذربيجان ، فلا تنقطع ولا تمتنع وكلهم في طاعة من ملكها فتقفها ، وكان ابن الساج يرضى منهم بالقليل مرة ، وبالتافه اخرى، على طريق الهدية ، فلما صارت هذه المملكة الى المرزبان بن محمد بن مسافر المعروف بالسلار جعل لها دواوين وقوانين ولوازم يخاطب على مرافقها وتوابعها وبقاياها » .

الجباية المالية

يقول ابن الاثير في تاريخه الكامل ان الجند العرب الموجودين في ارمينية قد قاموا باعمال الشغب على عامل الخليفة المنصور فيها ، واقتحموا بيت المال في الاقليم ونهبوه ، فبعث العامل الى الخليفة يعرض الامر ، ويطلب الرأي فكتب له الخليفة يقول :

« اعتزل عملنا مذموماً مدحورا ، فلو عقلت لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » (١) .

والواقع ان اقليم ارمينية كان بالنسبة الى الدولة العربية يعتبر واحداً من الاقاليم الرئيسية التي تساهم في املاء بيت مال الخلافة وترجيح كفة الواردات على النفقات .

١ ـ الكامل ج ٥ ص ٤٨

فبينما كانت ارمينية في بداية العصر العباسي لا تدفع اكثر من اربعة ملايين درهم كل عام لبيت مال الخلافة (١) ، اذا بهذا الرقم يرتفع بعد اعوام قليلة فيبلغ في زمن هرون الرشيد وابنه المأمون /١٣/ مليون درهم تضاف الى هذا المبلغ ضرائب عينية هي / ٢٠ / بساطاً من النوع المزهر والمحفور ، و / ٨٥٠ / قطعة رقم (نوع من الوشي) وعشرة آلاف رطل من المالح السورماهي (ملح الليمون) ومثلها من سمك الطريخ و / ٢٠٠ / بغل من بغال الزوزان و / ٣٠ / بازاً من التي تتخذ من قمم الجبال الارمينية موطناً لها (٢) .

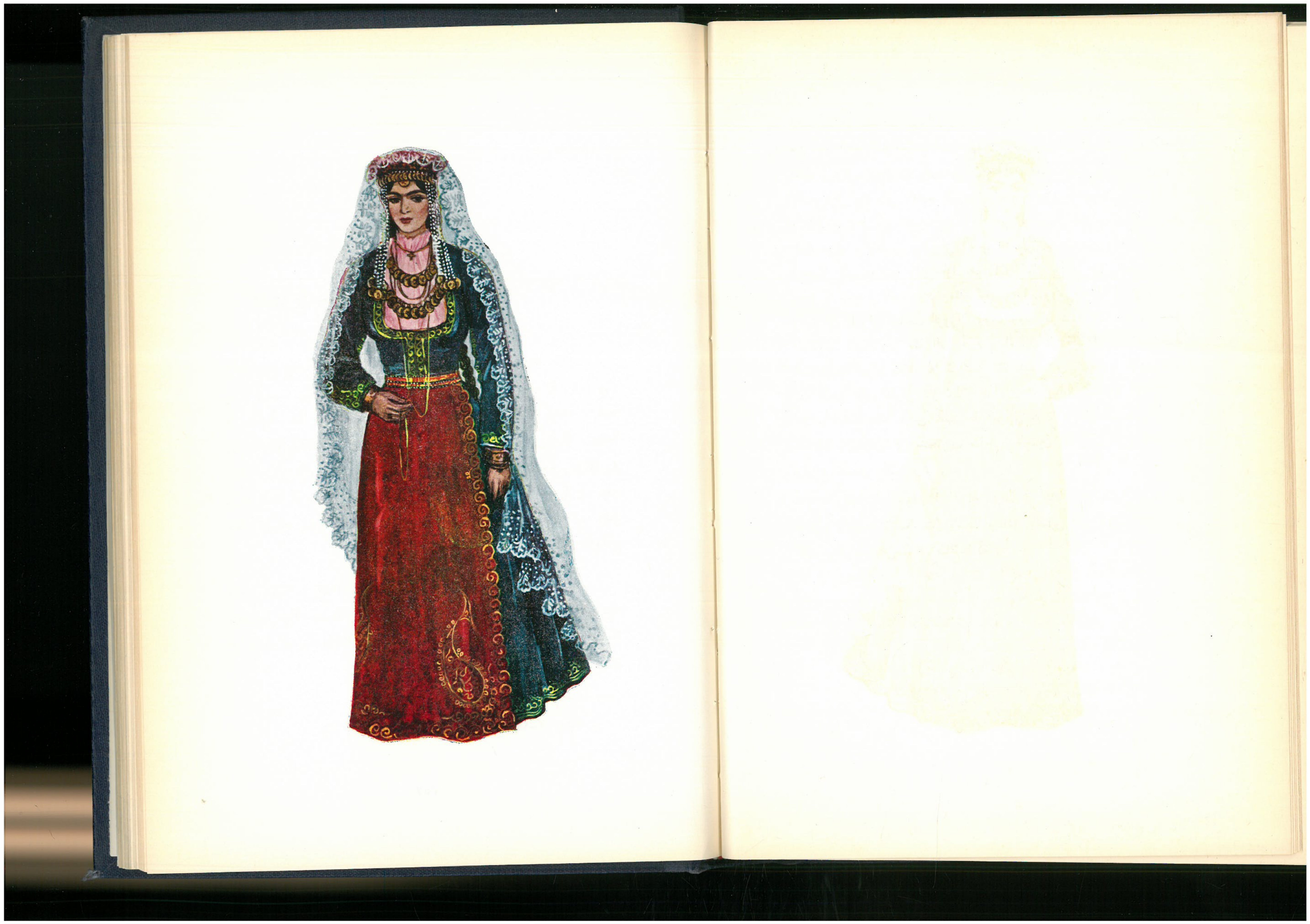
هذا في حين ان جباية اذربيجان في الفترة المذكورة ماكانت لتزيد عن اربعة ملايين درهم ، كما ان خراج اقليم الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات كان يبلغ في الفترة ذاتها / ٣٤ / مليون درهم يضاف اليه الف رأس من الرقيق (لوقوع الجزيرة على حدود بلاد الروم ، وقيام جندها بحملات الغزو الدائمة عليهم) و / ١٢ / الف زق عسل ، وعشرة بزاة و / ٢٠ / قطعة كساء (٣) .

وبين ايدينا وثيقة تاريخية تبين بالتفصيل مقدار الجباية المالية في جميع مناطق ارمينية خلال عام ٣٤٠ هجرية ، وهذه الوثيقة اوردها ابو القاسم بن حوقل النصيبي في كتابه صورة الارض (٤) وهي تقول . ان ابا القاسم علي بن محمد جعفر الذي كان صاحب زمام يوسف ابن ابي الساج قد تولى مرافق اقليم ارمينية للمرزبان بن محمد وكان في الوقت نفسه يتولى الوزارة له ، وان ابا القاسم هذا قد فرض على محمد بن

١ ـ التمدن الاسلامي (عن روية ابن خرداذبه) ج ٢ ص ٦٥
٢ ـ كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٨١ و ٢٨٨
٣ ـ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٥٩
٤ ـ ص ٣٠٣

احمد الازدي صاحب شروان شاه وملكها مبلغ مليون درهم ويتحمل قسط من هذا المبلغ اشجانيق (لعله جانيك) صاحب شكي المعروف بأبي عبد الملك ، وعلى سنحاريب المعروف بابن سواده صاحب الربع / ٣٠٠ / الف درهم وعلى ابي القاسم الويزوري صاحب ويزور خمسين الف دينار وألطاف ، وعلى أبي الهيجاء بن الرواد عن نواحيه باهر وورزقان خمسين الف دينار وألطاف ، وعلى ابي القاسم الجيذاني عن نواحيه وبقايا كانت عليه اربعمئة الف درهم ، وقد حاول هذا ان يماطل ويمتنع عن الدفع فاضيفت زيادة / ٣٠٠ / الف درهم ومئة ثوب ديباج رومي جزاء له على ذلك . وألزم ابن الديراني صاحب الزوزان ووان ووسطان بما كان متفقاً عليه في السنوات الماضية وهي مئة الف درهم ، الا ان المرزبان اعفاه من الدفع لمدة اربعة اعوام مكافأة له لتسليمه اباه ديسم بن شاذلويه الذي سبق ان استجار بابن الديراني واضطر هذا الى ان يسلمه لعدوه المرزبان .. اما بنو سنباط فقد فرض عليهم مبلغ مليوني درهم عن نواحيهم من ارمينية الداخلة ، وفرض على سنحاريب صاحب خاجين مئة الف درهم والطاف وكراع بخمسين الف درهم .

ويقول ابن حوقل ان جباية الاقليم في ذلك العام بلغت عشرة ملايين درهم ، وان هذا المبلغ يعتبر وسطياً وعادلا بالقياس الى الاعوام السابقة التي كان يفرض فيها على الاقاليم مبالغ اكبر .



العرب في ارمينية

كانت القبائل العربية قبل الاسلام دائمة الحل والترحال في البلدان التي يعيش فيها اخوان لهم من العرب استوطنوا تلك المناطق منذ زمن بعيد ، وهذه البلدان هي الشام والعراق ومصر ، فكانت تلك القبائل كلما اجدبت الارض وحلت سنوات القحط والجفاف تركت مناطقها وانساحت في الارض سعياً وراء الكلأ والمرعى واسباب العيش ، وكثيراً ما كانت تبعد في ترحالها حتى فارس ، فتدخل بلاد الاعاجم ولكنها لا تلبث ان تعود الى ديارها عند زوال اسباب هجرتها لأنها كانت تأنف حياة الذل والهوان تحت سلطان دولة الاعاجم [1] .

فلما اشرق فجر الاسلام واقبلت سنوات الفتح ، انضوت معظم القبائل العربية تحت راية الجهاد ، ومضى رجالها في اصقاع الارض يفتحون المدن والقلاع ويضعون الاسس القوية الثابتة لقيام الدولة العربية ، التي ما كانت لتغرب عن ارضها الشمس .

---

١ ـ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٥٢ عن الكامل لابن الاثير

وهذا ابن خلدون المؤرخ العربي الكبير يعدد اسماء عشرات القبائل التي هاجرت من الجزيرة العربية مع اهلها وخيامها وانعامها ، وعاشت في اصقاع نائية من الدولة العربية ، فيقول [1] :

« هؤلاء كلهم – اي القبائل – قد انفقتهم الدولة الاسلامية العربية فتقاسمتهم الثغور القصية ، واكلتهم الاقطار المتباعدة ، واستلحمتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم حي يطرق ، ولا حلة تنجع ، ولا عشير يعرف ، ولا قليل يذكر ، ولا عاقلة تحمل جناية ، ولا عصابة (تنجد) بصريخ ، الا سمع من ذكر اسمائهم في انساب اعقاب متفوقين في الامصار التي ألحموها بجملتهم ، فتقطعوا في البلاد ، ودخلوا بين الناس ، فامتهنوا واستهينوا .. [2] »

وخلال سنوات الفتح الاولى لم يكن العرب يندمجون بأهل المدن المفتوحة ، بل كانوا يعيشون في بعض اطرافها في اماكن يطلقون عليها اسم الروابط ، ثم ما لبثوا ان دخلوا تلك المدن وجعلوا اقامتهم فيها ، ثم اختلطوا بأهلها وتفاعلوا معهم ، وانفعلوا بهم .

وقد رأينا في ارمينية نفسها كيف بدأت هجرات القبائل العربية اليها واستقرارها في بعض مناطقها ، ثم كيف اتخذت فيما بعد من حواضرها مواطن جديدة لابنائها واحفادها ، فقد كانت القبائل اليمانية اول من دخل ارمينية ، مع الفاتحين الاول ، ثم جاءت النزارية حماية للأمير يوسف بن راشد السلمي ، الذي اراد ان يتقوى بهم ضد اليمانية بعد ان قويت شوكتها في البلاد .

---

١ – تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٣ (طبعة بولاق)

٢ – حاشية الدكتور حسين مؤنس على كتاب التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٤٩

وخلال الحملات العسكرية التي قام بها القائد العربي يزيد بن مزيد الشيباني وابنه اسد وحفيده خالد ، ثم محمد بن خالد ، تدفقت على البلاد افواج المهاجرين من قبائل ربيعة وتغلب ووائل وشيبان ، تلك القبائل التي كان موطنها الاصلي في ديار بكر المتاخمة لحدود ارمينية الجنوبية .

وابناء القبائل العربية في مصر ، جاؤا ايضاً الى ارمينية كأنصار للأمير عبد الكبير بن عبد الحميد الخطاب العدوي حين وليها ، ثم بعد رجوعه الى العاصمة ، آثر الكثيرون منهم البقاء والعيش في تلك البلاد .

كان اهل البلاد الاصليون يطلقون على العرب الوافدين اسم « الهاجريين » اي بمعنى الغرباء اللاجئين ، وذلك قبل ان تتم عملية الاندماج التام بين السكان .

يحدثنا احمد بن يوسف بن الازرق الفارقي في تاريخه المعروف عن رحلة قام بها في عام ٥٤٩ هجرية (١١٥٤ م .) الى ولاية الكرج في اقصى الشمال من ارمينية ، ومكوثه عند ملك الكرج ديمتري بن داوود ثم قيامه مع الملك المذكور في جولة تناولت انحاء الولاية ، وكان يرافقهم فيها الامير ابو المظفر ملك الدربند ، وهو صهر الملك على ابنته ، يقول ابن الازرق :

بينما كان الملك وعسكره نازلين في برج يقع عند سفح احد الجبال الشاهقة ، اذا بجماعة يأتون اليهم من ضياعهم ، فجاء احدهم الى ابن الازرق وتحدث معه بالعربية فعجب لذلك ، وسأل الفتى :

– من اين أنت يا فتى ؟.. اني ما رأيت بهذه الارض مستعربا

– من تلك القرية (مشيراً الى قرية على قمة في وسط الجبل)

- ومن أين هذا الكلام العربي ؟

- ان جميع من في القرية عرب ، ونحن جميعاً نتكلم العربية

- ومتى حللتم في هذا المكان ؟ . .

- منذ نحو خمسمئة سنة .

- ومن أي العرب انتم ؟ . .

- من بني امية ، ومن كنده ومن قبائل اخرى .

- وما الذى جاء بكم الى هذا المكان ؟ ! .

- لا اعلمك . .

- لماذا ؟ . . اني ارى انكم من قتلة الحسين الذين انهزموا من وجه المختار الثقفى ، وهربوا الى هذه الجهات . .

- وكيف تعلم ذلك ؟ . .

- من المعلوم والثابت في الكتب ، ان جماعة من قتلة الحسين انهزموا امام المختار الى الدربند .

ثم انصرف الفتى ، وفي اليوم التالي رجع الى ابن الازرق ومعه جماعة من قومه ، وكان فيهم شيخ كبير اسمه محمد بن عمران ، فأخذ ابن الازرق يوجه اليه الاسئلة ، وهذا يجيبه عنها .

قال الشيخ : ان هذه البلاد اصبحت لنا وطناً ، ويوصي بعضنا بعضا ان لا نترك العربية مطلقاً . . ونساؤنا لا تكلم الاطفال إلا بالعربية لكي ينشأوا على اللسان العربي الفصيح .

- وكيف احوالكم هنا ؟ . .

- في خير ، ليس بيننا وبين احد معاملة ، ولنا في هذه الارض التي مساحتها خمسة فراسخ في مثلها نحرث ونزرع ما نحتاج اليه ومايعارضنا احد ، وهذا الامير صاحب الدربند يحسن الينا ويوفر علينا مصالحنا ، وكل من ولي امر هذه البلاد يحسن الينا ، ونكون عنده في احسن منزلة .

ثم ان الشيخ اعترف لابن الازرق بأن قومه قد انهزموا حقاً من امام المختار الثقفي وانهم هربوا الى هذه البلاد ، وهناك طائفة اخرى هربت الى مكان آخر ، ولكنهم لايعلمون ماذا صار اليه أمرها .

فقال له ابن الازرق ان العصبة الاخرى هربت الى الموصل ، وجبل الجزيرة فانفذ اليها ابراهيم بن الاشتر النخعي وحاربهم فانهزموا امامه الى ولاية ميافارقين ، فارسل الى محاربتهم عبد الله بن ميسار فانهزموا امامه الى جبل السناسنة فوق ميافارقين واقاموا عند سنحاريب ملك السناسنة وهم طائفة من الارمن [1] .

ويروي لنا ابن الازرق في تاريخة المذكور حادثة اخرى يقول فيها انه بينما كان يسير ذات يوم مع ملك الابخاز اذ وصلا الى برج واسع تحت جبل في قلعة شامخة ، فنزلا هناك وقال له الملك بأن في هذه القلعة رجل غريب اسير من ولاية حلب ، ثم طلب اليه ان يذهب ويجتمع بهذا الاسير

---

١ - هذه الحادثة منقولة نصا عن تاريخ الفارقي صفحة ٤٣ - ٤٦ اما السناسنة فهم قبيلة من الارمن لهم حصون منيعة تجاور خلاط وهم صلح مع صاحب خلاط ، ولم تزل هذه الحصون بأيديهم منفردين بها فلما سطوا على قافلة الحجاج وقتلوا منهم خلقا كثيرا واسروا وسلبوا ونهبوا الاموال وحملوا ذلك الى الروم ، عزم نصر الدولة بن مروان على غزوهم ، فلما سمعوا ذلك ورأوا جده ، راسله ملك السناسنة وبذل اعادة ما اخذ اصحابه واطلاق الاسرى والسبى فأجابهم الى الصلح وعاد عنهم .

ابن الاثير في التاريخ الكامل ج ٩ ص ٣٠٦

الحلبي ويسأله عن حاله ، فأجاب ابن الازرق الملك الى رغبتـه وعـزم على الذهاب اليه في اليوم التالي ثم يسعى لدى الملك لاطلاق سراحـه ، وبينما هو يتأهب للقاء الرجل وقت السحر اذ تلقى الملك خبراً يقول ان بعض الولاة قد ثاروا وتمردوا عليه فداخله الذعر ، وارتحل لوقته ومعـه ابن الازرق الذي لم يقدر له الاجتماع بذلك الامير (١) ..

اما ياقوت الحموي ، فانه يستعرض بعض اسماء العلمـاء العرب الذين انجبتهم ارمينية وانتسبوا الى مدنها ، وذلك في معرض حديثـه عن هذه المدن .

فمدينة ارجيش مثلاً ينسب اليها الفقيه الصالح ابو الحسن علـي ابن محمد بن منصور الارجيشي ، وقد امضى هذا الرجل ايامه الاخيرة في مدينة حلب متعبداً بمدرسة الزجاجين وقد زاره ياقوت في المدرسة المذكورة فوجده كثير العبادات ملازما الصمت (٢) .

وهذا ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي الاديب العالم صاحب التآليف المعروفة ، انه ينتمي الى مدينة قاليقلا (ارزن الروم) قال ياقوت انه بعد ان تثقف في بغداد رحل الى الاندلس واقام في قرطبة وفيها ظهر علمه ومات سنة ٣٥٦ هـ (٣) .

اما دبيل فينسب اليها عبد الرحمن بن يحيى الدبيلي ، ويذكر المدينة ابو يعقوب الخزيمي الذي عاش فيها بهذه الابيات من الشعر :

---

١ ـ تاريخ ابن الازرق الفارقي ص ٤١
٢ ـ مادة ارجيش في معجم البلدان لياقوت الحموي
٣ ـ مادة قاليقلا في معجم البلدان لياقوت

شقت عليك بواكر الاظعان   لا بل شجاك تشتت الجيران
وهم الألى كانوا هواك فأصبحوا   قطعوا بينهم قـوى الاقران
ورأيت ، يوم دبيل ، امرأ مفظعاً   لايستطيع حواره الشفتان (١)

وقد انجبت مدينة خلاط عدداً كبيراً من العلماء والزهاد منهم حسين الاخلاطي الذي كان في مقدمة اعلام عصره وكان قد رحل عن خلاط قبيل وصول التتار وتوجه الى مصر مع اهله وابناء عشيرته فاقام فيها الى ان مات ، ويقول شرف الدين البدليسي في كتابه « شرف نامه » . انه لا يزال في مصر حي يقال له حي الخلاطيين نسبة الى جماعة حسين هذا الذين هاجروا معه .

ومن ابناء خلاط كذلك محي الدين الاخلاطي وكان علماً من اعلام الفضل وهو احد الثلاثة الذين استعان بهم العالم الرياضي نصـير الدين الطوسي حين كلفه هولاكو بانشاء مرصد فلكي في بلدة مراغـة تبريز فاستقدمه الطوسي من خلاط وعمل في تأسيس هذا المرصد مع زميليـه مؤيد الدين العروضي ونجم الدين دبيران القزويني (٢) .

ومدينة نشوى ، او نخجوان قصبة ولاية بسفرجان ينسب اليها جماعة من العلماء منهم حداد بن عاصم النشوى خازن دار الكتب بجـنزة والفرج بن ابي عبيده الله النشوي ، واحمد بن الحجاف ابو بكر الآذري النشوي وابو العباس احمد بن الحسين بن نبهان النشوي وغيرهم (٣) .

فاذا انتقلنا الى منازكرد المدينة الحصينة التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الاقاليم ، لا سيما في بداية حكم السلاجقة للبلاد ، فانه

---

١ ـ مادة دبيل في معجم البلدان لياقوت
٢ ـ شرف نامه ج ١ ص ٣٦١
٣ ـ مادة نشوى في معجم البلدان لياقوت الحموي

يتسب اليها الوزير ابو نصر المنازي ، وكان فاضلاً اديباً جيد الشعر ، وقد وزر لبعض آل مروان ملوك ديار بكر ومات سنة ٤٣٧ هـ . وهو الذي يقول:

اني ليعجبني الزنامي سحرة	ويروقني بالجاشرية زير
واكاد من فرط السرور اذا بدا	ضوء الصباح من السرور اطير
واذا رأيت الجو في فضية	للغيم في اذيالها تكسير
منقوشة صدر البزاة كأنها	فيروزج من فوقه بللور

* * *

هذا ، وكم لي بالكنيسة سكرة	انا من بقايا شربها مخمور
باكرتها وغصونها مقرورة	والماء بين فروجها مدعور
في فتية انا والنديم ومسمع	والكأس ثم الدف والطنبور[1]

وعلى ذكر الشعر ، هناك قصائد كثيرة قيلت في بعض المدن الارمنية كما قيلت في غيرها ، وهذا ابو الرضا الفضل بن منصور الظريف يتغنى بمدينة بدليس :

بدليس ، قد جددت لي صبوة	بعد التقى والنسك والسمت
هتكت ستري في هوى شادن	وما تحرجت ولا خفت
وكنت مطوياً على عفة	مظنونة يمشي بها وقتي
وان تحاسبنا فقولي لنا	من انت يا بدليس ، من انت
وابن ذا الشخص النفيس الذي	يزيد في الوصف على النعت
من طبعك الجافي ومن اهله	قد صرت بغداد على بخت[2]

يقول ابن حوقل انه حين زار ارمينية وجد ان سكانها العرب

١ ـ مادة منازكرد في معجم البلدان لياقوت الحموي

٢ ـ مادة بدليس في معجم البلدان لياقوت الحموي

يتكلمون الفارسية والعربية وان ابناءها الآخرين يتكلمون عدة لغات أخرى وان الجميع يتكلمون الارمنية لغة البلاد الاصلية .

كما يقول انه رأى بين اهل ارمينية عدداً من فضلاء الاطباء الماهرين في صناعتهم ، وقال انه ادركهم فرآهم سادة اجلاء مياسير بصناعة الطب ، وهم ارباب ضياع ونعم وكراع [1] .

يقول الدكتور آ . هوانيسيان عضو اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي في محاضرة القاها عن تاريخ الطب الارمني والروابط بين مدرستي الطب العربية والارمنية بأنه في القرنين الحادي عشر والثاني عشر برز في ارمينية كثير من الشخصيات الطبية وردت اسماؤهم في المخطوطات التاريخية، من بينهم اطباء عرب وسوريون كتبوا باللغة الارمنية امثال ابو سعيده عيسى بن ابي سعيد وارمن امثال سركيس وسيمون وميكائيل واستبانوس وغيرهم ، وهناك آخرون ذاعت شهرتهم خارج حدود البلاد .

ويقول ايضاً في مكان آخر من المحاضرة ان للطب العربي علاقات وثيقة جداً بالطب الارمني فلما لاقت العلوم العربية نفوذا وقبولا حسنا في اوروبا تضاءل التأثير اليوناني في الطب الارمني تاركاً المجال للاطباء العرب ليحضروا الى ارمينية وليعملوا في اماراتها المختلفة ، وكثير منهم من اختص بدراسة الاعشاب الطبية في ارمينية واستعمل بعضهم صمغ ارمينية والشند هيزوبوس (نبات صغير ذو رائحة عطرية) وغيرها ، ولقد اهتم الطب العربي خاصة بعلم الادوية والى العرب تدين اولى الصيدليات الرسمية التي اسست في اوروبا .

ويقول الدكتور آ . هوانيسيان ان الاطباء العرب واليونان الذين عاشوا في ارمينية قد تمتعوا بشهرة عظيمة ، وقد خلف بعضهم كتباً طبية

٣ ـ ابن حوقل ص ٢٩٩

باللغة الارمنية كالطبيب العربي السوري فرج (١) ..

ويتحدث الدكتور هوانيسيان ايضاً عن طبيب ارمني خلد اسمه في تاريخ الطب العالمي وهو « مخيتار هيراتسي » الذي عاش في القرن الثاني عشر ميلادي ، الا ان حياة هذا الطبيب الخاصة ظلت – مع الاسف – سراً اذ لم يعرف عنه الا القليل ، ومن هذا القليل ، نعلم انه ينتمي في دراسته الى المدرسة العربية ، وانه يتقن العربية واليونانية والفارسية الى جانب اللغة الارمنية وكان على معرفة بعلم الفلك والفلسفة ، وكان الاطباء الارمن يحترمونه ولا يشيرون اليه حين يتحدثون عنه الا بـ « مخيتار الحكيم » و « الطبيب الكبير » .

وقد نشر مخيتار كتاباً بعنوان « تفريج الحمى » وهو بحث عن الامراض الحرارية اعتمد في مصادره على مؤلفات ابقراط وافلاطون وابي بكر الرازي وابن سيناء وثابت قره وغيرهم .

ونجد مؤرخاً عربياً كبيراً هو الامام ابي العباس بن يحيى بن جابر البلاذري الذي عاش في القرن الثالث الهجري حين وضع مصنفه المشهور « تاريخ البلدان » اعتمد على ابي براء عنبسة بن بحر الارمني في تثبيت المصادر التاريخية عن فتح ارمينية باعتباره واحداً من الرجال الاعلام في ارمينيه (٢) .

هذا ، وكانت الحياة في ارمينية بصورة عامة هادئة ومستقرة ، لاسيما داخل المدن الكبيرة والحواضر ، حيث انصرف الناس الى تلمس اسباب معيشتهم وتأمين سبل حياتهم وسعادتهم ، وحتمت طبيعة الحياة والعلاقات

١ – تاريخ الطب الارمني صفحات ٩ و ١٠ و ١٢

٢ – فتوح البلدان (باب فتح ارمينية)

الاجتماعية ان تقوم بينهم وحدة شبه تامة بعد ان ذابت الفوارق بين ابناء المدن الاصليين وابنائها الوافدين .

ومن بين البلدان التي شهدت كثافة في السكان العرب الى جانب ابنائها الارمن ، نذكر دبيل وخلاط ومنازكرد وارزن الروم وارجيش ووان وتفليس والنشوى والبيلقان وارزنجان وغيرها من امهات المدن الكبرى في الاقاليم .

واننا لنجد في كتاب ابن حوقل تلك الملاحظات العارضة التي كتبها احد الملحقين في بداية القرن السادس الهجري على بعض الصفحات مؤكداً لما ذهبنا اليه ، فنجده – مثلاً – حين التعرض لمدينة تفليس يسجل العبارة التالية :

« مدينة تفليس كانت بيد الكرج اخذوها في العشر الاخير من سني ٥٠٠ هجرية ، وملك الكرج مع كفره يراعي اهلها ويمنع جانبهم من كل اذية وشعارات الاسلام فيها قائمة كما كانت ، ومسجد الجامع ممنوع من كل دنس ، يوقده الملك بالشمع والقناديل وما يحتاج اليه ، والأذان في جميع مساجدها يجهر ، لا يعرض لهم احد بسوء البتة ، وقد اختلط الآن المسلم والكرجي (١) . »

ومن هذا نتبين ان روح الاخوة والتسامح كانت سائدة بين سكان البلاد في معظم العهود التي مرت خلال الحقبة التي يعنيها هذا الكتاب .

وانه لولا نزعة الطمع التي انغرست في نفوس بعض الامراء والقادة لما حدث كل الذي حدث ، ولما سفكت تلك الدماء وتعرضت تلك المدن لكثير من الهزات التي ادت الى اندثار بعضها وفناء الناس في بعضها الاخر .

١ – ابن حوقل ص ٢٩٢

الارمني مواطن عربي

تحدثنا في الصفحات السابقة عن انسياح الانسان العربي في ارمينية ومناطق الشمال ، واتخاذ بعض ربوعها الخصبة مقراً له وسكناً ، والان ، نقدم الوجه الثاني للصورة ، فنتحدث عن انسياح الانسان الارمني في اقاليم الدولة العربية ، وتوغله في مناطقها واصقاعها النائية ، واقباله على العيش مع اخوانه العرب من ابناء تلك المناطق وانصاره في البوتقة العربية ، كما انصهر اخوه العربي في بوتقة وطنه الأم . .

ولكن ، قبل ان نستعرض اسماء الرجال الاعلام من الارمن الذين تأقلموا داخل الوطن العربي ولعبوا ادواراً رئيسية وحاسمة في مسيرة التاريخ العربي ، لا بد ان نتوقف قليلا عند المرأة الارمنية ، فالمرأة هي الاخرى لعبت دورها في التاريخ العربي ، ونعني بالمرأة هنا سيدات البلاط وامهات الخلفاء . .

من المعروف ان هناك عدداً من الخلفاء العباسيين ، لا سيما اولئك الذين ظهروا في مرحلة اضمحلال الخلافة العباسية وسقوطها ، قد ولدتهم أمهات غير عربيات ، فهناك الأم الرومية والحبشية والتركية والصقلبية ، اللواتي دخلن قصور الخلفاء باسم جوار وإماء ، ثم اصبحن امهات ولد ،

وغدون بعد حين من اصحاب النفوذ والسطوة حتى على الخليفة نفسه . كما هو معروف عن « السيدة » أم الخليفة المقتدر وغيرها ..

فاذا استعرضنا اسمـــاء الخلفاء العباسيين الذين ينتمون الى امهات ارمنيات الجنسية لوجدنا ان هناك اثنين على الاقل ، اكد المؤرخون العرب على ان امهاتهما ارمنيات وهما الخليفة القائم بأمر الله ابن الخليفة القادر بالله الذي دامت خلافته ثلاثة واربعين عاماً ، وهي اطول مدة يقضيها خليفـــة عباسي على العرش ، ثم الخليفة المقتدى بالله ...

بدر الدجى

أم الخليفة القائم بأمر الله ، وكانت جارية في قصر الخليفة القادر ، فاما انجبت منه ابنه القائم جعلها أم ولد ، ورفع منزلتها ، بعد ان اعتقها ، كانت بدر الدجى من فضليات النساء ، وقد عاشت بعد التسعين من العمر ويقول جمال الدين بن تغري بردى (١) انها لما ماتت صلى عليها ابنها الخليفة ودفنت في موكب مهيب يليق بمكانتها .

قرة العين

كان اسمها ارجوان ، وقد اطلق عليها في البدء هذا الاسم لاحمرار بشرتها وبهائها ، وجمالها الفائق ، دخلت قصر الخليفـــة القائم بأمر الله العباسي كواحدة من الجواري الارمنيات اللواتي كن يخدمن سيدة القصر الكبيرة بدر الدجى ، وقد حظيت باعجاب السيدة لأدبها ورقتها وتهذيبها ، فقربتها منها ، لم يكن للقائم بالله سوى ولد ذكر واحد ، هو ولي عهده الامير ذخيرة الدين محمد ، وقد اراد والده ان يزيد في رعايته واكرامه

١ ــ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦٧

واعداده لحمل المسؤولية الكبرى التي تنتظره ، فأشارت عليه بدر الدجى ان يكلف ارجوان الفاتنة بخدمته والسهر على راحته ، وان تصبح منذ اليوم الذي يبلغ فيه مبلغ الرجال محظيتـه ، ففعل القائم ذلك . وسعد ذخيرة الدين بأرجوان التي انصرفت الى العناية به وتحقيق كل رغباته .

في عام ٤٤٧ هجرية (١٠٥٥ م .) مرض ذخيرة الدين ، ثم ما لبث ان توفي ، وكان ما يزال في السابعة عشرة من العمر . . فاسقط في يد الخليفة الوالد ، وعم الحزن بغداد كلها ، ذلك لأن وفاة ولي العهد قد هدد الخلافة العباسية نفسها بالانقراض ، إذ لم يكن ثمة من يستطيع ان يحمل عبء الخلافة من آل العباس غير القائم واولاده . . وفي غمرة اليأس الشديد علم ان ارجوان حبلى من ولي العهـــد ، فعاد الامل الى النفوس ، وبعد خمسة اشهر ولدت ابنها عبد الله ، فارتفعت مكانتها في اعين الجميع وزاد القصر في تعظيمها واكرامها واطلق عليها القائم لقب « قرة العين » لأنها أقرت عينه بحفيده الذي سيرث الملك من بعده ، ويبقى على الخلافة العباسية ، وقد عدها الناس من النســـاء المباركات ، وكان يوم الولادة من الايام الخالدة في تاريخ بغداد ، فقد خرج الناس فرحـــين يهنئون بعضهم بعضا كأنهم في عيد ، وسارت البشائر الى البلاد العربية ، واطراف المملكة بمولد الخليفة المنتظر ، وقد اطلق عليه لقب عدة الدين .

ذات يوم اكفهر وجه السماء ، وداهمت الاحداث الفاجعة مدينة بغداد فانقلب فرح القصر الى كدر ، وتلاشت اســـباب السعادة والعز ، وحل محلهـــا الهوان والفقر . . . فتفرق الشمل ، وباعد البين بين القلوب المحبة . في عام ٤٥٠ هجرية (١٠٥٨ م) استولى ابو الحارث ارسلان البساسيري القائد التركي المشهور على بغداد ، وخطب فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، واصبح العراق من ممالك الدولة الفاطمية ، ونفي

الخليفة القائم بأمر الله الى بلدة الحديثة (عانة) واستترت والدة الخليفة قطر الندى ومعها قرة العين ووصال قهرمانة القصر ودخل الطفل عدة الدين مع عمته في غمار الناس ببغداد ، وكان عمره اربع سنوات ، وقد اتخذت عمته من المساجد مأوى لها ولابن اخيها ولعدد من افراد الاسرة المالكة بعد ان نضت عنهم ثياب العز والبستهم الثياب الخشنة لتخفي امرهم عن عيون البساسيري وجواسيسه الذين نشطوا في البحث عن ولي العهد الصغير .. فكانوا يتنقلون بين المساجد ، فيبيتون كل ليلة في واحد منها ، ويختلطون مع جماعات المتسولين والكديين والمشردين ، وكان الحصول على رغيف الخبز قد اصبح امنية عزيزة المنال ، وكذلك الوصول الى دثار سميك يقيهم لسعات البرد غدا حلما بعيد التحقيق ، واخيراً استطاعت العمة ان تتصل سراً بأحد انصار الخلافة ويعرف بابن المحلبان فخرج بهم من بغداد الى نواحي سنجار ، ثم حملهم الى حران في الجزيرة واقام فيها معهم ..

اما قرة العين ارجوان وقطر الندى والقهرمانة وصال ، فقد وقعن في يد البساسيري ، ذلك ان قطر الندى ، وكانت قد ناهزت على التسعين واحدودب ظهرها ، وفت المرض في عضدها ، قد عجزت عن تحمل هذا العبء المرهق ، وهي في هذه السن فأرسلت كتاباً الى البساسيري تعلمه حالها ، وتطلعه على المكان الذي تقيم فيه ، وترجوه ان يرفع عنها وعن رفيقاتها هذا الضيم الذي يحيق بهن .

فقبض عليهن البساسيري وافرد لهن داراً في الحريم الطاهري ورتب لهن جوار يقمن على خدمتهن واجرى لهن راتباً من الخبز واللحم وبقين في حكمه اسرى .

ثم جاء طغرل السلجوقي وحارب البساسيري وقتله واعاد الخليفة القائم من منفاه ، واطلق سراح الاسرى من سيدات القصر ، وبدأت

ارجوان تتطلع الى اليوم الذي تلتقي فيه بطفلها الحبيب ، بعد ان باعد الدهر بينهما فترة من زمن .

في يوم الثلاثاء ٩ جمادى الآخرة عام ٤٥١ هجرية وصل الامير عدة الدين ابو القاسم مع عمته في رعاية ابن المحلبان ، فزينت بغداد وخرج الناس لاستقباله ، وكان دخوله في زيزب كبير في دجلة ، فلما بلغ مشرعة باب الغربة ، جيء بفرس فحمله ابن المحلبان على كتفه واركبه الفرس ودخل به دار الخلافة وسلمه الى جده القائم بأمر الله ، وقرت به عين امه قرة العين (١) .

ظلت قرة العين على قيد الحياة خلال مدة خلافة ابنها المقتدي بالله ثم خلافة حفيدها المستظهر بالله ، وخلافة ابنه المسترشد بالله ، ورأت البطن الرابع من اولادها ، وتوفيت سنة ٥١٢ هجرية وهي اول سنة من خلافة المسترشد المذكور ودفنت في دار الخلافة ثم نقلت في السنة نفسها الى مقبرة الخلفاء العباسيين بالرصافة على مقربة من قبر الامام ابي حنيفة .

يقول ابن الاثير في تاريخه الكامل (٢) انه كان لهذه السيدة الفاضلة بر كثير ومعروف ، وهي التي شيدت « رباط ارجوان » ببغداد ، وقد ادت فريضة الحج ثلاث مرات وكانت موضع تقدير واحترام جميع المواطنين .

* * *

والآن ننتقل الى ميدان آخر ..

---

١ ـ هذه القصة مأخوذة بتصرف عن كتاب « سيدات البلاط العباسي » ص ١٣٢ وما يليها .

٢ ـ احداث عام ٥١٢ هجرية

الشيخ عبد الله الارمني

يستعرض ابن كثير في البداية والنهاية حياة رجل ارمني اصبح واحداً من العباد الزهاد ونعني به الشيخ عبد الله الارمني (١) فيقول ان امه كانت امرأة مولدة (داية) لزوجة الخليفة ، وانه قد اسلم على يد عبد الله اليونيني ثم اعلن الزهد والتفرغ للعبادة واخذ يجوب البلاد ويقيم في البراري والجبال والوهاد ، وانه حفظ القرآن واشتغل بالمعاملات والرياضيات ، ثم اقام آخر عمره بدمشق حتى مات فيها عام ٦٣١ هجرية (١٢٣٣ م .) ودفن في موضع بسفح جبل قاسيون .

ابو صالح الارمني

وهذا ابو المكارم جرجس بن مسعود المعروف باسم ابو صالح الارمني عاش في مصر خلال القرن السابع الهجري (الثاني عشر ميلادي) وقد خلف وراءه عدة مصنفات ومؤلفات قيمة ، من اهمها كتاب بعنوان (كنائس وادرية مصر) طبع في اكسفورد عام ١٨٩٥ ميلادية وهو واحد من اهم الكتب التاريخية التي يعتمد عليها المؤرخون كمراجع موثوق بصحتها وصدق المعلومات الواردة فيها .

علي بن يحيى الارمني

حين نستعرض اسماء القادة الذين اسهموا في دفع حركة التاريخ العربي يقفز اسم القائد البطل الامير علي بن يحيى الارمني الى الاذهان فهو الرجل الذي ضرب اروع آيات البطولة والتضحية في حروبه الكثيرة ضد الروم ، وكانت اعلامه ما تفتأ ترفرف في قلب الدولة البيزنطية ،

---

١ ـ جزء ١٣ صفحة ١٤١

وكان سيفه البتار يثير الخوف والهلع في قلوب البيزنطيين اجمع .

كان علي بن يحيى احد القادة العظام الذين يتولون امارة الجند العرب المرابطين على حدود الدولة الرومية في مناطق الجزيرة وكان كثير الاغارة على الروم ، وكان اسمه يدوي في تلك الاصقاع كبطل فاتك ، يرهب الاعداء ، ويفخر به المواطنون .

لم يكن الامير علي بن يحيى الارمني متفوقاً في ميدان الحرب فحسب ، بل كان متفوقاً ايضاً في ميدان السياسة وادارة حكم البلاد ، فقد تولى امرة مصر مرتين وكان في كل مرة مضرب المثل في الشجاعة والاقدام وحسن السياسة ولين العريكة ، ويصفه ابن تغرى بردى بأنه « كان اميراً شجاعاً مقداماً جواداً ممدحاً عارفاً بالحروب والوقائع مدمراً سيوساً محمود السيرة في ولايته واصله من الارمن (١) .

كانت ولايته الاولى على مصر عام ٢٢٦ هجرية من قبل الامير ابي جعفر اشناس التركي فوصل الى الفسطاط واقام بالمعسكر على عادة الامراء « واخذ في اصلاح احوال الديار المصرية واقماع المفسدين » ولما رأى الواثق بالله انه بأمس الحاجة الى سيفه وخبرته في القتال لدفع خطر الروم عن البلاد استدعاه اليه وولاه امارة الثغور وكلفه بتنظيم حملات الصوائف والشواتي ، وفي عام ٢٣٤ هـ . (٨٤٨ م .) اعيد الى ولاية مصر اميراً على الصلاة فبقي فيها مدة سنة وثلاثة اشهر إلا اياماً ، ثم استدعي ثانية الى العراق ، وتقلد امارة ارمينية واذربيجان واران والجزيرة وقتل في عام ٢٤٩ هـ . (٨٦٣ م .) داخل بلاد الروم (١) .

---

١ ـ النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٧٨

١ ـ راجع الصفحات من ١٤٢ الى ١٤٥ من هذا الكتاب .

بدر الجمالي

يقول ابو يعلي حمزة بن القلانسي في تاريخه المعروف بذيل تاريخ دمشق مستهلا احداث عام ٤٥٥ هـ . (١٠٦٣ .) [1] .

« وصل الامير تاج الامراء المظفر مقدم الجيوش شرف الملك عدة الامام ثقة الدولة بدر الجمالي الى دمشق والياً عليها » .

وبدر الجمالي هو من ابناء الارمن الذين استوطنوا الديار المصرية وخدموا الدولة العلوية الفاطمية ووضعوا سيوفهم في خدمة العرش الذي كان يبسط سلطانه على مصر وفلسطين والشام ، ويشكل المنافس القوي للخلافة العباسية المنكمشة على نفسها في العراق .

في العام الذي نؤرخ له الآن وصل الامير بدر الجمالي والياً على دمشق من قبل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، واقام فيها فترة من زمن (مدبراً لها وآمراً وناهياً فيها[2] ثم خرج عنها لخلاف وقع بينه وبين (عسكريتها ورعيتها) وعاد اليها ثانية في عام ٤٥٨ هجرية والياً عليها مضافاً اليها بلاد الشام بأسرها .

يتحدث سبط الجوزي في مرآة الزمان عن ولاية بدر الجمالي الثانية هذه فيقول انه قدم من مصر الى عسقلان ، وكان رجال بعض القبائل العربية من كلب وطي قد انتشروا في تلك المنطقة وأخذوا في الاغارة على المواطنين الآمنين في البلاد الشامية ، فحاربهم بدر ونكل بهم « وفعل بهم فعلا لم يسبقه احد اليه[3] .

---

١ ـ صفحة ٩١

٢ ـ ذيل تاريخ دمشق ص ٩٢

٣ ـ عن كتاب مرآة الزمان (هامش رقم ١ ص ٩٦ من ذيل تاريخ دمشق)

حين وصل بدر الى دمشق نزل قصر السلطنة القائم بظاهر المدينة في مرج باب الحديد ، واقام مدة عام ونيف فأمن الناس لهيبته ، ثم بدأت الخلافات تذر قرنها ، فاضطر بدر الى ان يبعث بأهله وامواله الى صيدا ثم يلحق بهم ، وكان حصن الدولة حيدرة بن منزو قد جاء نجدة لأهل دمشق ضد الجمالي ، فلحق به يريد القبض عليه ، فاضطر بدر الى دخول عكا ، وحشد رجاله فيها ، وعاد ابن منزو من حيث اتى .

بعد انصراف الامير بدر عن دمشق ثارت الفتنة فيها ، وانقسم الناس الى فريقين الاول يؤيد بدر الجمالي ، والثاني يقف في صف الشريف ابي طاهر ابن ابي الجن الذي جاء من مصر والياً عليها ، واخذ انصار بدر يراسلونه سراً ويدعونه الى دخول دمشق والفتك بالشريف ابي طاهر ، فبعث بدر اليهم رجلا يعرف بالقطيان في جماعة من اصحابه ، فلما دخل القطيان دمشق هرب ابن ابي الجن الى مصر ، وفي الطريق اليها مر بمدينة عمان البلقاء فقبض عليه اميرها بدر بن حازم غدراً وسلمه الى بدر الجمالي لقاء مبلغ من المال ، كان الجمالي وعده به ، وما كاد الشريف يمثل امام بدر حتى امر بقتله خنقاً ، فأثار هذا التصرف ثائرة الناس في دمشق والبلاد الشامية كلها ، وارتفعت الاصوات بلعن ابن الحازم الغادر وبدر الجمالي القاتل ، وضاعت من بدر فرصة الرجوع الى دمشق واستعادة ولايته عليها .

ثم حدثت فتنة بين المغاربة والمشارقة ووقع القتال بينهم ، وقد سبب هذا الحادث اندلاع النيران في الجامع الاموي ، وكان ذلك في ليلة النصف من شعبان عام ٤٥٨ هجرية (١٠٦٥ م) وهال الناس ماحدث ، فالقوا السلاح من ايديهم وهرعوا يحاولون اخماد النيران التي استمرت حتي

الصباح ، ولم تبق من الجامع إلا حيطانه الاربعة (١) .

ادى حريق الجامع الى خنق الفتنة ، فاستقر الرأي اخيراً على الاستعانة بأمير الجيوش بدر الجمالي ، إلا ان هذا لم يشأ ان يأتي الى دمشق وهو الخبير بطباع الناس ، فاتصل بسنان الدولة ابن منزو وقبل ان يصالحه ويتزوج اخته ، ثم بعث به الى دمشق والياً عليها من قبله ، فاجمع المغاربة والمشارقة على الدخول في طاعته والائتمار بأمره .

مكث امير الجيوش بدر الجمالي في مدينة عكا حتى عام ٤٦٧ ، وكانت الديار المصرية قد سقطت فريسة الفوضى نتيجة سنوات القحط والجفاف التي مرت بها فكثرت القلاقل والفتن ونشط اللصوص والخارجون على القانون يقتلون السابلة ويسطون على البيوت ويستولون على اموال الناس ، واسرع الخليفة المستنصر يطلب المعونة من امير الجيوش بدر الجمالي ، فغادر بدر مدينة عكا بحراً مع جيشه الخاص الذي كان يصطفيه من خيرة شباب الارمن الذين يتميزون بالشجاعة والجرأة والاقدام ، كما كان يضم هذا الجيش نفراً من فرسان التركمان والعرب .

حين وصل امير الجيوش الى مصر ، فوض اليه المستنصر أمر الديار المصرية والشام وجميع مماليكه (٢) إلا ان دمشق كانت في ذلك العام قد سقطت بيد الملك اتسز الخوارزمي وقطعت الخطبة المستنصرية في جوامعها وبدأت فيها الخطبة العباسية .

استقر بدر الجمالي في مصر ، بعد ان زوج الخليفة المستنصر من ابنته فولدت له ابا القاسم احمد الذي تولى الخلافة من بعده ولقب بالمستعلي .

١ — ذيل تاريخ دمشق ص ٩٧
٢ — النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤١

كان لا بد لأمير الجيوش ان يمسك زمام الامور بيد من حديد ويبطش بأعداء الخليفة دون رحمة ولا شفقة ليقضي نهائياً على مظاهر الفوضى ويضع الامور في موضعها الصحيح .

لقد اتهم المؤرخون بدراً بالقسوة وسفك الدماء خلال الفترة الاولى من حكمه . فقد عمد الى قتل جماعة ممن كانت تسعى في اثارة الفتن والفساد (١) ولكنه تصرف اقتضته المصلحة العامة ، فقد بلغت مصر قبل وصول بدر درجة من الفوضى واضطراب الامن جعل الانتقال من مكان الى مكان يستلزم الخفارة الثقيلة ، وكان النيل يجيء ويذهب فلا تجد الارض من يزرعها ، وقد سيطر المفسدون على انحاء البلاد ، فكانت القسوة خير دواء لهذه الحالة المؤلمة التي وصلت اليها البلاد ، وقد نجح بدر في سياسته هذه واخذ بالقسوة كل مفسد او مخرب ولم يرحم حتى ابنه « الاوحد » عندما خرج عليه وتحصن بالاسكندرية ، فيقال انه قتله بيده واباد كل من ساعده واعانه (٢) .

كان على بدر ان يقوم بمهمة شاقة هي اعادة تنظيم الدولة ، وانقاذ اقتصاديات البلاد ، فبعد القضاء على اسباب الفساد ، بدأ اهتمامه بالنواحي المالية فأطلق الخراج للمزارعين ثلاث سنوات ، ثم جبى نصف الخراج في السنة الرابعة ، وعمر الريف واصلح الترع والجسور حتى صلحت الاحوال واستغنى اهل الريف وشعر الفلاحون بالأمن والرخاء ، ولتنظيم الرقابة اعاد تقسيم البلاد ادارياً الى واحد وعشرين عملا ، وقسم الاعمال الى نواح ، والنواحي الى كفور وقرى ، كما شجع اصحاب رؤوس الاموال وذوي اليسار بالحضور الى مصر فكثر ورود التجار في ايامه بعد نزوحهم عنها ،

١ — ذيل تاريخ دمشق ص ٨٤
٢ — كتاب الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ١٥٨

وخروجهم ايام الغلاء واخذت القوافل ترد من كل مكان ، وكان لهذه السياسة الحازمة المصلحة اثر في عودة الرخاء الى البلاد (١) .

يقول المؤرخون ان بدر الجمالي حين تولى شؤون البلاد المصرية ابتدأ عصر الوزراء العظام او وزراء السيوف ووزراء التفويض ، بعد ان كانوا وزراء تنفيذ ، واصبح السلطان الفعلي منذ ذلك الوقت في ايديهم وتوارى الخلفاء في الظلال (٢) .

يقول الدكتور محمد حمدي المناوي :

كان اغلب وزراء التفويض من الارمن مثل بدر الجمالي وابنه الافضل وحفيده احمد ويانس وزير الحافظ وبهرام والصالح طلائع بن رزيك، والملاحظ ان هؤلاء الوزراء الارمن هم الذين لعبوا دوراً كبيراً في حياة الدولة الفاطمية (٣) .

فمنذ وزارة بدر الجمالي اصبح الامر كله بيد الوزراء اصحاب السيوف لذلك كان الاحتفال بتوليتهم الوزارة بالغاً حد الروعة والفخامة وقد جاء في السجلات المستنصرية عن حفل تولية بدر الجمالي ما يلي :

« وبرز امير المؤمنين من حجرات قصره الى ايوانه فافاض عليه حلة شرف كانت على جثمانه ، وزع منكبه سيف الاقتدار وقلده تقليد جده لابيه بذى الفقار ، وفوض إليه امور الملك الذي استخلفه الله تعالى على سلطانه ، خلافة عنه في دينه ودنياه ، ورقفا به الى محل لا يستحقه سواه ، بمشهد من عبيد دولته واعيان مملكته من اصحاب السيوف والاعلام،

١ – الوزارة والوزراء ص ١٤٦
٢ – الوزارة والوزراء ص ٤٠
٣ – الوزارة والوزراء ص ٣٩

وكافة دعاة المؤمنين وسائر قضاة المسلمين ، وعين الله ترعاه وتأييده يكتنفه ويغشاه ، وقرىء سجله وامير المؤمنين حاضر يرى ويسمع ، ويده مبسوطة الى الله تعالى يدعو ويضرع في ابقائه لدولته وصرف المحاذير عن كريم مهجته » .

كان دخول بدر الجمالي مصر ايذاناً ببدء تحول كبير في تنظيم الجيش الفاطمي ، اذ اصبح الوزير قائد الجيش الاعلى واصبح لقبه امير الجيوش .

وقد بدأ بدر عهده بالتخلص من امراء الجيش الاتراك فقتلهم جميعاً في وليمة اقامها لهم ، وهكذا خلت مصر من كل طوائف الجند ولم يبق في الميدان الا الجند الارمن الذين حضروا مع امير الجيوش بدر فاسكنهم حارة الحسينية ومنذ ذلك الوقت اصبح معظم الجيش من الارمن ، ثم بدأ انضمام المصريين الى الجيش بعد ان تلاشى نهائياً ظل الاتراك والمغاربة (١)

لم يكتف بدر الجمالي باحداث التغيير الجذري في الانظمة الادارية والمالية وانظمة الجيش بل تناول بالتغيير الكثير من الاوضاع .

فكما ان الجيش خضع لوزراء السيوف واصبح بيدهم امر تعيين القواد وعزلهم وتعبئة الجيش واعلان الحرب ، كذلك اصبح بيدهم تعيين الولاة وعزلهم والنظر بالمظالم .

وكانت الوظائف الدينية وعلى رأسها قاضي القضاة وداعي الدعاة بيد الخليفة ، فلما جاء بدر الجمالي جعل القضاة والدعاة نواباً له ، واصبح من القاب وزير السيف « كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين » .
ولم يبق للخليفة المستنصر امر ولا نهي الا الركوب في الميدن (٢) .

١ – الوزارة والوزراء ص ٧٧
٢ – ذيل تاريخ دمشق ص ٩٧

اراد بدر الجمالي ان يقلد ابنه ابو القاسم شاهنشاه الوزارة في حياته ، ويجعل من الوزارة وراثة كالخلافة يأخذها الابن عن ابيه ، فاسند الى ابنه الافضل النظر في كل ما كان بيده من صلاحيات وامر الخليفة « بانشاء سجل قرىء في الايوان بمرأى ومسمع من امير المؤمنين ومن سائر جلة الدولة واشرافها وامرائها واوليائها وجنودها وعساكرها وغربائها وخاصها وعامها ، واظهره على اعين الناس مجلياً من التقليد والتفخيم والتعظيم مفاخر هي المفاخر والمعالي ، وعقد له من ذلك ما خفض به سكب المعادي وابهج قلب الموالي » .

في عام ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م .) مات بدر الجمالي امير الجيوش في مصر ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة ان السنة التي مات فيها سميت « سنة موت الخلفاء والامراء » ففيها مات الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي وآق سنقر (والد زنكي) صاحب حلب – مات قتلا – ، وبوزان بالشام وبدر الجمالي بمصر ومحمد بن ابي هاشم امير مكة ، واخيراً مات الخليفة المستنصر الفاطمي في مصر (١) .

من اهم الآثار التي شيدت في عهد بدر الجمالي والتي ما تزال باقية حتى يومنا هذا ، الابواب الثلاثة الكبرى لسور القاهرة ، وهي باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح التي تشهد بعظمة العمارة الفاطمية ، وهذه الابواب من عمل ثلاثة اخوة من مدينة الرها ، ويظهر فيها اصول الفن البيزنطي ، وكذلك مسجد امير الجيوش بالمقطم الذي اشتمل رغم صغره على مميزات معمارية نادرة (٢) .

١ – النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١١

٢ – الوزارة والوزراء ص ١٢٨

وقد بلغت مدة حكم امير الجيوش بدر الجمالي ٢١ سنة واشهر فقد بدأت في ٢٨ جمادى الاولى سنة ٤٦٦ واستمرت حتى ربيع الثاني سنة ٤٨٧ هجرية (١) .

الافضل سيف الاسلام

مات بدر قبل شهور من موت المستنصر ، فاسند الخليفة امور البلاد الى ابنه ابي القاسم شاهنشاه ومنحه لقب « الافضل سيف الاسلام ».

ما كاد الافضل يتسلم مهام منصبه حتى بادر فوضع يده على جميع السلطات التي كانت لأبيه وزاد عليها ، ولما كان المستنصر قد بلغ مرحلة الشيخوخة فقد وضع عليه الافضل حجراً ، فهو لا يستطيع مغادرة قصره إلا لامامة الناس وخطبة الجمعة وصلاة العيدين .

ولكن المستنصر كان نفسه على ابواب الابدية فانه مات بعد امير الجيوش ببضعة شهور .

وهنا حدث امر على جانب عظيم من الاهمية ...

كان نزار هو اكبر اولاد المستنصر ، وهو احق الجميع بولاية العهد إلا ان الافضل كان يريد ان يضع على العرش ابن اخته احمد ، فهو ما يزال صغيراً ومن السهولة بمكان التعامل معه ، وبعد فان امه – اي اخت الافضل – تحب أخاها وتحترمه ، وستقف بجانبه في توجيه الخليفة الجديد الى مافيه فائدة الافضل ومصلحته .

كان جميع رجال الدولة قد بايعوا نزارا بولاية العهد في زمن ابيه

٤ – الوزارة والوزراء ص ٣١١

المستنصر ، ما عدا الافضل الذي امتنع عن المبايعة ، وقيل السبب ان زارا سبق ان وجه اهانة كبيرة للافضل ، اذ عيره يوماً بأنه « ارمني » ولكننا نستبعد ان يكون نزاراً قد فعل ذلك ، فالرجل يعرف قيمة نفسه ، ويعرف ان الافضل ليس بالغريب عن اهل القصر ، واخته نفسها واحدة من حريم ابيه ، وأم لأخيه ابي القاسم ، حتى لو كان الامير نزار قد وجه مثل هذه الاهانة الى الافضل في ساعة غضب ، او ثورة اعصاب ، فلا نظن انها تعايش في رأس الافضل طوال تلك الاعوام ومن ثم تكون السبب في حجب البيعة عن نزار واعطائها لأحمد .

ان السبب الذي نرجحه هنا هو كون احمد ابن اخت الافضل ، وانه اصغر سناً من بقية اخوته وبالتالي فان الافضل يستطيع ان يمارس جميع صلاحياته في ظل خليفة يعتبره ابن اخته قبل اي شيء آخر .

وعلى هذا ، نجد ان الافضل قد سارع بعد موت المستنصر الى اعلان ولائه لاحمد ، ثم اخرجه من القصر واجلسه على سرير الخلافة ، واطلق عليه لقب المستعلي بالله ، وطلب الى الامراء والقادة وكبار رجال الدولة مبايعته ، فامتثل الجميع لامره ، ودخلوا قاعة العرش وقدموا ولاءهم لخليفتهم الجديد حسب الطقوس والمراسيم المعتادة في ذلك العهد .

حين رأى نزار ما فعل الافضل به ، وأحس بميل الناس الى مصانعة الافضل ، وقد غدا أقوى رجل في الديار المصرية كلها ، سافر الى الاسكندرية وأخذ يستعد للرجوع الى القاهرة وانتزاع العرش من مغتصبه بالقوة .

وقد اعقب هذا الحادث جملة أمور انتهت بوقوع نزار في يد الافضل وتسليمه الى أخيه الخليفة الذي قتله تجنباً لخطره ، وعلى الاثر تفرقت

جماعة نزار واصحابه في البلاد ، واستتبت الامور بعد ذلك للخليفة المستعلي بالله ولخاله شاهنشاه .

ولكن المستعلي لم يعمر طويلاً ، فقد مات في عام ٤٩٥ هجرية (١١٠٠م.) فجاء الافضل بابن المستعلي (منصور) وكان له من العمر خمسة اعوام ووضعه على سرير الخلافة واطلق عليه لقب الآمر بأحكام الله ودعا الناس الى بيعته ، ففعلوا ..

حجر الافضل على الآمر وكلف به نساء القصر وانصرف هو الى تدبير المملكة والتحكم فيها . وظل الامر كذلك حتى شب الآمر عن الطوق ، وبلغ مرحلة المراهقة ، واخذ يتطلع الى المملكة التي يحكمها بالاسم فقط ، والى العرش الذي ليس له فيه شيء ، والى كبار الرجال والقادة الذين يبذلون له الطاعة في الظاهر ، ثم يتحولون الى الافضل سيف الاسلام يتلقون منه الاوامر ، ويتقيدون بما يمليه عليهم من تعليمات ، اضافة الى ذلك ما كان يبديه الافضل من خلاف المذهب الديني الذي تقوم عليه الدولة الفاطمية ، فتاقت نفس الآمر الى ان يصبح هو بدوره صاحب الامر والنهي في البلاد ، وعلى هذا اتخذ قراره بوجوب القضاء على هذا الرجل .

حين اطلع الآمر ابن عمه الامير ابو الميمون عبد المجيد بن الخليفة المستنصر على ما بيته من امر ، مانعه في ذلك وقال له انه اذا ما فعل ذلك فان الناس سيلوكون سمعته ويقرنون اسمه بكل سوء ، ذلك ان الافضل واباه قد عملا في خدمة العرش مدة خمسين سنة ، وكانا من اخلص الناس واصدقهم ولاء « فماذا سيقول الناس اذا نحن قتلناه ، أليس هذا تجنياً – في الظاهر – على الرجل ، ذلك لأن الشعب لا يعلم حقيقة ما يجري في الخفاء ، وما يعرفون من الافضل الا الموالاة الخالصة والطاعة الصادقة والذب عن الدولة والمحاماة عنها » وقال ابو الميمون ، لو فعلنا ذلك وعرف

الكل اننا الذين قتلنا وزيرنا ، فمن الذي سيجرؤ على تسلم منصب الوزارة من بعده ويطمئن الينا ؟ .. [1]

وبعد ان تدارس الخليفة وابن عمه هذا الموضوع تم الاتفاق على الاستعانة بأبي عبد الله محمد البطائحي وهو من رجال الافضل والمطلع على اسراره ، والمدبر لشؤونه [2] على ان يعداه بتولي الوزارة خلفاً للافضل ، وان يعمد فوراً الى قتل الجماعة التي ستكلف باغتيال الافضل والدعوة الى المطالبة بدمه واظهار الحزن عليه والتأسف لفقده ، وهكذا يظهر القصر في نظر الناس بمظهر الذي فوجيء بالحدث لا الذي خطط له واشرف على تنفيذه .

وافق البطائحي[3] على تنفيذ خطة الاغتيال لقاء حصوله على الوزارة ، وبدأ من يومه يخطط للامر .

يقول ابن القلانسي « كان الافضل غاية في التحرز والتحفظ واستعمال الاحتراز والتيقظ وكان يستعين بانواع السلاح ووافر الغلمان والخدم والعبيد والعدد المختلفة والسيوف الماضية [4] .

وكان قد اعتاد ان يقوم بتوزيع عطاءات الجند والهبات المالية على الناس في الاعياد ، وكانت داره الخاصة في مصر ، وخزانة السلام في دار الخلافة والعسكر ، فاذا ما أهل العيد كان الافضل يخرج من داره

---

١ ــ ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٤

٢ ــ ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٤

٣ ــ يقول تقي الدين ابن القاضي شهبة في منتفى العبد ان والد عبد الله كان جاسوساً للمصريين ، وقد مات الوالد ونشأ الابن يتيماً ، فصار يحمل في السوق، وفي يوم دخل مع الحمالين الى دار امير الجيوش بدر الجمالي فرآه شاباً ظريفاً فاعجبه واستخدمه ثم تقدم عنده (القلانسي ص ٢٠٤ حاشية ١) .

٤ ــ الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٣٠٣

في موكب عظيم ويتوجه الى خزانة السلام ويباشر في اخراج المال وتوزيعه على الناس .

في اليوم الاخير من شهر رمضان عام ٥١٥ هـ خرج الافضل من داره كعادته في موكب عظيم وراح يخترق شوارع القاهرة محدثاً جلبة عظيمة ومثيراً فرسانه غباراً كثيفاً فلما بلغ الجسر القائم عند نهاية السويقتين برز اليه رجل من الجماعة الذين انتدبهم البطائحي لقتله واشهر في وجهه سيفه محاولا الهجوم عليه وطعنه ، وبادر حراس الافضل نحو الرجل لمنعه من الاقتراب وحاولوا القبض عليه ، فساد الهرج والمرج وانشغل الحراس بمطاردة الرجل واعتقاله ، وهنا ، وجد بقية افراد الجماعة ان الفرصة اصبحت سانحة لهم ، فباغتوا الافضل من الخلف واعملوا فيه سكاكينهم وخناجرهم .

وكان ثمة رجال آخرون للبطائحي انتدبوا خصيصاً للفتك بقتلة الافضل وطمس معالم الجريمة ، فانهم ما كادوا يرون ما حل بالوزير حتى هجموا على القتلة واعملوا فيهم سيوفهم ، وقتلوهم ليقطعوا بذلك الخيط الوحيد الذى يربط الرجال المنفذين بالرجال المخططين .

حمل الافضل الى داره وهو في النزع الاخير ، وهرع الخليفة الآمر اليه يعرب له عن شديد حزنه واسفه ، ويبريء نفسه من هذا الجرم الشنيع ، ثم يميل على الافضل ويسأله عن الاموال التي بين يديه !. فيقول ان الظاهر منها مكلف به ابو الحسن بن اسامة الكاتب[1] . واما الباطن ــ اي المخفى من تلك الاموال ــ فانها بيد ابن البطائحي نفسه[2] .

---

١ ــ ابو الحسن بن اسامة هو من اهالي مدينة حلب ، كان والده قد هاجر الى مصر وتولى قضاء القاهرة ، وكان الافضل يعتمد عليه ويثق بأمانته وصدقه .

٢ ــ الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٣٠٣

في صبيحة اليوم التالي كان العيد ، وبعد الصلاة ، غسل جثمان الافضل وكفن ووري التراب في موكب مهيب ، وانقلب فرح الناس الى مأتم ، وكانت ولايته بعد ابيه ثمانية وعشرين سنة وله من العمر سبعة وخمسين عاماً (١) .

كان الافضل محباً للعلم ، فقد خلف مكتبة ضخمة تحتوي على خمسمئة ألف مجلد من الكتب ، وكان يشجع الشعراء والعلماء والكتاب ، فنظموا القصائد في مدحه (٢) .

فمن ذلك ما قاله ابن خضر العسقلاني في قصيدة جاء فيها :

اقول والنجم مرقوم بغرته   سطراً نظرت وضوء الصبح مبتسم
أماء خديه اضحى في زجاجته   يدير ام ماؤها في وجنتيها دم ؟
صبغ الصباح ضياء من مباسمه   فاستنبطت حلكاً في شعره العتم (٣)

كان الافضل شديد الغيرة على نسائه ، وقد امر يوماً بقتل جارية تطلعت الى الطريق ، فلما جيء برأسها بين يديه قال :

نظرت اليها وهي تنظر ظلها   فنزهت نفسي عن شريك مقارب
أغار على اعطافها من ثيابها   حذاراً ومن مسك لها في الذوائب
ولي غيرة لو كان للبدر مثلها
لما كان يرضى باجتماع الكواكب (٤)

---

١ ـ الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٣٠٣
٢ ـ النظم الاسلامية ص ١٧٤
٣ ـ النظم الاسلامية ص ١٧٥
٤ ـ الوزارة والوزراء ص ١٠٤

ولما توفي الافضل ، مكث الخليفة في داره التي بناها سنة ٥٠١ هجرية (١١٠٧ م .) اربعين يوماً والكتاب بين يديه ، والدواب تحمل وتنقل ليلا نهاراً (١) ووجد الخليفة في داره من الذخائر النفيسة والثياب والطيب والنحاس والآلات ما لا يحصى .

وكان الافضل قد نقل الى داره تلك الدواوين ، كما جعل فيها اماكن خاصة تقام فيها الاسمطة في الاعياد ، واتخذ في احد ابهائها مجلساً يجلس فيه للعطاء ، فسمي مجلس العطاء ، إذ كان الافضل يعطي ديناراً لكل من يأتيه مستجدياً ، وكان يحتفظ لذلك في مجلس العطاء ثمانية اكياس ، في سبعة منها خمسة وثلاثون الف دينار ، كما جعل في قاعة اللؤلؤة بجوار الخشية التي كان يجلس عليها كيسين في احدهما دنانير وفي الآخر دراهم ، لينفق منها اذا كان في الحرم ، أي في المكان الذي تقيم فيه زوجته واولاده .

وكان في بيت الافضل ثمانمئة جارية منهن خمسون محظية ، لكل واحدة منهن حجرة تخصها وخزائن مملوءة بالكسوة وآلات الديباج والذهب (٢) .

وقد تم نقل هذه الثروة الضخمة الى دار الخليفة ، ووضع عليها الآمر جماعة من الكتاب قاموا باحصائها ، واستغرقهم هذا العمل من الوقت اكثر من شهرين .

يتحدث ابن ميسر في مصنفه (تاريخ مصر) (٣) عن اخلاق الافضل فيقول :

---

١ ـ الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٣٠٣
٢ ـ الوزارة والوزراء ص ٩١
٣ ـ تاريخ مصر لابن ميسر ص ٥٨ ـ ٥٩ (عن ذيل تاريخ دمشق)

« كان من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة يجاوز ما سمع به قديماً ، وما شوهد به اخيراً ، ولم يعرف احد صودر في زمانه ، ولما حضر الاسكندرية كان فيها يهودي يبالغ في سب الافضل وشتمه ولعنه ، فلما دخلها الافضل قبض عليه واراد قتله فقال : ان معي خمسة آلاف دينار ، خذها مني واعف عني واعتقني ، فقال الافضل والله لولا خشية ان يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك ، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئاً ، ومحاسن الافضل كثيرة ، وهو اول من افرد مال المواريث ومنع من اخذ شيء من التركات (كما كان متبعاً في الماضي) ، وامر بحفظها لاربابها ، فاذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقها اطلقها في الحال » .

وقد بلغ التقدم الزراعي في عهد الافضل ان عمرت الارض كلها حتى ان الافضل استجلب اردبين من نوع جديد من القمح واراد تجربتها في الزراعة ، فأرسل احدهما الى والي الصعيد ، والآخر الى والي الدلتا ، فجاءه جواب احدهما ان الارض كلها مزروعة ، وليس هناك مكان لبذر هذا القمح ، في حين ذكر الثاني انه بذر الاردب ، وقد كافأ الافضل الاول لاهتمامه بزراعة جميع الارض ، وعاقب الثاني لتركه جزءاً منها غير مزروع (١) .

ويعتبر عهد الافضل بصورة عامة من العهود السعيدة في مصر والتي شهدت فيها الرخاء ونعم الناس بالطمأنينة (٢) .

بلغت مدة حكم الافضل – كما قلنا – ٢٨ سنة ونصف اذ بدأت

١ – تاريخ مصر لابن ميسر ص ٥٨ – ٥٩ (عن ذيل تاريخ دمشق)
٢ – الوزارة والوزراء ص ١٤٩

في ربيع الاول سنة ٤٨٧ وانتهت في آخر شهر رمضان سنة ٥١٥ هجرية (١) .

لما قتل الافضل ونقلت ثروته الى دار الخليفة قبض الآمر على ابنه احمد وسجنه ، كما قبض بعد ذلك على ابن عمه ابي الميمون واودعه السجن .

لم يهنأ ابو عبيد الله البطائحي كثيراً بالمنصب الذي وليه بعد قتله الافضل فبعد اربعة اعوام (٥١٩ هـ .) قبض الآمر عليه وعلى اخيه احمد المؤتمن واستولى على اموالهما وذخائرهما ثم قتلها .

احمد بن الافضل

لم ينس رجال الافضل وجنده الدم الذي سفك غدراً ، وكانوا يعرفون جميعاً ان الخليفة الآمر ، هو المدبر الاول لكل ما حدث ، وكان الدليل على ذلك هو مصادرته اموال الافضل وسجن ابنه احمد وكأنه بذلك يريد ان يدفع عنه خطره ، وكما فعل الآمر من تدبير بشأن الافضل ، كذلك فعل جماعة الافضل بالنسبة الى الخليفة نفسه .

حدث في اليوم الثالث من شهر ذي القعدة عام ٥٢٤ هجرية (١١٢٩ م .) ان خرج الآمر من القاهرة متجهاً الى الجزيرة ، وبينما كان يعبر الجسر اذ وثب عليه نفر من جماعة الافضل وعاجلوه بسيوفهم ، فاثخنوه بالجراح ثم ولوا الادبار ، حمل الآمر في موكب الى القصر ، وفي المساء فاضت روحه وكان يبلغ من العمر / ٣٤ / عاماً .

١ – الوزارة والوزراء ص ٢٧٢
٢ – الوزارة والوزراء ص ٣٦٢

ما كاد يعلن موت الخليفة حتى وثب على القاهرة غلام ارمني (١) واستولى عليها ، واخذ يفرق الاموال في العساكر ويدعوهم الى تأييده وطاعته ، فتبعه عدد كبير من القادة والجند ، ولكن كبار الرجال العقلاء رأوا في هذه الحركة خطراً يتهدد سلامة البلاد ، ويعرض الخلافة ذاتها للهلاك ، فاسرعوا الى السجن الذي وضع فيه احمد بن الافضل فاخرجوه منه وعاهدوه على العمل والطاعة وجاءوا به الى القاهرة ، فلما اقتربوا منها خرج اليهم الغلام الارمني ومعه العساكر لمنعهم من الدخول ، ووقعت الحرب بين الفريقين كانت الغلبة فيها لأحمد وجماعته وقتل الغلام الارمني وتفرق اصحابه .

لم يكن الآمر قد اعقب ولدا يخلفه في الملك وكانت زوجه حامل ، فرأى الجميع ان يسندوا امر الخلافة الى واحد من الاسرة المالكة ريثما يتم وضع غلام الآمر ، فاذا كان ذكراً سمي خليفة واذا جاء بنتا ثبت الخليفة المؤقت في عمله .

واستقر الرأي على اختيار أبي المأمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر الذي رأيناه يلعب دوراً هاماً في حادث مصرع الافضل ، فاخرجوه من السجن وجاءوا به الى دار الخلافة ووضعوه على السرير ولقبوه بالحافظ لدين الله واسندت الوزارة وامرة الجيوش الى احمد بن الافضل واطلق الخليفة عليه لقب « الاكمل امير الجيوش » .

بعد شهور قلائل وضعت زوجة الآمر مولودها وكانت بنتا ، فاعلن الحافظ لدين الله بشكل رسمي خليفة على البلاد ، وتولى ابو علي احمد امور البلاد على النحو الذي كان عليه ابوه الافضل وجده بدر الجمالي . واطلق يده في كل أمر ، بعد ان وضع الخليفة الحافظ تحت الحجر لصغر سنه ،

---

١ ـ وردت هذه الحادثة في مرآة الزمان ولم يرد الاسم الصريح للغلام الارمني.

ثم صعد الى دار الخلافة واستولى على جميع ما فيه من ثروات واموال وكنوز وقال هذا كله مال ابي وجدي ، واظهر مخالفته لمذهب الفاطميين الديني واظهر التمسك بالامام المنتظر في آخر الزمان (١) وجعل الدعاء في الخطبة له بعد ان منح نفسه لقبا هذا نصه :

« ناصر امام الحق وهادي القضاة الى الشرع ، شرع الحق واعتماده ، مولى النعم ، ورافع الجور عن الامم ، مالك فضيلتي السيف والقلم (٢) ».

ولكن الخليفة الحافظ لم يعلن استسلامه هذه المرة ، بل عمد الى الثأر من الوزير الذي فرض عليه الحجر وقيد حريته ، ففي العشرين من شهر محرم عام ٥٢٥ هجرية (١١٣٠ م .) خرج الاكمل للعب الكرة كعادته فكمن له جماعة وحمل عليه مملوك افرنجي فطعنه وقتله ثم قطع رأسه وحمله الى الحافظ في داره الخاصة فخرج هذا الى دار الخلافة واخذ البيعة لنفسه ثانية من الناس ، وامر باعادة الاموال والثروات التي صادرها الاكمل من دار الخليفة الى خزانة الحافظ .

قال الحافظ الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام تعليقاً على مصرع الاكمل :

« انه صاحب مصر وسلطانها الملك الاكمل ابو علي وابن صاحبها ووزيرها » .

وقد علق بن تغرى بردى على كلمة « ملك » التي اوردها الذهبي فقال :

« الحق ما نعته الذهبي فان احمد هذا ووالده وجده كانوا اصحاب

---

١ ـ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٩٥

٢ ـ تاريخ الاسلام السياسي ج ٤ ص ٣٣٠

مصر والخلفاء معهم كانوا تحت الحجر والضيق ، وتصديق ذلك ما خلفه الافضل شاهنشاه من الاموال والمواشي وغير ذلك ، وانما كان يطلق عليهم الوزراء لكون العادة كانت جرت بأن الملك للخليفة لا (لغيره) وهم بلا مدافعة كانوا اعظم من سلاطين زماننا هذا » (١) .

بلغت مدة حكم الاكمل سنة وشهران ، اي من ١٥ ذي القعدة سنة ٥٢٤ الى ١٦ محرم سنة ٥٢٦ هجرية (٢) .

السعيد ابو الفتح يانس الارمني

يقول المقريزي : لما قتل كتيفات بادر صبيانه الخاص الذين تولوا قتله الى القصر ودخلوا ومعهم الامير يانس متولي الباب الى الخزانة التي فيها الحافظ واخرجوه الى الشباك واجلسوه في منصب الخلافة ، وقالوا : والله ما حركنا على هذا إلا الامير يانس فجازاه الحافظ بأن فوض اليه الوزارة في الحال وخلع عليه فباشرها مباشرة جيدة .

يقول الدكتور محمد حمدي المناوى :

كان يانس مولى ارمنياً لباديس جد عباس الوزير فاهداه الى الافضل ابن امير الجيوش وترقى في خدمته الى ان تأمر ، ثم ولى الباب وهي وظيفة جليلة يتولاها اعظم الامراء ، وكنى بابي الفتح ولقب بالامير السعيد ، فلما ولى الوزارة نعت بناصر الجيوش سيف الاسلام ، وكان عظيم الهمة بعيد الغور ، شديد الهيبة ، فهدأت الدهماء وصلحت الاحوال واستقرت الخلافة للحافظ .

---

١ — النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٨
٢ — الوزارة والوزراء ص ٣١٢

ثم ساءت العلاقة بين يانس والخليفة فدبر هذا عليه حتى قتله بالسم (١) .

بلغت مدة حكم يانس سنة الا اياماً (محرم ٥٢٦ - ذي الحجة ٥٢٦ هجرية (٢) .

بهرام الارمني

يذكر المؤرخون انه ارمني الجنسية ، نصراني الدين ، من تل باشر، ويقول ابن ميسر ان سبب حضور بهرام الى مصر ، ان القائم بامر الارمن في تل باشر مات ، وكان بهرام احق بمكانه ممن ولى بعده ، فتعصبت عليه جماعة من الارمن ورفضوه وولوا غيره ، فخرج من تل باشر مغاضبا وقدم الى القاهرة والتحق بخدمة الدولة (٣) .

لما قتل الاكمل كان بهرام واليا على المنطقة الغربية وكان يعتبر من كبار الامراء الارمن الذين يتولون المهام الرسمية في الديار المصرية ، وقد استمر على رأس ولايته هذه حتى عام ٥٢٩ هـ . (١١٣٤ م .) فجاء الى القاهرة واقام الحصار حولها ..

يقول المقريزي « قدم بهرام بالحشد ، فمسكه الاجناد بظاهر القاهرة وادخلوه على الحافظ لدين الله يوم الخميس بعد العصر الحادي عشر من جمادى الآخرة (٥٢٩ هـ .) لتوليته الوزارة ، فخلع عليه ثانيا يوم الخميس ثامن عشر خلع الوزارة ونعت بسيف الاسلام تاج الخلافة » (٤)

---

١ — الوزارة والوزراء ص ٢٧٧
٢ — الوزارة والوزراء ص ٣١٢
٣ — الوزارة والوزراء ص ٢٧٨
٤ — الوزارة والوزراء ص ٢٧٨

كانت العادة المتبعة عند الفاطميين ان يصعد الوزير منبر الجامع مع الخليفة في الاعياد ليزرر عليه المزرة (الستارة) التي تحجبه عن الناس ، فلما تقلد الوزارة امير الجيوش بدر الجمالي رأى ان مركزه اعلا من الوزارة وانه يعفيه من القيام بهذا العمل ، فكان ينيب عنه القضاة ، وكانت هذه النيابة تذكر في الوثائق الرسمية كما كانت تكتب ايضاً في وثائق الزواج .

فلما تولى بهرام الوزارة ، وهو ما يزال على دينه النصراني ، امتنع عن دخول الجامع واناب عنه قضاة المملكة في الصعود مع الخليفة على المنبر على الرغم من ان ذلك كان من حق الوزير نفسه ، وبهرام لم يكن امير جيوش ، بل لم يكن اكثر من وزير ..

فكان هذا سبباً في سخط الناس عليه ، وزاد هذا السخط حين احضر بهرام اخوته واهله وجماعات كثيرة من الأرمن المقيمين في تل باشر [1] ، وفي ارمينية ايضاً ، واقطعهم الاقطاعات وجعل اقامتهم في القاهرة نفسها ، حتى بلغ عدد الذين وفدوا على المدينة في فترة توليته الوزارة ثلاثين الف شخص [2] فبنوا الكنائس والاديرة وزاد عددها كثيراً ، وهنا تحرك الامراء الطامعون في السلطة فأوغروا صدر العامة ، وألبوا الناس على الوزير وجماعته ، ثم اتصلوا بالأمير رضوان بن لونخشي والي الغربية يطلبون منه مساعدتهم على تنحية بهرام وتوليه الوزارة مكانه .

في عام ٥٣١ هجرية جاء رضوان الى القاهرة في قوات عظيمة ،

---

١ — تل باشر قلعة حصينة وكورة واقعة في شمالي حلب واهلها نصارى وأرمن ولها ربض واسواق وهي عامرة آهلة (معجم البلدان لياقوت مادة تل باشر)

٢ — تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٧

ورأى بهرام ان لا قدرة له على مقاومة هذه القوات ، فغادر القاهرة سراً وتوجه الى قوص ليقيم عند اخيه باساك الذي كان والياً عليها .

تقلد رضوان الوزارة ولقب نفسه « الافضل » وأخذ في التضييق على اعوان بهرام والاستيلاء على املاكهم ، فلما رفعوا الامر الى الخليفة الحافظ ، غضب من تصرف وزيره الجديد ، وارسل الى بهرام يستدعيه ، فلما قدم عليه اظهر نحوه كل مودة وصداقة ، واسكنه في قصره واحله من نفسه محل الاكرام ، وامر ان ترد الاملاك التي صودرت من الارمن على اصحابها ، وان تطلق لهم حرية التصرف والعمل والنشاط ، وسعى الى ازالة الخلاف الذي استحكم بين الاهلين وبينهم ، وكان لتصرف الخليفة هذا صداه في نفس رضوان الوزير ، فتسلل من القاهرة ، وتوجه الى مدينة صرخد [1] وهناك جهز جيشاً كبيراً وعاد به الى مصر ، ولكنه هزم امام الامير ابي الفضل بن مصال قائد جيش الخليفة ، وانتهى الامر بحبسه في القصر [2] .

تصف المراجع العربية بهرام بأنه كان ذا عقل وافر ، وحسن التدبير ، واقدام في السياسة والحرب ، وانه تمكن من القضاء على كل آثار الفتنة التي قام بها الامير الحسن بن الحافظ ضد ابيه ، وكان من نتائجها وقوع البلاد في الفوضى والاضطراب وانقسام في الجيش [3] .

لما استقر الرأى اخيراً على تنحية بهرام عن الوزارة والتزامه الاقامة

---

١ — مدينة من بلاد حوران من اعمال دمشق

٢ — تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٨

٣ — الوزارة والوزراء ص ١٦٣

في دير البيض بأسوان ، فارقه اكثر جماعته من الارمن فمنهم من عاد الى بلاده ومنهم من اقام بأرض مصر ليكونوا فلاحين ، فطلب بهرام من الخليفة ان يخصص لهم مواضع يسكنونها ، فأجيب الى طلبه وافردت لهم جهات منها سمالوط وابوان وقلوصنا والبرجين في صعيد مصر وضيعة اخرى بأعمال المحلة [1] .

لم يعش بهرام طويلاً بعد اعتزاله الوزارة ، فقد وافته المنية عام ٥٣٥ هجرية (١١٤٠ م .) ودفن في الدير الذي اعتكف فيه [2] .

وكانت مدة حكمه سنتان إلا أياماً (من ١١ جمادي الاخرة ٥٢٩ الى ٢١ جمادي الاولى ٥٣١) [3] .

طلائع بن رزيك

لم يمر على مصرع الاكمل امير الجيش بن الافضل اكثر من تسعة عشر عاماً حتى وصل الى السلطة في القاهرة امير ارمني آخر هو ابو الغارات طلائع بن رزيك .

في عام ٥٤٩ هجرية (١١٥٤ م .) تآمر الوزير ابو الفضل عباس الصنهاجي مع ابنه نصر على الخليفة الظافر وقتلاه ، ثم قبضا على اخوي الخليفة يوسف وجبريل وابن عمهما صالح بن الحسن وقتلوهم بحجة انهم قتلة الخليفة ، وكان عباس وابنه يرميان من وراء ذلك الى دفع تهمة الجريمة عنهما والقائها على افراد الاسرة المالكة .

١ ـ الوزارة والوزراء ص ١٨١
٢ ـ تاريخ الامة الارمنية ص ١٩
٣ ـ الوزارة والوزراء ص ٣١٢

ثم اخرج عباس ابن الخليفة المغدور وهو ابن ثلاث سنوات ويدعى عيسى وبايعه بالخلافة ولقبه بالفائز بنصر الله ، ثم حجر عليه عند حرم القصر وانفرد بحكم المملكة مع ابنه .

وقعت هذه الانباء وقوع الصاعقة على اسرة الخليفة المغدور وكبار رجال الدولة الذين يعرفون الحقيقة ، وهال الجميع ان تسفك دماء الابرياء وتتهم بجرم لم ترتكبه ، وتطلق يد القتلة المجرمين فتستبد بالأمور وتتحكم بمصائر الناس .

اخذت العيون تبحث عن الرجل الذي يستطيع ان يدفع هذا الشر ويقيم موازين العدل ، ويبطش بالمجرمين الحقيقيين وينتصر للابرياء المضطهدين .

كان طلائع بن رزيك الارمني في ذلك العام والياً على قوص واسوان وبلاد الصعيد ، وكان معروفاً بالعدل والشجاعة والنجدة ، فبادرت نساء قصر الخليفة الى قص شعورهن وبعثن بها الى طلائع مع كتب تستصرخن به وتستنجدن .

وارسل اليه القاضي ابو المعالي عبدالعزيز بن الحباب جليس صاحب مصر كتاب استغاثة ضمنه قصيدته الدالية وهي من غرر شعر هذا الشاعر الاديب ، وقد جاء فيها بعد ان يشير الى ما تم من مصرع الخليفة :

فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم   ومالهم من منعة وزياد
اولئك انصار الهدى وبنو الردى   وسم العدا من حاضرين وباد
لقد هد ركن الدين ليلة قتله   بخير دليل للنجاة وهاد
تدارك من الايمان قبل دثوره   حشاشة نفس آذنت بنفاد
وقد كاد ان يطفىء تألق نوره   على الحق عاد من بقية عاد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم   ومصرعهم لم تكتحل برقاد

الى آخر القصيدة وهي طويلة (١) .

توجه ابن رزيك من فوره الى القاهرة ، ودخلها بأعلام سود وثياب سود حزناً على الظافر ، وقد علق على رؤوس الرماح شعور النساء التي ارسلت اليه تأكيداً على انه جاء نجدة ليغيث حرم القصر ويقتص من القتلة المجرمين (٢) .

قبل ان يدخل طلائع مدينة القاهرة ، كان الوزير عباس وابنه قد جمعا ثرواتها كلها وخرجا عن مصر مع نفر كبير من انصارها ، وولوا وجوههم شطر الشام للدخول في حماية بعض الامراء المتغلبين على بلدانها إلا انهم ما لبثوا ان وقعوا في ايدي جيوش الفرنج في عسقلان فقتلوا عباساً واستولوا على كل ما كان معه من اموال ، ثم ان طلائع ارسل اليهم اموالاً يفتدي بها نصر ، القاتل الحقيقي للخليفة الظافر ، فوضعوه في قفص من حديد وبعثوا به الى القاهرة ، فتلقاه طلائع وسلمه الى حرم القصر اللواتي اذقنه شر ميتة ، ثم صلبت جثته على باب زويلة .

خلا الجو لطلائع الذي خلع عليه الخليفة الصغير الوزارة ومنحه لقب « الملك الصالح ابو الغارات طلائع بن رزيك » ويقول ابن تغري بردى انه لما ولي الوزارة وتلقب بالملك الصالح ، خلع عليه مثل الافضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي من الطيلسان المقور وانشيء له السجل فتناهى فيه كتاب الانشاء ، فمما قيل فيه :

---

١ ـ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٩٢

٢ ـ يقول ابن الاثير في الكامل ان دخول طلائع بالسواد الى القاهرة كان من الفأل العجيب إذ ان الاعلام العباسية السوداء ما لبثت ان دخلتها بعد خمسة عشر عاماً من هذا التاريخ وازالت عنها الاعلام الفاطمية (ج ٩ ص ٤٤) .

« واختصك امير المؤمنين بطيلسان غدا للسيف توءماً ، ليكون كل ما اسند اليك من أمور الدولة معلماً ، ولم يسمع بذلك إلا ما اكرم به الامام المستنصر بالله امير المؤمنين امير الجيوش ابا النجم بدرا وولده ابا القاسم ، شاهنشاه ... وانت ايها السيد الاجل الملك الصالح ، وابن سعيها من سعيك ، وورعها الذمام من رعيك ، لأنك كشفت الغمة ، وانتصرت للائمة ، وبيضت غياهب الظلمة ، وشفيت قلوب الامة » (١) .

يقول المؤرخون العرب ، ان طلائع ارمني الجنسية ، ولد بأرمينية سنة ٤٩٥ هـ . واكب منذ صغره على العلم والادب ، وكان من الشيعة الامامية ، فقدم مع جماعة من الفقراء لزيارة مشهد الامام علي بن ابي طالب في النجف بالعراق ، فرأى السيد ابن معصوم امام المشهد في منامه الامام علي رضي الله عنه يقول له : « قد ورد عليك الليلة اربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزيك من اكبر محبينا ، قل له اذهب فقد وليناك مصر » ، فلما اصبح ، أمر السيد ان ينادى من فيكم طلائع بن رزيك فليقم الى السيد ابن معصوم ، فجاء طلائع وسلم ، فقص عليه ما رأى ، فتوجه من ساعته الى مصر ، والتحق بخدمة الدولة وترقى في المناصب حتي ولي الصعيد ، ثم استدعي الى القاهرة وتولى الوزارة ، وحمل لقب « السيد الاجل الملك الصالح ناصر الامة ، كاشف الغمة ، امير الجيوش ، سيف الاسلام غياث الانام ، كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين ابو الغارات طلائع بن رزيك الفائزي » (٢) .

استقل الملك الصالح في الملك ، وعمد الى ازالة جميع المناوئين له

---

١ ـ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣١١

٢ ـ الوزارة والوزراء ص ٢٨٥

من رجال الدولة وزعماء البلاد ، فدفعهم الى الهجرة عن الديار ، والتماس اسباب الحياة في اطراف المملكة العربية الكبيرة ، وقد عرف عنه ميله الى جمع المال واكتنازه ، كما اشتهر ببيعه الولايات للأمراء ، وجعل لها اسعاراً ، ومدتها ستة اشهر ، فكان الطامع في الولاية يدفع الثمن المحدد ويتسلم الولاية ، ثم يعمد الى جباية الضرائب ، والمكوس من الاهلين لتحصيل اضعاف المبالغ التي دفعها ، وهكذا ، مما ألحق الاضرار الفادحة بالناس ، وكان الولاة يتوافدون عليهم كل ستة اشهر واحداً .

ونظراً لصغر سن الخليفة ، وقصوره عن ممارسة صلاحياته كخليفة للمملكة ، فقد اوكل طلائع عمته الكبرى به وانصرف عن خدمة القصر ، بما تقضي به العادة والعرف والقانون .

كان الملك الصالح يتصرف تصرف الملوك ، ويمارس الحكم كأي ملك له كل الصلاحيات واليه كل الامور ، وقد جعل لنفسه مجلساً في اكثر الليالي يحضره اهل الادب والعلم ، ومارس هو نفسه مهنة نظم الشعر وتدوينه ، وقد ترك من بعده ديواناً يضم عشرات القصائد الشعرية التي تتراوح بين الغزل والوجدانيات وغيرها ، قيل انه كان يضع الخطوط الاولى للقصيدة ، ثم يتولى صاحب له يدعى الحسن بن علي بن ابراهيم بن الزبير الملقب بالقاضي المهذب اصلاح القصيدة واعادة صياغتها الشعرية والادبية من جديد .

ومن شعره :

ابى الله إلا ان يدين لنا الدهر
ويخدمنا في ملكنا العز والنصر

علمنا بأن المال تفنى ألوفه
ويبقى لنا من بعده الاجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا
سحاب لديه البرق والرعد والقطر (١)

وله ايضاً :

مشيبتك قد رمى صبغ الشباب
وحل الباز في وكر الغراب

ومنها :

فكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد انفقت منه بلا حساب (٢)

بدأت عمة الخليفة الفائز تحيك المؤامرة سراً للتخلص من الملك الصالح ، وأخذت تسعى لقتله ، وفرقت في ذلك مالاً كثيراً ، يقرب من خمسين الف دينار ، وبلغ ابن رزيك ما تقوم به العمة من نشاط ضده ، فأوقع بها وقتلها سراً بالاستاذين والصقالبة (٣) ثم نقل كفالة الفائز الى عمته الصغرى وطيب قلبها وراسلها واظهر لها كل مودة واخلاص ، ليزيل ما علق في نفسها من خوف بعد مصرع اختها الكبرى ، فسكتت هذه على مضض .

في عام ٥٥٥ هجرية (١١٦٠ م .) مات الخليفة الفائز ، وكان له من العمر عشر سنوات ، وجاء طلائع بن رزيك بمحمد بن يوسف بن

---

١ ـ اورده ابو الفداء في تاريخه المختصر ج ٥ ص ٥٤
٢ ـ النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣١٤
٣ ـ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣١٤

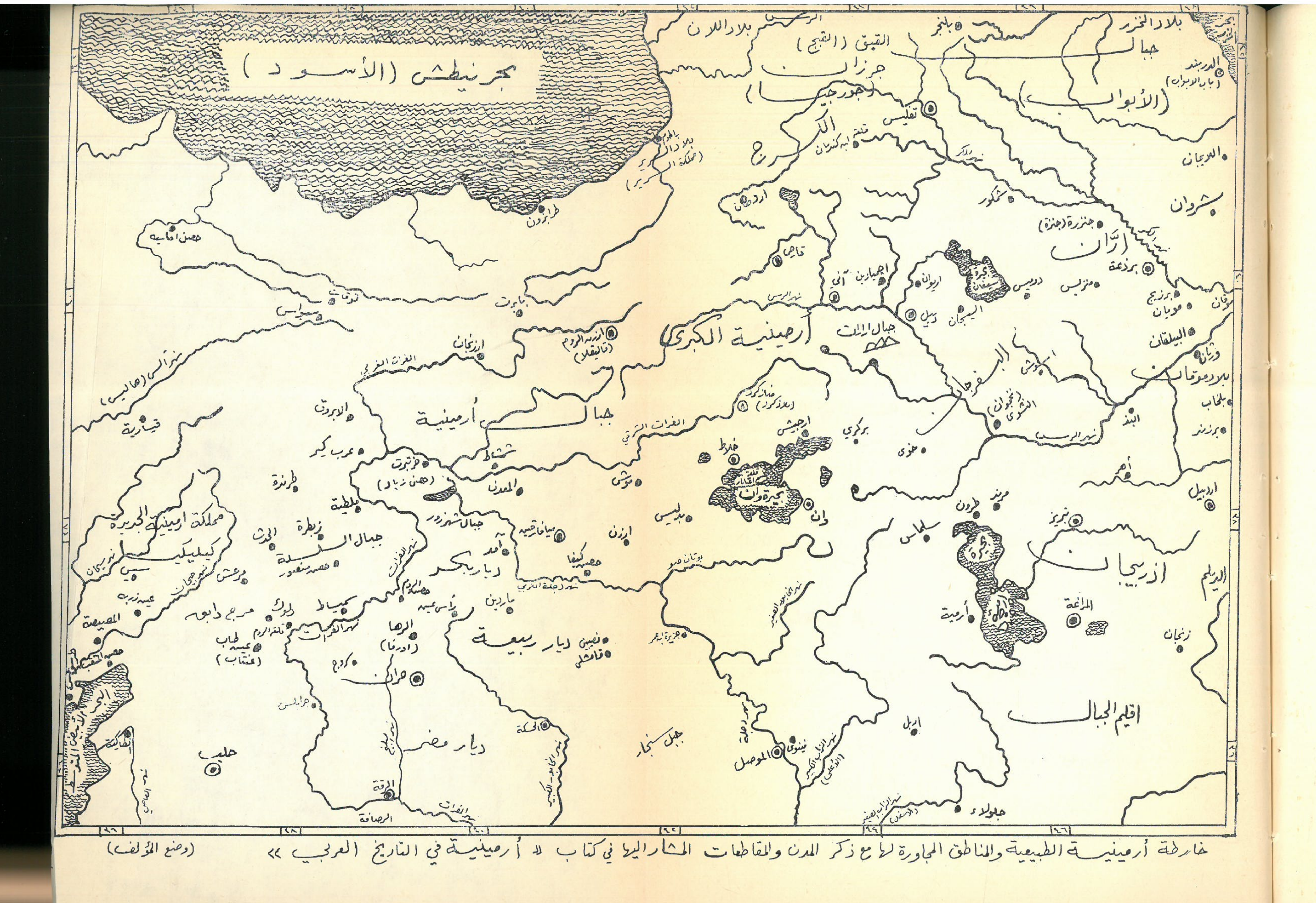
الخليفة الحافظ بالله واجلسه على سرير الخلافة ، ولقبه بالخليفة العاضد لدين الله ، ودعا القادة والامراء الى مبايعتة ، ففعلوا ، وكان العاضد مازال في الحادية عشرة من عمره حين ولي الخلافة وابوه هو يوسف احد الاخوين اللذين قتلهما الوزير عباس ملصقاً بهما تهمة قتل الخليفة الظافر .

ثم زاد طلائع في التقرب من الخليفة الصغير الذي ما يزال تحت حجره ايضاً ، فزوجه من ابنته مما زاد في حقد الحرم في القصر عليه[1] .

هنا تحركت عمة العاضد واخذت تتصل بعدد من الامراء المصريين وتحرضهم على قتل الملك الصالح ، وتبعث اليهم بالاموال الكثيرة للاستعانة بها في تنفيذ المهمة ، حتى كان عام ٥٥٦ هجرية ـ اي بعد عام واحد من تولي العاضد الخلافة ـ وفي احد الايام بينما كان الملك الصالح يجتاز مع ابنه رزيك دهليز القصر في طريقهما الى القاعة الكبرى ، إذ خرج عليهما عدد من الاشخاص وبأيديهم الخناجر والسكاكين وانهالوا على طلائع طعناً ولما حاول رزيك انقاذ والده ، وجهوا اليه ضربة اصابت يده اليمنى ، وكادوا يقضون عليه هو الآخر ، لو لم يداخلهم الخوف من ان يدخل احد على حين غرة ويكتشف الجريمة فولوا الادبار ، وكان الملك الصالح قد سقط على وجهه والدم يتدفق من فمه ، واطلق رزيك صوته مستنجداً ، فهرع اليه بعض الذين كانوا في القاعة ، فأكبوا على طلائع وحملوه بهدوء ، وكانت ما تزال فيه بقية من حياة ، ونقلوه الى قصره ، وهو فاقد الوعي ، فلما أفاق من غاشيته وتبين ما وقع له ، بعث الى الخليفة العاضد يبلغه الامر ، ويعاتبه ، ويقول له انه لا بد يعرف بالمؤامرة التي كانت تبيت له ولابنه ، ولكن الخليفة اقسم بالايمان المغلظة بأنه ما كان

---

١ ـ الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٧٥



خارطة أرمينية الطبيعية والمناطق المجاورة لها مع ذكر المدن والمقاطعات المشار اليها في كتاب « أرمينية في التاريخ العربي » (وضع المؤلف)

يعلم اي شيء ، وان الرأس المدبر لهذا هي عمته ، وقال طلائع « ان كنت بريئاً فسلم عمتك الي حتى انتقم منها » واسرع العاضد فأمر بالقبض على العمة وارسلها مقيدة الى الملك الصالح ، فلما ادخلت عليه أمر بقتلها ، ثم اوصى بالوزارة لابنه رزيك ، ولقبه بمجد الاسلام الملك العادل ، وبعد ساعات لفظ الملك الصالح انفاسه الاخيرة .

سجل المؤرخون العرب للملك الصالح طلائع بن رزيك مواقف مشرفة ضد الغزو الاستعماري البغيض ، فقد رفع علم الجهاد ، وجهز في سنة ٥٥٠ هجرية اسطولاً هاجم ميناء صور حيث ظفر بمراكب الفرنج ، وبعد هذه الموقعة عقد الفرنج مع الصالح هدنة استمرت حتى سنة ٥٥٢ هجرية . ثم شرع الصالح بعدها في ارسال الحملات البرية والبحرية للاغارة عليهم ، وقد جرت عدة اتصالات بينه وبين الشهيد نور الدين زنكي لتوحيد خططها الحربية ، والعمل على استنقاذ بيت المقدس ، وكاد هذا الاتفاق يتم بين الرجلين لولا مصرع الملك الصالح ، وتردي البلاد في حالة من الفوضى انتهت بزوال الحكم الفاطمي [1] .

كانت مدة حكم الملك الصالح سبع سنوات، من ١٩ ربيع الاول ٥٤٩ الى ١٩ رمضان ٥٥٦ هجرية [2] .

رزيك بن طلائع

بعد ان تماثل رزيك بن طلائع للشفاء والتأمت جراحه ، دخل على

---

١ ــ الوزارة والوزراء ص ٢٣٠

٢ ــ الوزارة والوزراء ص ٣١٣

الخليفة العاضد وجلس على كرسي الوزارة في المكان الذي كان يجلس فيه والده طلائع .

خشيت العمة الصغيرة ،التي كان الفائز في كفالتها حين مات، ان يغدر بها رزيك انتقاماً لوالده بعد ان دخل في روعه ان جميع الحرم في القصر قد شاركن في تخطيط المؤامرة وتنفيذها ، فأرسلت تستدعيه فلما جاء ، احضرت له الذي ضربه في عضده الايمن ، كما احضرت ايضاً سيف الدين حسين ابن اخي الملك الصالح طلائع ، (ابن عم رزيك) وحلفت لهما بأنها لم تدر بما جرى على الملك وان فاعل ذلك هم اصحاب اختها المقتولة ، ثم افسحت له بأخذ من ارتاب به في قتل والده ، فوضع رزيك يده على بعضهم وقتلهم .

يقول ابن تغرى بردى ان العادل رزيك اقام في الوزارة سنة ونيف فما رأى الناس احسن من ايامه ، وقد سامح الناس بما عليهم من الاموال المتبقية والمثبتة في الدواوين ولم يسبق ان فعل وزير من قبل مثل ذلك ، فكبر العادل في نظر الشعب ، والتف الجميع حوله ومحضوه الثقة والحب .

إلا ان بذرة الخلاف بين رزيك والامير شاور بن مجير السعدي ، كانت قد وضعت في ارض خصبة ، فما لبثت ان نمت وترعرعت ، فلما كانت سنة ٥٥٨ هجرية (١١٦٢ م) دخل شاور القاهرة بدعوة من الخليفة العاضد ، وكان قد ولاه من قبل ولاية قوص فعزله رزيك عنها ، فخرج شاور الى الواحات يجمع الجموع ويحشد العساكر ويراسل الخليفة العاضد سراً حتى أذن له اخيراً بالمجيء .

كان رزيك يعتمد على جنده الخاص من الارمن ، وكانوا يبلغون زهاء ثلاثة آلاف فارس ، كما كان يعتمد على فرقة خاصة اصطفاها من

خيرة الرجال واشجعهم واطلق عليها اسم « البرقية » وكان قائد هذه الجماعة هو ابو الاشبال ضرغام بن عامر .

إلا ان شاور كان هذه المرة في قوة كبيرة جداً بحيث عجز رجال رزيك عن صدها ، فاذا بالدائرة تدور على بني رزيك ، ووقع رزيك نفسه واخوه جلال الاسلام في الاسر ، أما ابن عمه حسين فقد تمكن من النجاة باعجوبة .

حاول رزيك ان يتحايل على قيوده ويهرب من السجن ، إلا ان الحراس شعروا به وقبضوا عليه ثانية ، وخشي شاور ان يعود رزيك الى محاولة الهرب ، وقد ينجح فيها هذه المرة ، فقتله وابقى على اخيه .

كانت مدة حكم رزيك سنة واربعة اشهر ، اي من ١٩ رمضان ٥٥٦ هـ . الى ٢٢ محرم سنة ٥٥٨ هجرية [1] .

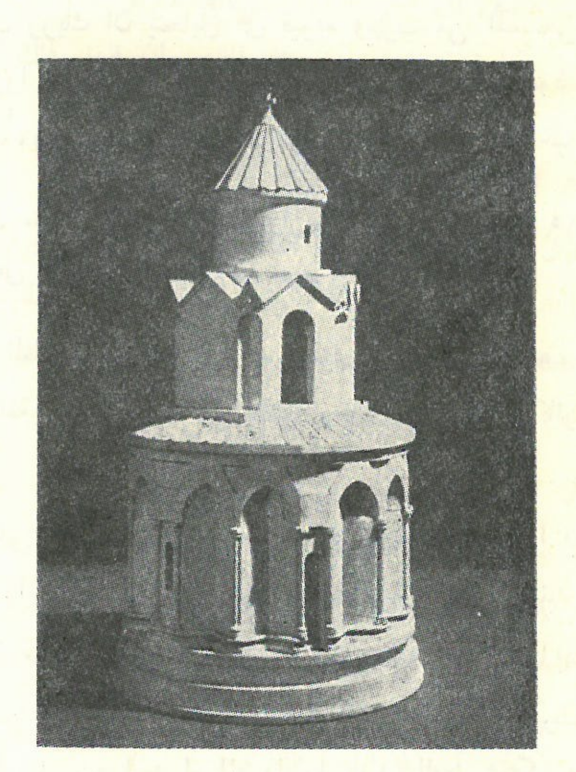
ولي العاضد شاور الوزارة بعد مقتل رزيك فكان هذا يجلس والابواب مغلقة عليه خيفة من بطش رجال رزيك الذين كانوا يتربصون به الدوائر .

أما ابو الاشبال ضرغام ورجال « البرقية » فقد رفضوا قبول الهزيمة وعادوا فجمعوا قواتهم ، واخذوا في مطاردة شاور الذي استبد به الخوف ثم ان جماعة ضرغام قتلوا ابن شاور الكبير واسمه طيء ، مما دفع شاور الى الهرب من القاهرة وطلب النجدة من الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي فأرسل معه احد امرائه (الامير اسد الدين شيركوه) ومعه ابن

---

١ ـ الوزارة والوزراء ص ٣١٣

اخيه الفارس الشاب يوسف صلاح الدين ... وكان تصرف شاور هذا ،
اول بادرة من بوادر غروب شمس الدولة العلوية عن مصـــر ، وظهور
الدولة الايوبية فيها ، وفي العالم العربي الاسلامي بعد ذلك .



المصادر والمراجع

الاعلام : خير الدين الزركلي (الطبعة الثالثة)

اطلس التاريخ الاسلامي : هاري و . هازارد
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – القاهرة

الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور الوسطى : الدكتور عبد المنعم
ماجد – دار الفكر – مصر ١٩٦٠

الامبراطورية البيزنطية : نورمان بينز – تعريب الدكتور حســين مؤنس
ومحمود يوسف زايد – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧

امبراطورية العرب : جون باغوت غلوب – تعريب خيري حمـاد – دار
الكاتب العربي – بيروت ١٩٦٦

البداية والنهاية : ابو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي – نسخة مصورة –
مكتبة المعارف (بيروت) ومكتبة النصر (الرياض) ١٩٦٦

التاريخ الاسلامي العام : الدكتور علي ابراهيم حسن – مكتبة النهضة
المصرية – الطبعة الثالثة ١٩٦٣

تاريخ الامة الارمنية : الدكتور ك . ل . استارجيان – مطبعة الاتحاد
الجديدة – الموصل ١٩٥١

تاريخ ارمينية : بول اميل – ترجمة شـكري علاوي – دار مكتبة الحياة – بيروت

تاريخ التمدن الاسلامي : جرجي زيدان – تحقيق الدكتور حسين مؤنس – دار الهلال – مصر

تاريخ الرسل والملوك : ابو جعفر محمد بن جرير الطبري – تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم – دار المعارف مصر

تاريخ الدولة الفاطمية : الدكتور حسن ابراهيم حسن – الطبعة الثانية – ١٩٥٨

تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق : الدكتور محمد جمال الدين سرور دار الفكر العربي ، ١٩٦٥

تاريخ العرب : فيليب حتى ، ترجمة الدكتور ادور جرجي والدكتور جبرائيل جبور ، دار الكشاف – بيروت ١٩٤٩

تاريخ اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٠

تاريخ الطب الأرمني : محاضرة الدكتور أ . هوانيسيان ، تحضير الدكتور روبير جبه جيان ، ترجمة زار خليلي ، منشورات الجمعية الخيرية الارمنية ، حلب ١٩٦٨

تاريخ الفارقي : احمد بن يوسف بن علي بن الازرق الفارقي ، الادارة العامة للثقافة ، ادارة احياء التراث ، مصر ١٩٥٩

تكملة تاريخ الطبري : محمد بن عبد الملك الهمذاني ، المطبعة الكاثوليكية بيروت (الطبعة الثانية) ١٩٦١

دائرة المعارف الاسلامية : نشر كتاب الشعب ، مصر

دائرة معارف البستاني : المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٦

ذيل تاريخ دمشق : ابو يعلى حمزة القلانسي ، مكتبة المثنى – بغداد نسخة مصورة عن طبعة الاباء اليسوعيين ١٩٠٨

الرسالة الثانية لأبي دلف (رحلة القرن العاشر) : نشر وتحقيق بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف ، عالم الكتب – مصر ١٩٧٠

الجزية والاسلام : دانيل دينيت ، مراجعة الدكتور احسان عباس ، دار مكتبة الحياة – بيروت ١٩٦٠

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام : آدم متز ، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (طبعة ثالثة) ١٩٥٧

حضارة الاسلام : غوستاف غرونباوم ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مشروع الالف كتاب ، ١٩٥٦

السلوك في معرفة دول الملوك : احمد بن علي المقريزي ، تحقيق الدكتور مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر – مصر ١٩٥٦

سيدات البلاط العباسي : مصطفى جواد ، مطبعة دار الكشاف – بيروت ١٩٥٠

سلاجقة ايران والعراق : الدكتور عبد النعيم حسين مكتبة النهضة – مصر ١٩٥٩

شرفنامة : شرف خان البدليسي ، ترجمة محمد عوني ، مراجعة يحيى الخشاب ، دار احياء الكتب العربية ١٩٦٢

الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي حافظ احمد حمدي ، دار الفكر العربي ، مصر ١٩٥٠

صبح الاعشى : الشيخ ابو العباس احمد القلقشندي ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية

صفحات من تاريخ الامة الارمنية : عثمان ن . الترك ، حلب ١٩٦٠

صورة الارض : ابو القاسم محمد بن حوقل النصيبي البغدادي ، دار مكتبة الحياة بيروت

ضحى الاسلام : احمد امين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر – مصر (طبعة ثالثة) ١٩٣٨

العرب والروم : ا . ا . فازيليف ، ترجمة د . محمد عبد الهادي شعيرة دار الفكر العربي – مصر

العقد الفريد : احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي ، تحقيق محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة – مصر ١٩٥٣

فتوح البلدان : الامام ابو العباس احمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، تحقيق عبد الله انيس الطباع وعمر انيس الطباع ، دار النشر للجامعيين – بيروت ١٩٥٧

الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ، دار صادر – بيروت ١٩٦٦

قادة فتح العراق والجزيرة : محمود شيت خطاب ، دار القلم – ١٩٦٤

كتاب الخراج : القاضي ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم ، المطبعة السلفية – مصر ١٣٨٢ هـ .

الكامل في التاريخ : ابو الحسن عز الدين الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري ، المطبعة المنيرية – القاهرة ١٣٥٧ هـ .

كتاب المختصر في تاريخ البشر : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ابي الفداء صاحب حماه ، دار الفكر ودار البحار (لبنان) ١٩٥٦

كتاب الوزراء والكتاب : تصنيف ابو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ١٩٣٨

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر : عبد الرحمن بن خلدون ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ١٩٦٦

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة : جمع الدكتور محمد حميد الله الحيدري آبادي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر (طبعة ثانية) مصر ١٩٥٨

محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية : محمد الخضري ، مصر ١٣٧٠ هـ .

مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي : سير أمير علي ، ترجمة رياض رأفت ، لجنة التأليف والترجمة والنشر – مصر ١٩٣٧

معجم البلدان : الشيخ الامام شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، دار صادر – بيروت ١٩٥٥

من قضايا الرأي في الاسلام : احمد حسين ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : جمال الدين ابو المحاسن يوسف ابن تغري بردى الاتابكي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

النظم الاسلامية : الدكتور حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية (الطبعة الاولى) ١٩٣٩

النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى : الدكتور ابراهيم علي طرخان ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨

نهاية الارب في فنون الادب : شهاب الدين احمد النويري ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

النكت العصرية في اخبار الوزارة المصرية : القاضي نجم الدين الحكمي ، تحقيق المستشرق هرتويغ درنبورغ ، نسخة مصورة عن طبعة مرسو ١٨٩٧

الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي : الدكتور محمد حمدي المناوي ، دار المعارف -- مصر ١٩٧٠

وفيات الاعيان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة - بيروت

يزيد بن مزيد الشيباني : الدكتور عبد الجبار الجومرد ، دار الطليعة - بيروت ١٩٦١

فهرس

طبع في المطبعة الحديثة بحلب

١٩٧٢/٣/٣٠٠٠